

عَوَّلَ الْمَلِكُ النَّهْضَةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

د/أحمد بن علي البتيت

﴿إِنَّ هَذِهِ الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾

[الإسراء: ٩]



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا،
 وصلى الله على البشير النذير، والسراج المنير، وسلم تسليمًا كثيرًا.
 وبعد، فإن هذا القرآن سرُّ الله في أرضه، وبوابة الأمة إلى النهوض في شتى
 أنواع المجالات، وما زالت عجائبه تتوالى لا تنقضي، وفوائده تترا لا تنتهي،
 وحين نكصت الأمة عن طريقه تردّت وهوت، وضاعت في متاهات السُّبل.
 ومن أخذ بالقرآن في أنواع المجالات أخذ بحظٍّ وافر وعلمٍ زاخر،
 ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾
 [النحل: ٨٩].

ومن هنا فإن عوامل نهضة المجتمع في جميع المجالات مبيّنة في القرآن
 مبثوثة، وقد تناولها القرآن بأساليب متعددة متنوعة، وقصّ في مواطن كثيرة
 منه أخبار الأمم التي أخذت بتلك العوامل والمقومات فنهضت بمجتمعاتها،
 وأخرى أهملتها فاندثرت!
 فهي عوامل ضمن سنن الله الكونية، لا تحابي أمةً عن أمة، فما حصلت لها أمةٌ
 إلا نهضت، فإن جمعت بين تلك السنن الكونية وسنن الله الشرعية فقد وصلت
 لل غاية.

وقد اشتمل القرآن الكريم على جملة مهمة من تلك العوامل، قدمها
 بطريقة بديعة، رابطًا لها بالمقومات الروحية الوجدانية، والشرعية السلوكية.
 وهذا الكتاب خطوة في طريق تتبع تلك العوامل في القرآن الكريم.
 أسأل الله أن يجعله خالصًا لوجه الكريم، ويفتح علينا من فضله في فهم
 كتابه.

وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

الفصل الأول

مفهوم عوامل النهضة

- أ- مفهوم عوامل النهضة لغةً واصطلاحاً وتاريخاً.
- ب- مفهوم عوامل النهضة في القرآن الكريم.

الفصل الأول

مفهوم عوامل النهضة

أ- مفهوم عوامل النهضة لغةً واصطلاحاً وتاريخاً:

• معنى كلمة (عوامل) لغةً واصطلاحاً :

العوامل، جمع عاملة، وقد أتت في اللغة بعدة معانٍ متقاربة، هي: الأرجل، وبقر الحرث، وصدور الرماح.

جاء في لسان العرب: «والعوامل: الأرجل؛ قال الأزهري: عوامل الدابة قوائمه، واحدها عاملة. والعوامل: بقر الحرث والدياسة. وفي حديث الزكاة: «لَيْسَ عَلَى الْعَوَامِلِ شَيْءٌ»^(١). والعوامل من البقر: جمع عاملة وهي التي يُستقى عليها ويحرث وتُستعمل في الأشغال.

وعامل الرمح وعاملته: صدره دون السنان ويجمع عوامل، وقيل: عامل الرمح ما يلي السنان...»^(٢).

ثم اصطلح فقهاء اللغة على استخدام لفظة «عوامل» فيما يعمل في الكلمة فيؤثر فيها، ولذا أضاف صاحب اللسان هذا المعنى: «والعامل في العربية: ما عمل عملاً ما؛ فرفع أو نصب أو جر، كالفعل والناصب والجازم وكالأسماء التي من شأنها أن تعمل أيضاً، وكأسماء الفعل، وقد عمل الشيء في الشيء: أحدث فيه نوعاً من الإعراب»^(٣). قال في التعريفات: «العامل: ما أوجب كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب»^(٤). ثم قسّم العوامل إلى قياسية وسماعية ومعنوية.

(١) أخرجه أبو داود، باب في زكاة السائمة، رقم (١٥٢٧)، وحسنه شعيب الأرناؤوط وغيره.

(٢) لسان العرب (٤٧٧/١١).

(٣) المرجع السابق (٤٧٦/١١).

(٤) التعريفات (ص ١٤٥).

والجامع للمعاني الواردة للكلمة هو: الفعل والحدث والأثر في الشيء، فالأرجل عوامل؛ لأنها تفعل المشي وتؤثر في غيرها، وبقر الحرث عوامل؛ لأنها تفعل في الحرث وتؤثر فيه وتحدث، وأطراف الرماح عوامل؛ لأنها تفعل وتؤثر في المطعون، والمؤثرات في الكلمة عوامل؛ لأنها تفعل فيها وتحدث أثرًا يُسمى الإعراب، فالعوامل على هذا هي المؤثرات الفاعلات في غيرها، وقد تنبه واضعو المعجم الوسيط لهذا المعنى فأثبتوه، فقد جاء فيه: «العامل... الباعث أو المؤثر في الشيء، يقال: كثرة الإنتاج من عوامل الرخاء»^(١). فتكون عوامل بمعنى: البواعث أو الأسباب المؤثرة في الشيء، أي شيء، ومهما كان التأثير.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه: «إن كان الوصف الذي على (فاعل) لمذكر عاقل لم يجمع على (فواعل)، وشذَّ فارس وفوارس وسابق وسوابق»^(٢)، فـ (عامل) للعاقل المذكر لا تُجمع على عوامل إلا شذوذاً، والقياس على الشاذ شاذ!

فتخلص كلمة (عوامل) إذن للأسباب والبواعث الفاعلة في غيرها، وهو الموافق للغة والاستخدام المحدث كذلك، ولما نعينه في هذا الكتاب أيضاً، وهذا - وإن كان بعيداً عن مقصد الكتاب - فإنه يعطينا لمحة لغوية إلى أن هذه العوامل لا تفتقر لأشخاص بأعينهم، بل من تحقق الأخذ بها أحدث أثرًا في نفسه وغيره وبيئته، بغض النظر عن صلاحه أو عقله أو استعداده الروحي!

• معنى كلمة (النهضة) لغةً:

(نهضة): اسم مرّة من النهوض، وقد أتت في اللغة بعدة معانٍ كلها تدل

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٦٢٢).

(٢) شرح ابن عقيل (٤/ ١٣١).

على القوة والطاقة والحركة والعلو، أو الاستعداد والاجتماع لذلك، أو آلة ذلك، في المقاييس: «نهض: النون والهاء والضاد أصل يدل على حركة في علوّ. ونهض من مكانه: قام. وما له ناهضة: أي قوم ينهضون في أمره ويقومون به. ويقولون: ناهضة الرجل: بنو أبيه الذي يغضبون له. ونهض النبت: استوى. والناهض: الطائر الذي وفر جناحه وتهياً للنهوض والطيران. ونهاض الطرق: صعدّها وعتبها، الواحدة نهضة. وأنهض البعير: ما بين كتفه إلى صلبه»^(١).

وفي لسان العرب: «نهض: النهوض: البراح من الموضع والقيام عنه، نهض ينهض نهضاً ونهوضاً ونهضاً أي قام.

وأنهضته أنا فانتهض، وانتهض القوم وتناهضوا: نهضوا للقتال. وأنهضه: حرّكه للنهوض، واستنهضته لأمر كذا إذا أمرته بالنهوض له، وناهضته أي قاومته. وتناهض القوم في الحرب إذا نهض كل فريق إلى صاحبه. ونهض النبت إذا استوى. والنهضة: الطاقة والقوة.

وأنهضه بالشيء: قوّاه على النهوض به.

والناهض: الفرخ الذي استقل للنهوض، وقيل: هو الذي وفر جناحه ونهض للطيران، وقيل: هو الذي نشر جناحيه ليطير، والجمع نواهض. ونهض الطائر: بسط جناحيه ليطير.

وناهضة الرجل: قومه الذين ينهض بهم فيما يحزنه من الأمور، وقيل: ناهضة الرجل بنو أبيه الذين يغضبون بغضبه فينهضون لنصره. وما لفلان ناهضة: وهم الذين يقومون بأمره.

وتناهض القوم في الحرب: نهضوا... ومكان ناهض: مرتفع»^(٢).

(١) مقاييس اللغة (٥/٣٦٣).

(٢) لسان العرب (٧/٢٤٥).

وقد أطلت -نسبيًا- في إيراد معاني واشتقاقات لفظة (النهضة) وما تدل عليه؛ لما توهمه بعض الباحثين من أن معانيها اللغوية غامضة، وأنها قد دخلت على اللغة العربية للتماهي مع كلمة النهضة التي وردت في التراث الأوروبي!^(١).

وعلى ما تقدم من المعاني اللغوية يكون المعنى اللغوي الإجمالي لجملة (عوامل النهضة): أي: البواعث أو الأسباب المؤثرة للحصول على القوة والطاقة والحركة والعلو، والاستعداد والاجتماع لذلك.

• مفهوم عوامل النهضة اصطلاحاً:

لن يبعد مفهوم عوامل النهضة بمعناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي؛ فالمعاني الاصطلاحية غالباً ما يُنحت معناها من قوالبها اللغوية.

فهي مجموعة الأسباب والمؤثرات في مختلف المجالات، والتي متى ما أخذ بها مجموعة من البشر تمكنوا من العلو والارتفاع على من سواهم ممن لا يأخذ بتلك الأسباب والمؤثرات!

فالأخذ والسعي والتحصيل ابتغاء ذلك، وقبل ذلك إعمال الفكر في تحديد تلك العوامل، هو طريق الانتهاض.

وقد يقصّر بعضهم استخدام هذا المصطلح على بعض مدلولاته، فيطلقه على النهضة والحراك الأدبي والثقافي، أو على الحراك والنهضة الاقتصادية أو غير ذلك، ولا مشكلة في ذلك الاجتزاء ما دام محدوداً به غير نافٍ لدخول غيره من المجالات ضمن عوامل النهضة.

فالنهضة خلاصة عوامل متكاملة، يكمل بعضها بعضاً في شتى المجالات لتشكيل بناءً واحداً ينتج عنه عمران الأرض وبناء الحضارات.

(١) ينظر: استراتيجية الإدراك (ص ١٣).

ولا يمكن أن تحصل النهضة بالضربة القاضية، فتنج نهضة ثم عمراناً فحضارة، بل هي عملية متتالية متدفقة، كما سيتم توضيحه عند الحديث عن مفهوم عوامل النهضة في القرآن الكريم، إن شاء الله. ومن هنا كان لا بد أن نتحدث بشكل خاطف عن بعض المصطلحات القريبة من مصطلح النهضة، وبيان أوجه التداخل بينها وبين مصطلح النهضة، وهي مصطلحات: التنمية، والحضارة، والعمران.

• مصطلحات مشابهة لمصطلح النهضة :

١ - مصطلح التنمية :

يدور معنى التنمية لغَةً حول الزيادة والارتفاع وبلوغ الشيء ووصوله^(١)، وهي في هذه المعاني تشابه بل تقارب معاني كلمة النهضة. وفي الاصطلاح تختلف تعريفاتهم للتنمية باختلاف ما تُطلق عليه، وهو مصطلح شائع إلا أنه قد قُصر استخدامه مؤخراً على التنمية الاقتصادية وتطوير بنائها وعوائلها، إلى غير ذلك من مجالاتها^(٢).

ومع وجود إشارات كثيرة لإطلاق مصطلح التنمية على تحقيق أمور أخرى، مثل محو الأمية والقضاء على الأمراض ونشر التعليم وما إلى ذلك، إلا أن الاستخدام الغالب كان اقتصادياً، بمعنى أن التنمية بعد كل التحفظات والاستدراكات ليست إلا مرادفاً للنمو الاقتصادي^(٣).

من هنا نخلص إلى أن مفهوم (التنمية) من حيث دلالاته اللغوية يرادف معنى النهوض إن لم يكن أوسع منه؛ فإن الناهض قد لا يصل لمبتغاه، بخلاف

(١) لسان العرب (١٥/٣٤٢).

(٢) ينظر: التنمية في عالم متغير، د. إبراهيم العيسوي (ص ١٣).

(٣) المرجع السابق (ص ١٣، ١٤).

ما يفيد مصطلح التنمية من الوقوع والتحقق، أما من حيث الدلالة الاصطلاحية فإن مفهوم النهضة أوسع؛ لأنه يقصد مجالات أوسع في الاستخدام بخلاف مفهوم التنمية الذي قُصر على الجوانب الاقتصادية.

٢- مصطلح الحضارة:

(الحضارة): بكسر الحاء وفتحها مصدر حضر، وتدور معانيها في اللغة حول المجيء والإقامة والمشاهدة.

جاء في المقاييس: الحاء والضاد والراء إيراد الشيء، ووروده ومشاهدته... والحضر خلاف البدو. وسكون الحضر الحضارة^(١).

وفي اللسان: والحَضْر والحَضْرَة والحاضِرَة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سُميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي لا يكون لهم بها قرار...

والحاضِرَة والحاضِر: الحي العظيم أو القوم^(٢).

أما من حيث الاصطلاح: فالحضارة مفهوم واسع، يختزل تفاعل الإنسان مع البيئة والتاريخ والثقافة والقيم والأخلاق وروافد أخرى مادية ومعنوية، تخلص في جميعها لتكوين الحضارة، «فالحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية.

وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ؛ لأن التاريخ هو الزمن، والثمرات الحضارية تحتاج إلى زمن لكي تبرز، أي أنها جزء من التاريخ أو نتاج جانبي له.

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٧٥).

(٢) لسان العرب (٤/ ١٩٧).

وكما أن ثمرة الزروع والأشجار لا تطلع إلا بفعل الزمن؛ إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما في اللحظة نفسها، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان»^(١).

وقد استُخدمت بعض المصطلحات في موقع مصطلح الحضارة، كمصطلح «المدنية»، و«الثقافة»^(٢)، وإذا كان هناك تقارب بين مصطلحي الحضارة والمدنية من حيث اللغة فإنه بعيد عن مصطلح الثقافة، إلا إن استعرنا البُعد التاريخي والقيمي لمعنى الحضارة.

وسبب الخلط بين هذه المصطلحات هو التشابه بينها من حيث المدلول أولاً، واستخدام لغات أخرى غير عربية لتلك المصطلحات مترادفةً، ثم تعاطي بعض الكتاب لها بذات الاستخدام^(٣).

وقد تناول ابن خلدون^(٤) في مقدمة تاريخه الحضارة وصورتها الثقافية، وفرّق بينها وبين العمران، فجعل الحضارة هي آخر العمران من حيث التمكن: «وقد يتوضّح فيما بعد أنّ الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشرّ والبعد عن الخير»^(٥)، فالحضارة بدايةً نهاية العمران؛ لما تمثله من وصول الإنسان إلى غايته في الحياة، والتخفف من أعباء السعي، ويغوص في غير عمارتها بالطرق الصحيحة، فتتحدّر حينئذٍ.

(١) الحضارة، د. حسين مؤنس (ص ١٣).

(٢) ينظر: في فلسفة الحضارة، د. أحمد محمد صبحي.

(٣) ينظر: المرجع السابق.

(٤) هو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، رحل إلى البلدان، وساس السلاطين، له كتاب التاريخ، ومقدمته الشهيرة تُرجمت للغات أخرى، وكُتبت حولها الدراسات، وله كتب أخرى، توفي عام ٨٠٨ هـ. ينظر: الضوء اللامع (٤/ ١٤٥)، والأعلام للزركلي (٣/ ٣٣٠).

(٥) تاريخ ابن خلدون (١/ ١٥٤).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون قد أشار إلى علاقة الحضارة بالثقافة؛ حيث عقد مقارنة بين أهل الحضارة والبداءة، ثم بين: «أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة»^(١)، وهو بهذا يشير إلى عدم تكدر ثقافتهم بما يصيب أهل الحاضرة من المكدرات.

وعند مقارنة مفهوم الحضارة بمفهوم النهضة -وهو المقصود هنا- يتبين أن الأخير أشمل من حيث اللغة، وأما من حيث الاصطلاح: فالحضارة هي المرحلة الأخيرة من مراحل النهضة، وهي الهدف الذي تسعى له، هذا إذا لم نعتبر تفسير ابن خلدون لمفهوم الحضارة!

وعلى كل، فسنعقد مقارنة أخرى لمفهوم الحضارة والعمران والنهضة عند الحديث عن مفهوم النهضة في القرآن الكريم، وعليه فسوف نرجى الحديث حول مصطلح «العمران» إلى هناك.

• الحالة التاريخية لعوامل نهضة المجتمعات من خلال القرآن الكريم:

١- تراكم عوامل النهضة تاريخياً:

هذه النقطة -تراكم عوامل النهضة تاريخياً- لا تعيننا بشكل رئيس في هذا الكتاب، غير أنني رأيت أن من الجيد الحديث عنها قبل الولوج في أصلها؛ ليكون القارئ على تصور كامل بالحالة التاريخية التراكمية للنهضة، وإلى أي مستوى وصلت، والعوامل التي أثّرت فيها، ليتضح بعد ذلك مدى توافقها مع مرتكزات القرآن وعوامله للنهضة.

ولا شك أنه قد خلت في الأمم بواعث نهضة، لكنها غير متكاملة الأركان، ومع ذلك فسوف يكون حديثنا عن النهضة الأوروبية فقط؛ وذلك لأنها نهضة متعددة المجالات، إضافة إلى قربها زمنًا وجغرافية مع تلك العوامل التي دعا

(١) المرجع السابق.

لها القرآن، إضافةً إلى أنها النهضة التي أثّرت وأثّرت على كثير، فجعلوها مجالاً للدراسة ومثالاً يُحتذى!

تُطلق عبارة «القرون الوسطى» على فترة من الزمن تبلغ نحو ألف سنة، تبتدئ من سقوط الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م، على يد الجرمان، وتنتهي بسقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٣م، على يد العثمانيين المسلمين، وبديهي أن هذا التحديد بالسنوات هو اصطلاح تاريخي فقط، وإلا فإن الواقع يثبت أن بذور القرون الوسطى ظهرت في الدولة الرومانية منذ القرن الأول للمسيح ﷺ، كما أن هذه القرون لم تنته بفتح القسطنطينية^(١).

وعلى رأي الكثيرين فإن القرون المظلمة هي نفسها القرون الوسطى، وإن كان البعض يميزونها بخمسة القرون الأولى من القرون الوسطى، أي من ٤٧٦م إلى ٩٧٦م، وهي الفترة التي جثم الركود فيها على أوروبا بالكلية^(٢)!

ومع أن حركة النهضة الأوروبية ازدهرت في القرن الرابع عشر وبلغت أوجها في القرن السادس عشر وما تلاه، إلا أن البذرة الأولى للنهضة الأوروبية -في تصوري وخلافاً للسائد- كانت مع توسع الديانة النصرانية في أوروبا، في خمسة القرون الأولى من ميلاد المسيح ﷺ، وانتشار دينه، ويمكن أن يُستشف ذلك بشكل واضح من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ءَايَدُنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ولا شك أن الظهور المقصود في الآية كان في مختلف المجالات، وهو

(١) ينظر: ما هي النهضة؟، سلامة موسى (ص ١١).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

أول بدايات النهضة الأوروبية، وقبلها كانت عصور نسيان دين موسى ﷺ، ثم عقب تلك القرون الخمسة كانت الفترة الأشد تسلطاً للكنيسة، وما مثله من تحريف للقيم التي جاء بها المسيح.

إن هذا الربط الذي أحاوله، وإن بدا للبعض تعسفًا، فإنه الذي يتوافق مع المسار التاريخي من جهة، والمسار العقلي للتطور البشري من جهة أخرى^(١). فالمعادلة تقول: كلما ابتعدت البشرية عن الجانب الروحي الإيماني (الوحي)، فإنها تنتكس عن مسارها الطبيعي في عمارة الأرض، وهو ما يعني بالضرورة التخلف الحضاري، وهذا يعني عدم تحقق عوامل النهضة! وبالمثل حين يتغول هذا الجانب -الروحي الإيماني- وينحرف أو يُحرف عن مساره الذي أراده الوحي، فإن النتيجة تكون مماثلة وربما أسوأ، فلا حضارة حينذاك؛ لعدم تحقق عوامل النهضة.

فالصورة الأولى من القاعدة يمثلها -أوروبيًا- ما قبل ميلاد المسيح، والصورة الأخرى يمثلها فترة تغول الكنيسة، وهي القرون الوسطى بفترة المظلمة التي أشرت إليها آنفًا.

لكن كيف يمكن القبول بالربط بين الوحي والنهضة مع أن الجميع يشهد أن نهضة أوروبا لم تقم إلا حين انقلبت على الكنيسة وتسلطها على العقول وإنتاجها الفكري، حتى إنها عمدت إلى الكتب الفلسفية والعقلية فأحرقتها وصادرت التفكير ونشرت الخرافة واستعبدت الناس؟!

(١) ثم وجدت أن هذا الربط قد تناوله كبار مفكري أوروبا، ومن ذلك ما نقله مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة، ونصّه: (فقد وضعنا سألًا كيف يفسر «كسرلنج» الحضارة الأوروبية باعتبارها تركيبيًا مكونًا من «روح» المسيحية، وتقاليد الجرمانية. غير أن هذا الفيلسوف لم يكن هو السابق إلى هذا الطريق؛ فقد سار فيه من قبل المؤرخ الفرنسي «جيزو» الذي كان ينظر إلى الأشياء من هذه الزاوية نفسها قبل «كسرلنج» بقرن كامل). شروط النهضة، مالك بن الحاج (ص ٦٣).

والجواب عن هذا التساؤل المشروع يكمن في أمرين:

الأول: أن النهضة الأوروبية وإن كانت مبهرة ومتعددة المجالات إلا أنها ليست شاملة وعادلة بالمفهوم الكامل، وذلك يتضح من خلال القراءة التاريخية لمسار النهضة الأوروبية وما ارتكبته في طريقها، ومن خلال النظر في الواقع كذلك، إضافة إلى اختلافها مع قيم القرآن الكريم ومرتكزاته للنهضة، وهو ما يوافق الفطرة البشرية السليمة.

الثاني: أن الزعم الذي يقول أنه تم إقصاء الكنيسة بالكلية غير دقيق؛ فقد ظلت الكنيسة تمارس دورًا كبيرًا في حياة المجتمع الأوروبي ومساره، وما زالت إلى اليوم!

نعم تم تقليص أظافرها وتغولها في كل الشؤون الحياتية، وهو التغول الذي كان مبيئًا على التحريف والخرافة، لكن دورها لم يُلغَ بالكلية.

ثم إنه مما لا شك فيه أن المسلمين أثروا في مسار النهضة الأوروبية، فقد كان الأوروبيون يرحلون إلى بلاد الأندلس المسلمة للتعلّم، وقاموا بمهمة ترجمة الكتب الإسلامية التي أسهمت في بلورة مسار النهضة، رغم تمسك المسلمين حينها بالمسجد، أو ما يمكن أن نطلق عليه فكرة «الوحي» أو الدين أو غير ذلك من المسميات، وقد كان المسلمون فيما بين سنة ٧٠٠ وسنة ١٣٠٠ ميلادية، هم أرقى الأمم بلا استثناء، حتى إن بعض علماء ومفكري أوروبا اتُّهموا بالإسلام لمجرد الدعوة للعلم والتجربة والاختراع! (١).

واقْتباس الأوروبيين من المسلمين مع تمسك المسلمين بدينهم يعني أن النهضة وعواملها لا يمكن أن تكون معارضة لفكرة الدين إذا ما تحققت الشروط اللازمة للنهضة والدين معًا، بل لا يمكن أن تكون نهضة شاملة ما لم يكن الدين بمفهومه الثقافي الواسع حاضرًا في صلبها.

(١) ينظر: ما هي النهضة؟ سلامة موسى (ص ٢٣).

٢- النهضة في التاريخ الإسلامي منذ نزول القرآن الكريم:

العهد الإسلامي المكي:

أشرنا في ما سبق إلى أن البذرة الأولى للنهضة الأوروبية كانت مع توسع الديانة النصرانية في أوروبا، في خمسة القرون الأولى من ميلاد المسيح ﷺ، وانتشار دينه، أما البذرة الأولى للنهضة الإسلامية فكانت مع نزول أول آية قرآنية من السماء!

فمن المتقرر أن النهضة عملية تراكمية، شيئاً بعد شيء حتى تغوص جذورها، وتقوى سوقها وتتفرع أغصانها، ثم تؤتي ثمارها. إن الخطوة الأولى في طريق النهضة هي العلم والتجربة، والسعي في طريقتهما، ولذلك فقد كان بيان القرآن الأول هو حول أهمية هذه الخطوة^(١). كانت الخطوط العريضة تتوالى في العهد المكي لبذرة الحضارة الإسلامية، وعوامل نهضتها تتراكم، ويمكن إجمال ذلك في عدة نقاط:

- الاهتمام بمقومات النهضة الثقافية، وتولى ذلك القرآن الكريم، وكانت بيانات النبي الكريم ﷺ رديفاً مهماً، وموضحاً ومبيناً من جهة أخرى.

- الاهتمام بمقومات النهضة البشرية، وفي ذلك سلك النبي الكريم ﷺ طريق الإقناع والحوار والمحاجة بالتي هي أحسن، ووضع المحفزات لذلك، والمشجعات على سلوك هذا الطريق، كما نبه على المعوقات وكيفية تفاديها.

- الاهتمام بمقومات النهضة الحركية، فاتخذ التدابير اللازمة لذلك، فبدأ

(١) في سورة العلق، وهي أول سورة في القرآن نزولاً، وافتتحت بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

بالسرية التامة، ثم اتخذ موعدًا زمنيًا ومكانيًا للقاء بـ «النهضويين» الجدد إن صح التعبير، كما تشكلت أول طليعة من الدعاة في هذا الطريق، فاشتغلوا بالإقناع في الوسط الاجتماعي ذكورًا وإناثًا، وبين جميع فئات المجتمع وطبقاته.

وبعد مرور ثلاثة عشر عامًا من العمل الدؤوب في سبيل ذلك كان لا بد من الاهتمام بمقوم مهم من مقومات النهضة، وهو مقوم التراب!

🌱 العهد الإسلامي المدني:

عَدَّ بعض المفكرين «التراب» أحد العناصر الرئيسة في طريق النهضة وصولاً إلى الحضارة، بعد أن جعلها ثلاثة عناصر: الإنسان، والتراب، والوقت. فـ «التراب أحد العناصر الثلاثة التي تكوّن الحضارة، فإذا ما توفر (المركب الديني) لتكوين هذه العناصر - كما أسلفنا - فإننا نرى التراب في بلاد الإسلام جديرًا ببحثه هنا كعامل من عوامل الحضارة.

ونحن حينما نتكلم عن التراب، لا نبحث في خصائصه وطبيعته، فليس هذا من موضوع البحث ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة - كما نقول اليوم - يكون التراب على قدرها من الانحطاط»^(١).

غير أننا لا نقصّر مفهوم التراب على الحد الأدنى منه، وهو التراب الصالح للتشجير والاستصلاح الزراعي، وهذا وإن كان مقومًا وعنصرًا من عناصر النهضة إلا أنه جزء من كل.

ولكننا نعني بالتراب في هذا المقوم الذي نقصده هنا في العهد المدني من

(١) ينظر: شروط النهضة، مالك بن الحاج (ص ١٢٩) وما قبلها وما بعدها.

العصر الإسلامي: وجود مكان صالح لتفاعل الإنسان مع بيئته وثقافته من دون تهديد خارجي.

قد يكون المراد القريب لمقوم التراب هو «الدولة»، لكنه يبقى قاصراً عن الدلالة الكاملة على المعنى الذي نقصده هنا.

فالدولة تتكون من مجتمع له قائد وتربطه ببعضه أنظمة منظمة، وهذا قد يكون حاضراً في العهد المكي، فالمجتمع هو النواة الأولى من المسلمين، والقائد هو النبي الكريم ﷺ، والأنظمة المنظمة هي القرآن الكريم وتفسيرات النبي الكريم له، لكن ذلك كله كان يفتقد للأرض التي يتفاعل معها كل ذلك. والذي حصل في المدينة بعد الهجرة النبوية هو تفاعل كل تلك العناصر مع التراب، فتحقق مفهوم الدولة الكامل، والاستقلال الذاتي عن كل المعوقات الخارجية.

فتفاعل الإنسان المسلم مع مجتمعه، وتوثقت روابطه، وتوالت الأنظمة التي تنظم علاقته ببعضه وعلاقته مع ترابه.

وعلى المفهوم البسيط للتربة كذلك، فقد كانت من أهم أولويات العهد المدني إثارة الأرض واستصلاحها، ولا بأس أن نخرج قليلاً هنا إلى أهم ما بدأ به العمل في طريق النهضة في العهد المدني، ومن ذلك:

- بناء المسجد:

فأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ في العهد المدني هي إقامة المسجد، وهذا مهم؛ فهو النادي الذي تتلاقح فيه الأفهام وتجتمع فيه الأفكار وتتوزع فيه الأدوار.

وقد أشرنا سالفاً إلى أهمية الجوانب الروحية أو ما يمكن أن نسميه «الوحي» في طريق بناء نهضة شاملة، وعن دور مبادئ دين المسيح ﷺ في

النهضة الأوروبية، والمسجد هو الذي يمثل هذا الجانب في العهد الإسلامي المدني، كما أنه تفاعل مع مقوم التراب من جهة أخرى.

- المؤاخاة بين المسلمين:

وكما قام النبي ﷺ ببناء المسجد -مركز التجمع والتألف- قام أيضاً بعمل آخر من أروع ما يأتريه التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبية الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً، لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر. وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملاً المجتمع الجديد بأروع الأمثال^(١).

وهذه الخطوة تعتبر من خطوات الاهتمام بمقوم «الإنسان» أو الكادر البشري في طريق النهضة، والتي بدأت في العهد المكي، فهي خطوة معززة في العهد المدني، إذن فالنهضة كما كررنا عملية تراكمية في النوع والكيف.

- الميثاق الاجتماعي والسياسي:

ثم وضع الرسول الكريم ﷺ أول أساسات النظم التي ينبني عليها غيرها في طريق نهضة مجتمعه الجديد، فبين العلاقة بين أفرادها، وصورتها، وعلاقتهم مع غيرهم، وأراح ما يمكن أن يكون عائقاً في طريق النهضة، ومن تلك الأسس

(١) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٥٦)، الرحيق المختوم (ص ١٢٥)، فقه السيرة، محمد الغزالي (ص ١٩٠).

ما جاء في أول كتاب وميثاق وضعه النبي القائد في هذا الصدد: (هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١. أنهم أمة واحدة من دون الناس.
٢. المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار^(٢) على ربعتهم يتعقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
٣. وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا^(٣) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.
٤. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعَةً^(٤) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.
٥. وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.
٦. ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر.
٧. ولا ينصر كافرًا على مؤمن.
٨. وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.
٩. وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

(١) الرِّبْعَةُ: الشأن والحال التي هو رابع عليها أي ثابت مقيم. والمقصود هنا: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها. والمعاقل: الديات. ينظر: لسان العرب (٨/١٠٨)، و(١٠/١٩٠).

(٢) ذكرت الوثيقة أسماء بعض العشائر، أثرنا تركها اختصارًا، ويجمعها مسمى الأنصار.

(٣) المفروح: المثقل بالدين والكثير العيال. ينظر: لسان العرب، (٢/٥٤١).

(٤) الدسيسة: الدفع أو الإعطاء. ينظر: لسان العرب (٨/٨٥).

١٠. وأن المؤمنين يبيء^(١) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
 ١١. وأنه لا يجير مشرك مألًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.
 ١٢. وأنه من اعتبط^(٢) مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول.

١٣. وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
 ١٤. وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.
 ١٥. وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٦. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ^(٣) إلا نفسه.
 ١٧. وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
 ١٨. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
 ١٩. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.
 ٢٠. وأنه لم يآثم امرؤٌ بحليفه.
 ٢١. وأن النصر للمظلوم.
 ٢٢. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
 ٢٣. وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
 ٢٤. وأن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم.
 ٢٥. وأنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

(١) يبيء: من البواء، وهو التساوي والتكافؤ. ينظر: لسان العرب (١/٣٧).

(٢) اعتبط: أي قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله. ينظر: لسان العرب (٧/٣٤٨).

(٣) يوتغ: يهلك. ينظر: لسان العرب (٨/٤٥٨).

٢٦. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.
٢٧. وأن بينهم النصر على من دهم يشرب.
٢٨. وإذا دُعوا إلى صلح يصالحوه ويلبسونه، فإنهم يصالحوه ويلبسونه.
٢٩. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم.
٣٠. وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم.
٣١. وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمدًا رسول الله ﷺ.
٣٢. وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
٣٣. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ (١) (٢).

هذه الوثيقة العظيمة تضع القواعد الأساسية التي نظمت العلاقة بين المجتمع الجديد ومكوناته من جهة، وقيادته من جهة أخرى.

فنظمت علاقة المجتمع المسلم ومكوناته، والمجتمع المسلم ومن يتقاسم معهم التراب من اليهود، ثم علاقة الجميع بالقيادة الموحدة للمجتمع، وهو الرسول ﷺ.

فالمادة الأولى من الميثاق أبرزت بجلاء خصوصية المجتمع وتميزه عن سواه، برابط جديد يجمعهم، ويوحدهم في مواجهة غيرهم، فهم أمة واحدة من دون الناس، «أمة تربط أفرادها رابطة العقيدة وليس الدم، فيتحد شعورهم وتتحد أفكارهم وتتحد قلوبهم ووجهتهم، ولاؤهم لله وليس للقبيلة،

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٠١)، وقارن مع: الرحيق المختوم (ص ١٢٧).

(٢) ناقش مجموعة من المهتمين قديمًا وحديثًا هذه الوثيقة من حيث الثبوت، وهي في المجمل وثيقة مقبولة يشهد لها مجموعة من الأحاديث الصحيحة والحسنة، وقد ناقش ذلك وأورد لها الشواهد د. أكرم ضياء العمري في كتابه: السيرة النبوية (١/ ٢٧٢) وما بعدها.

واحتكامهم للشرع وليس للعُرف، وهم يتميِّزون بذلك كله على بقية الناس (من دون الناس) فهذه الروابط تقتصر على المسلمين ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء، ولا شك أن تمييز الجماعة الدينية كان أمرًا مقصودًا يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها.

وقد ذكرت مواد الوثيقة الكيانات العشائرية، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلة عددهم، أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائريهم، وذكر العشائر لا يعني اعتبارها الأساس الأول للارتباط بين الناس، ولا يعني الإبقاء على العصبية القبلية والعشائرية؛ فقد حرم الإسلام ذلك، وإنما للاستفادة منها في التكافل الاجتماعي، وجعل الإسلام العقيدة هي الأصل الأول الذي يربط بين أتباعه، لكنه اعترف بارتباطات أخرى تدرج تحت رابطة العقيدة وتخدم المجتمع وتساهم في بناء التكافل الاجتماعي بين أبنائه، مثل الارتباطات الخاصة بين: أفراد الأسرة الواحدة وما يترتب عليها من حقوق وواجبات على الآباء والأبناء والأمهات، وأفراد العشيرة الواحدة وما يترتب عليهم من حقوق وواجبات كالتضامن في دفع الديات وفكاك الأسرى وإعانة المحتاج منهم، وأفراد القرية الواحدة عليهم التزاماتهم، وأبناء المدينة الواحدة كذلك، وهكذا رتب الإسلام على الوحدات الاجتماعية الصغيرة القيام بمهام التكافل الاجتماعي وبذلك سدَّ ثغرات كبيرة، وتأتي الدولة في نهاية المطاف فتسد ما تبقى من ثغرات ما عجز عنها الأفراد، ولا شك أن ذلك يرفع عبئًا كبيرًا عن كاهل الدولة الجديدة. وهكذا فإن إقرار الروابط العشائرية قُصد به الاستفادة منها في التكافل الاجتماعي، ولكن لا تناصر في الظلم ولا عصبية، وبذلك حول الإسلام وجهة الروابط القبلية واستفاد منها بتكييفها وفق أهدافه العليا.

إن التكافل الاجتماعي يحتم على العشيرة أن تعين أفرادها، ومن ذلك أنه

إذا قتل فرد منها أحدًا خطأ، فإنها تدفع دية القتل بالتضامن بين أفرادها. كما أكدت الوثيقة على المسؤولية الجماعية، واعتبرت سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة؛ وكان لذلك أهمية كبيرة؛ لأن النبي ﷺ لم يشكّل قوة منظمة كالشرطة لتعقب الجناة ومعاقتهم. ونظرًا لكون الحدود على الجرائم مصدرها الله تعالى، لذلك فإن السعي إلى تطبيقها واجب ديني على المؤمنين، وهذا يُكسب الأحكام قدسية ويعطيها قوة كبيرة، ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تحديها والخروج عليها.

وتقرر الوثيقة أن سلّم المجتمع واحد، فمسؤولية إعلان الحرب والسلام لا يقررها الأفراد بل القائد، وهو هنا النبي ﷺ، فإذا أعلن الحرب فإن سائر المجتمع يصبح في حالة حرب مع الخصم ولا يمكن لفرد منهم مهادنته لأنه مرتبط بالسياسة العامة، كما أن عبء الحرب لا يقع على عشيرة دون أخرى بل على جميع المؤمنين، وهم يتناوبون في ذلك.

وقد كفلت مواد الوثيقة لليهود حريتهم الدينية، كما حددت مسؤولية الجرائم وحصرتها في مرتكبها، فالمجرم ينال عقابه وإن كان من المتعاهدين، فلا تحول الوثيقة دون ظالم ولا آثم.

واليهود كمواطنين في الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة يجب أن يخضعوا للنظام العام، فهم قد اعترفوا بموجب الوثيقة بوجود سلطة قضائية عليها يرجع إليها سائر سكان المدينة بما فيهم اليهود، لكن اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائمًا بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة ويقضي بينهم أخبارهم. ولكن إذا شأؤوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي ﷺ.

كما أن الوثيقة امتدت لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى؛ إذ شرطت الوثيقة على كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر لكن المسلمين استثنوا قريشاً؛ لأنهم كانوا في حالة حرب معهم.

وقد اعتبرت الوثيقة منطقة المدينة حَرَمًا، والحرم هو ما لا يحل انتهاكه، وبذلك أحلت هذه المادة الأمن داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية.

ثم تقرر الوثيقة أن النبي ﷺ هو المرجع الوحيد في كل خلاف يقع في المدينة، وأنه مهما اختلفوا في شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ^(١).

لقد شملت الوثيقة ما تحتاجه الدولة الناشئة من نُظم إدارية واجتماعية وسياسية في سبيل تحقيق مجموعة من عوامل النهضة وفق تلك الفترة الزمنية.

فمن العوامل المتعلقة بشؤون العبادات وما إلى ذلك: كان الرسول ﷺ يقيم ويوجه ما فيه صلاح مجتمعه، ويضع قواعد تنير طريق من خلفه، فيقيم بهم الصلاة إمامًا، ويستخلف غيره إن غاب أو مرض^(٢)، ويتخذ مؤذنين^(٣)، ويوصيهم بحفظ وقت الصلاة^(٤)، ويبني المساجد ويحث على ذلك^(٥).

ويضع أنصبه الزكاة باعتبار شِقِّها التعبدية^(٦)، ويوصي بالضعفة

(١) قارن تحليل هذه الوثيقة بما ورد في كتاب: السيرة النبوية الصحيحة... محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، فقد نقلت مضمونه بتصريف كبير (١/ ٢٨٥) وما بعدها.

(٢) يُنظر في ذلك: ما أخرجه البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨)، وأبو داود (١٤٩).

(٣) ينظر: ما أخرجه مسلم (١٠٩٢)، وأبو داود (٥٣١)، والترمذي (٢٠٩)، وابن ماجه (٧١٤)، والبيهقي (٤٢٩/١).

(٤) ينظر: ما أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٢، رقم ٧١٦٩)، وأبو داود (٥١٧)، (٤٣٥)، والترمذي (٢٠٧)، وابن حبان (٤/ ٥٦٠)، وابن خزيمة (٣/ ١٥).

(٥) من ذلك: ما أخرجه البخاري (١٧٦٩)، وابن ماجه (٧٣٨)، وابن أبي شيبه (١/ ٢٧٥، رقم ٣١٥٦).

(٦) مقادير الزكاة وأنصبتها الشرعية غير معقولة المعنى ولا مدركة المقصد، وذلك كالنصاب في سائمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، والمقدار الواجب في كل جنس منها، وكذلك في النصاب في الزروع والثمار والمقدار الواجب فيها، وكذلك في الذهب والفضة من تحديد نصابها والقدر الواجب فيها،=

والمساكين^(١)، وأن تُرد أموال الأغنياء عليهم^(٢).

ويؤمّر على الحج أمراء^(٣)، ويعيّن على البيت الحرام حُجَّابًا^(٤) وسُقَّةً^(٥).
ومن العوامل المتعلقة بالشؤون السياسية: لاحظنا في الوثيقة السابقة كيف عزز النبي ﷺ السلم والسلام داخل المدينة، وثبّت دعائم التعايش بين المسلمين وغيرهم ممن جاورهم في المدينة، ووضع أسس العدل والتقاضي وفض الخصومات والمنازعات.

أما سياسته الخارجية ﷺ: فقد عقد تحالفات واسعة بالقبائل المحيطة بالمدينة بادئ الأمر^(٦)، وكانت عينه على مكة، فلما فتحها^(٧) راسل ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، ويعرفهم بالدين وبه ﷺ، وبما جاء به^(٨)، واتخذ

= وكذلك في تحديد مصارف الزكاة وقصرها على ثمانية أصناف. ينظر: مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الشرعية والقانونية، عدد نوفمبر ٢٠٢٠، بحث: أحكام الزكاة بين التوقيف والتعليل، دراسة تأصيلية، أ. عبد الله العازمي، (ص ١٤٥).

(١) من ذلك: ما أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٢٩٨٢)، وأحمد (١٩٨/٥)، رقم (٢١٧٧٩)، وأبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٧٠٢)، والنسائي (٣١٧٩)، والحاكم (١١٦/٢)، رقم (٢٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٧)، ومسلم (١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٤٣)، ومسلم (١٣٤٧)، وينظر: التراتيب الإدارية (١/٦٦).

(٤) الحِجَابَة: هي سدانة الكعبة وتولى حفظها، وكانت أولاً بيد بني عبد الدار، ثم صارت في بني شيبه بتقرير النبي ﷺ. ينظر: ما أخرجه ابن سعد (١٣٧/٢)، والطبراني (١١/١٢٠)، رقم (١١٢٣٤)، وابن عساكر (٣٨٩/٣)، والتيسير للمناوي (٢/٣٣٢).

(٥) الذين يسقون الماء للحجاج والمعتمرين من زمزم. وكانت السقاية قبل الإسلام لبني عبد المطلب، فأقرها النبي ﷺ في الإسلام. ينظر: ما أخرجه البخاري (١٥٢٧)، ومسلم (١٢١٨)، (٢٣١٨).

(٦) يُنظر في ذلك بتوسع كتاب: التحالف السياسي في الإسلام، منير محمد الغضبان، دار السلام، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، وكتاب: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ ... استراتيجية الرسول السياسية والعسكرية، د. علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(٧) وقع فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وسببه: خيانة بني بكر التي كانت في حلف مع قريش وغدرهم بخزاعة التي كانت في حلف مع المسلمين. ينظر: سيرة ابن هشام (٤/٤٤).

(٨) يُنظر في ذلك: ما كتبه ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد (١/١١٩) في فصل خاص عقده في =

النبي ﷺ بناءً على ذلك الكتاب^(١) والمترجمين^(٢) والسفراء^(٣). وهو في كل سياساته الداخلية والخارجية ﷺ -ومع كونه نبياً معصوماً- يعمل بمبدأ الشورى الذي أرشده إليه القرآن الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد يترك عمل شيءٍ نزولاً عند الرأي الذي أفرزته الشورى^(٤).

ومن العوامل المتعلقة بالشؤون الإدارية: اتخذ النبي ﷺ وزراء، وإن لم يكن هذا الاسم يطلق عليهم، وأبرزهم أبو بكر وعمر ﷺ^(٥)، وكان له أمناء على سره^(٦)، وكتبه يكتبون الوحي^(٧)، وآخرون يكتبون المواثيق والرسائل والعهود^(٨)، وكتبه يكتبون شؤونه الخاصة^(٩)، وإذا خرج من المدينة أناب فيها غيره ليقوم مقامه^(١٠). واتخذ ﷺ أمراء في الحرب والسلم^(١١)، واتخذ حُرَّاساً^(١٢) وعَسَساً^(١٣) في المدينة للحراسة والمراقبة.

= بيان كتبه ورسله ﷺ إلى الملوك.

- (١) يأتي الكلام على كتاب النبي ﷺ قريباً، عند الكلام على (العوامل في الشؤون الإدارية).
- (٢) ينظر: ما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٢١٩٤، ١٢١٩٥).
- (٣) أخرجه: البخاري (٦٤)، (٥٩٠٥)، ومسلم (٤٧٠٧)، (٤٧٠٩). وينظر: نصب الراية (٤/ ٥٠٠).
- (٤) ينظر: ما أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٣١١/ ٢)، والدولابي في الكنى (٢/ ٤٦)، والبزار في كشف الأستار (٣٣١/ ٢)، والرحيق المختوم (ص ١٨٥).
- (٥) ينظر: ما أخرجه الترمذي (٣٦٨٠).
- (٦) ينظر: صحيح البخاري (٣٥٣٢)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٧٧).
- (٧) ينظر: البداية والنهاية (٥/ ٣٦١، ٣٧١)، وزاد المعاد (١/ ١١٧).
- (٨) يُنظر المراجع السابقة.
- (٩) ينظر: المراجع السابقة.
- (١٠) ينظر: الرحيق المختوم (ص ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٧٤).
- (١١) ينظر: زاد المعاد (١/ ١٢٥)، والتراتب الإدارية (١/ ٢٤٠، ٢٤٥).
- (١٢) ينظر: زاد المعاد (١/ ١٢٧)، وما أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٢، برقم: ٣٢٢١)، والإصابة (١/ ١٤٥).
- (١٣) ينظر: ما أخرجه مسلم (١٩٠).

ومن العوامل المتعلقة بالشؤون العسكرية: أنه ﷺ كان يقود الجيش بنفسه، ويخرج في مقدمة أتباعه، وهذا الأمر في غاية الأهمية؛ لاستنهاض همم المقاتلين^(١). وكان يؤمّر غيره على السرايا الصغيرة والمعارك التي لا يخرج إليها بنفسه^(٢)، ويتفطن القادة ويصنعهم، ويوصيهم ويربط لهم الأولوية^(٣).

وكان ﷺ يقسم جيشه أقساماً^(٤)، ويتخذ الخطط الحربية: الزمانية والمكانية، بناءً على ما أفرزته مشاورة الحرب مع قادة جيشه وجنوده^(٥).

ومن العوامل المتعلقة بالشؤون الاجتماعية: أنه ﷺ فصل وبين الآداب اليومية التي ينبغي على الفرد مراعاتها مع نفسه وأسرته ومجتمعه^(٦)، وفي جميع أحواله، وكان يهتم بإشاعة حفظ الحقوق العامة والخاصة^(٧)، ويضع لذلك القواعد والضوابط، واهتم ببيان تفاصيل المعاملات والعقود والمتاجرات وآداب الأسواق وطلب العيش^(٨)، وحذر من مغبة الغش وإخفاء عيوب السلع والتطفيف في الميزان^(٩).

(١) ينظر: ما أخرجه أحمد (١/١٥٦، رقم ١٣٤٦)، وأبو يعلى (١/٢٥٨، رقم ٣٠٢)، والحاكم (٢/١٥٥، رقم ٢٦٣٣).

(٢) يُنظر تفصيل الكلام على أمراء السرايا منصوصاً على أسمائهم في كتاب: تحرير الأحكام (ص ٨١)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٩٩) وما بعدها.

(٣) يُنظر في تفصيل ذلك: تحرير الأحكام (ص ٨٠)، التراتيب الإدارية (١/ ٣١٩).

(٤) ينظر: غزوة أحد، محمد عيطة (ص: ٨٩).

(٥) ينظر: المرجع السابق (٨٢، ٩٠)، الرحيق المختوم (١٥١).

(٦) كتب السنة وشروحها وكتب الفقه ممثلة ببيان هذه الآداب اليومية، وهناك كتب خاصة ببيان هذه الآداب إما على سبيل الاستقصاء، أو الاختصاص بمواضيع معينة منها.

(٧) يُنظر مثلاً: ما أخرجه البخاري (٣٤٠٨)، (٢٢٧٠) ومسلم (١٨٤٣).

(٨) يُنظر على سبيل التمثيل: ما أخرجه البخاري (١٩٧٠)، (٢٠١٨)، (٦٦٦٤)، ومسلم (٢٦١٥).

(٩) من ذلك: ما أخرجه البخاري (٢٠٤١)، ومسلم (١٣٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٢)، وأبو داود (٣٤٥٢)، وابن ماجه (٢٢٢٤).

كما وضع ﷺ قواعد مهمة في التطبيب، تتناسب مع بيئته وزمانه^(١)، وأمر ببناء بيوتاً للضيوف وزوار المدينة والقادمين إليها^(٢)، وكان يقوم بالرياضة مع نسائه^(٣)، وحث على إقامة المسابقات الرياضية ووضع قواعدها^(٤)، وقامت بين يديه مهرجانات اللعب والتدريب وهو يسمح بذلك ويحضرها^(٥)، وتصطف الفتيات الصغيرات بين يديه يغنين فرحاً بقدمه فيلاطفهن على ذلك^(٦)، وهو القائد الأعلى للبلاد والجيش!

ومن العوامل المتعلقة بالشؤون المالية: أنه ﷺ كان له عمال يجمعون الزكاة^(٧)، وحفظة يحفظونها ويرعونها^(٨)، وآخرون يقسمونها ويوزعونها^(٩). وكان له ما يشبه بيت المال يحفظ فيه الأموال العامة^(١٠). وكان يقسم الغنائم والأموال الزكوية في المصارف التي حددها القرآن، وفق مقاصد شريعته الجديدة، مراعيًا ظروف دولته الوليدة زماناً ومكاناً^(١١).

(١) من ذلك: ما أخرجه البخاري (٥٣٥٩)، ومسلم (٢٢٠٥)، (٢٢٠٤)، وأحمد (٤/ ٢٧٨، رقم ١٨٤٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في الكبرى (٧٥٥٣)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، (٣٤٢٨).

(٢) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (١٤٣/ ٦)، وزاد المعاد (٦٥٣/ ٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٤/ ١٧٢)، والتراتب الإدارية (١/ ٤٤٦).

(٣) منه: ما أخرجه أحمد (٢٦٤/ ٦)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩).

(٤) ينظر: ما أخرجه البخاري (٢٧١٣)، ومسلم (١٨٧٠)، وأحمد (٥٠٥/ ٢)، وأبو داود (٢٥٧٤)، (٢٥٧٩)، (٢٥٨١)، والترمذي (١٧٠٠)، والنسائي (٢٢٦/ ٦)، (٢٢٧/ ٤)، وابن ماجه (٢٨٧٨)، (٢٨٧٩).

(٥) ينظر: ما أخرج البخاري (٤٤٣)، ومسلم (٨٩٢).

(٦) ينظر: ما أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩)، ومصباح الزجاجة (١٠٦/ ٢).

(٧) ينظر: ما أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، وأبو داود (١٦٢٥)، والترمذي (٦٤٤)، والدارقطني (١٣٧/ ٢).

(٨) ينظر: ما أخرجه البخاري (٢١٨٧).

(٩) دلت على ذلك أحاديث كثيرة، منها ما أوردناه في الحاشية قبل السابقة.

(١٠) يدل على ذلك ما في البخاري (٢١٨٧).

(١١) ينظر: ما أخرجه مسلم (٢٣١٣)، (١٠٥٩)، ومن معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب=

ومن العوامل الاقتصادية والتجارية والزراعية: أن النبي ﷺ وضع قواعد التجارة بشكل عام^(١)، وحث على الاكتساب وطلب الرزق^(٢)، وحث أصحابه على التجارة^(٣)، وباشرها كثير من الصحابة^(٤).

وأما الزراعة بشكل عام، فعلى قلة الاهتمام بها عربياً في ذلك العهد إلا أن النبي ﷺ حض عليها^(٥)، وكان بعض أصحابه يعمل في الزراعة، والأنصار منهم خاصة^(٦)، وكان بعضهم يتولى ذلك بنفسه، وبعضهم يتخذ أجراً^(٧).

وأما الصناعة فقد عُرف في عهده ﷺ الدباغة^(٨) والصياغة^(٩) والبناء والصباغة^(١٠) والحياكة^(١١) والنسيج والخياطة وما إلى ذلك، ومن ذلك أنه

= الإسلامي، ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م (ص ٤٢١).

(١) سبق ذكر ذلك عند الكلام على العوامل في الشؤون الاجتماعية، وكذلك يأتي فيما يلي من الفقرات.

(٢) يُنظر على سبيل التمثيل ما أخرجه البخاري (١٩٣٠)، (١٩٣٢)، (٥٥٦٣)، (٢١٠٢)، (١٩٣٠).

(٣) من ذلك: ما أخرجه أحمد (١٤١ / ٤)، رقم (١٧٣٠٤)، والحاكم (٢ / ١٣)، رقم (٢١٦٠)، والترمذي (١٢٠٩)، (١٢١٠)، والدارقطني (٣ / ٧).

(٤) ينظر: ما أخرجه البخاري (١١٨)، (١٩٥٦)، ومسلم (١٥٣٣)، والبداية والنهاية (٣ / ٣٩)، والتاريخ

الإسلامي - الخلفاء الراشدون، لمحمود شاكر (ص ٣٠). وطبقات ابن سعد (٣ / ٦٠) والتراتب

الإدارية (١ / ٣٧٣)، والحث على التجارة والصناعة للخلال (ص ٥٩).

(٥) من ذلك ما أخرجه البخاري (٢١٥٢)، وأحمد (٣ / ١٩١)، رقم (١٣٠٠٤)، وأبو داود (٣٠٧٣)، والترمذي (١٣٧٨).

(٦) هذا مشهور عنهم، وينظر: ما أخرجه البخاري (١١٨)، (٣٧٩٥).

(٧) ينظر: صحيح البخاري (٢ / ٨١٩)، (٢٤٨٩).

(٨) الدباغة: مصدر دبغ يذبغه دبغاً ودباغة، إذا عالجه بالقرظ ونحوه؛ ليزول ما به من نتن وفساد

ورطوبة. ينظر: لسان العرب (٨ / ٤٢٤)، المطالع على ألفاظ المقنع (ص ١٠).

(٩) الصَّوَاغ: هو الذي يعمل الصياغة، فهو صائغ الحلي، وأصل الصيغ التغيير. ينظر: لسان العرب

(٨ / ٤٤٢)، التراتيب الإدارية (٢ / ٦٣).

(١٠) المراد بالصباغة هنا: تلوين الثياب ونحوها بلون ما، يقال: صبغت الثوب أصبغه، وأصبغه صبغاً،

والصباغ: من عمله تلوين الثياب ونحوها. ينظر: لسان العرب (٨ / ٤٣٧)، والمعجم الوسيط (١ / ٥٠٦).

(١١) الحياكة: هي نسج الثياب، يقال: حاك الثوب يحيكه ويحوكه حيكاً، وحوكاً، وحياكة: إذا نسجه.=

أصيب أنف صحابي، فأمره النبي ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب^(١). وعلى كلٍّ، فهذا العهد هو فجر الحضارة الإسلامية، وهو الوهلة الأولى للدولة المسلمة، والدول والحضارات تبدأ صغيرة، ثم تكبر شيئاً فشيئاً، ومع ذلك فكل «ما يتعلق بالمراتب الإدارية من وزارة بأنواعها، وكتابة بأنواعها، والرسائل والإقطاعات»^(٢)، وكتابة العهود والصلح، والرسل والترجمان، وكتّاب الجيش والقضاة، وصاحب المظالم وفارض النفقات، وفارض الموارث، وصاحب العسس في المدينة والسجان، والعيون والجواسيس، والمارستان^(٣) والمدارس والزوايا، ونصب الأوصياء والمرضات والجراحين، والصيارفة وصاحب بيت المال، ومتولي خراج الأرض وقاسم الأرض، وصانع المنجنيقات^(٤) والرامي بها، وصاحب الدبابات^(٥)، وحافر الخنادق والصوّاغين وأنواع المتاجر والصناعات والحرف، تجد أن مدّته ﷺ -مع قصرها- لم تخلُ عن أعمال هذه الوظائف، وإدارة هذه العمليات، وتجد أنها كانت مسندة للأكفاء من أصحابه وأعوانه ﷺ^(٦). ويكفي هذا العهد أنه وضع قوانين عوامل

= ينظر: لسان العرب (٤١٨/١٠).

(١) ينظر: ما أخرجه أحمد (٢٣ / ٥)، وأبو داود (٤٢٣٢)، والنسائي (١٦٣ / ٨)، والترمذي (١٧٧٠).

(٢) الإقطاع: مصدر أقطعه، إذا ملكه أو أذن له في التصرف في الشيء، والإقطاع يكون تملكاً وغير تملك، يُقال: استقطع فلانُ الإمام قطعة فأقطعه إياها: إذا سأله أن يقطعها له وبينها ملكاً له، فأعطاه إياها، والقطائع إنما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها، ولا عمارة فيها. ينظر: لسان العرب (٢٧٦ / ٨)، المطلع على أبواب المقنع (ص ٢٨١).

(٣) المارستان: بفتح الراء: دار المرضى (مستشفى)، وهو معرب، ينظر: لسان العرب (٢١٥ / ٦).

(٤) المنجنيق: تجمع على مجانق ومجانيق ومنجنيقات، وهي آلة حرب تقذف الحجارة على الحصون فتهدمها. ينظر: لسان العرب (٣٣٨ / ١٠). وينظر: سيرة ابن هشام (٤٨٣ / ٢).

(٥) الدبابة: هي التي تتخذ في الحرب يدخل تحتها الرجال، وتسمى الدبابات والدراجات. ينظر: لسان العرب (٢٦٦ / ٢)، وينظر: سيرة ابن هشام (٤٧٨ / ١٠).

(٦) ينظر: التراتيب الإدارية في المدينة المنورة العلمية، عبد الحي الكتاني (١١ / ١).

النهضة بدقة عالية، ومرونة كبيرة^(١).

واستمر الحال في العهد المدني على هذا المنوال؛ القرآن ينزل فيوضح معالم الحضارة الجديدة أو تلك التي يجب أن تكون، ويكشف عن عوامل وأسباب نهضة هذا المجتمع والدولة الناشئة.

ولئن كانت فترة العهد المكي مستغرقة في البحث عن مقوم وشرط النهضة الأول وهو الإنسان، فإن العهد المدني قد وثق علاقة هذا الشرط ببعضه وبترابه. بهذه الحكمة، وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد بمفاهيم جديدة، وتصورات جديدة، فكان أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وكان من نتيجته حين تكاملت عناصره أن حوّل مجرى التاريخ والأيام!

🌟 العهد الإسلامي الراشد:

لسنا هنا بصدد التعريف بالخلفاء الراشدين، فهم أشهر من أن يُعرّف بهم، لكن الفترة الراشدة، والتي بدأت من يوم وفاة الرسول ﷺ سنة ١١هـ، حتى سنة ٤٠هـ^(٢)، كانت هي النموذج التطبيقي الفريد لما تضمنه العهد النبوي من قيم في شتى مناحي الحياة، بل كان العهد الراشد هو النموذج البشري الكامل في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، تلك السياسة التي غطت شؤون الحياة كلها، ومصالح المجتمع كله، اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا، وكانت تلك الفترة

(١) للاستزادة في تدابير العهد النبوي في شتى مناحي الحياة، يُنظر كتاب: تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، علي بن محمد بن أحمد ابن موسى بن مسعود، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين، الخزاعي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤١٩ هـ، وكتاب: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، للكتاني، مرجع سابق، فهما كتابان عظيمان في بيان الحالة الإدارية والتنظيمية في العهد النبوي الكريم في المدينة.

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير (٤/٤٢٧)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ١٣٦).

بحقِّ تحقيقًا وتطبيقًا واقعيًا للعوامل التي سطرها القرآن الكريم ابتغاء النهضة. ففي العوامل السياسية: أسسوا نظام الخلافة، وهي تجسيد لمبدأ الشورى القرآني، فاجتمعوا وتناقشوا بدءًا في سقيفة بني ساعدة^(١)، وكذلك فعل عمر حين رُشِّحَ للأمة ستة من عظماء الصحابة^(٢)، وتشاوروا كذلك عقب مقتل عثمان رضي الله عنه، وبايعوا عليًا رضي الله عنه بيعة شورى^(٣).

ولعل من أهم ما يميز نظام الخلافة الشوروي -وما يتيحه ويشمره- ما قاله الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة له عقب مبايعة الناس له في المسجد: «أما بعد، أيها الناس: فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه، إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقَّ منه، إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلِّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطيع الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»^(٤).

ولو تأملت مفردات وأهداف هذه الخطبة لوجدتها وثيقة عامة للدولة التي تحترم شعبها وإرادته، وخطة عمل لمؤسسات الدولة التنظيمية والإدارية، وبيانًا لأهم مقومات بقاء الدول.

(١) بنو ساعدة: قوم من الأنصار من بني كعب بن الخزرج بن ساعدة، ومنهم سعد بن عباد وسهل بن سعد الساعديان رضي الله عنهما، وسقيفتهم في المدينة بمنزلة دار الندوة التي كانت لقريش في مكة، وكانت السقيفة مكانًا يجتمعون فيه حين يجزُّ ما يدعو إلى تداول الرأي. ينظر: معجم البلدان (٣/ ٢٢٨). ويُنظر في إثبات وقائع هذه الحادثة: ما أخرجه البخاري (٦٤٤٢)، ومسلم (١٦٩١).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (٥٦٧).

(٣) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣١).

(٤) أخرجه ابن هشام من طريق ابن إسحاق في السيرة النبوية (٦/ ٨٢)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٦٩): «وهذا إسناد صحيح»، وأخرجه كذلك ابن جرير في تاريخه (٢/ ٢٣٧).

وقد توسعت أقاليم الدولة المسلمة بالفتوحات، خاصةً في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتكونت الإمارات، وأمر الأمراء، وكان اختياره نظرًا للأصلح، ووفق معايير الكفاءة والنزاهة، وكانوا يوصون عمالهم بالأمانة والعدل. وفي الشؤون الإدارية: نظموا الدواوين^(١)، وكان ذلك ظاهرًا جدًا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نظرًا لقصر فترة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وانتظم البريد^(٢)، وقسم البلاد المسلمة إلى عدة عمالات أو ولايات، نظرًا لتوسعها، وجعل لكل بلد أميرًا وديوانًا وقاضيًا^(٣)، إلى غير ذلك.

وفي الشؤون العسكرية: انتظم الجيش أكثر، ودونت لهم الدواوين، وأصبح للمقاتل امتيازات، وللجيش ألوية وقادة ونطاق جغرافي يتحرك فيه. ولا يُعلم عدد الجيش بالتحديد في العهد الراشد، لكن بتتبع أعداد المقاتلين في المعارك الكبيرة في ذلك العهد يتضح أن قوام الجيش كان بعشرات الآلاف^(٤).

وأما في الشؤون المالية: فانتظم بيت المال في العهد الراشد، وكثرت إيراداته بدخول غنائم الجيوش، وزادت مصارفه حتى قسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكل مسلم قسماً من بيت مال المسلمين بحسب أسبقيتهم إلى الدين، يصلهم سنوياً، حتى جعل للموالي قسماً^(٥).

(١) الدواوين: هي السجلات والدفاتر التي تُسجل فيها أمور الدولة، خاصة في الأمصار العظيمة العمران، وقد أطلقت كلمة ديوان على المكان الذي يجتمع فيه الكتاب والموظفون العاملون بتلك السجلات عند الفرس. ينظر: مقدمة ابن خلدون (٤٢١).

(٢) ينظر: فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب، للصلاحي (١ / ٣٤٧).

(٣) ينظر: عصر الخلفاء الراشدين، محمد أسعد طلس، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٠م (ص ١٢٩)، وما بعدها.

(٤) ينظر: الكامل في التاريخ (٢ / ٣٠٠)، ومقدمة ابن خلدون (ص ١٥٨).

(٥) ينظر: صحيح ابن حبان (١٥ / ٥١٧، برقم: ٧٠٤٣)، وتاريخ الطبري (٣ / ٦١٥).

وفي شؤون الثقيف والتعليم: انتشر الصحابة في البلاد والأقاليم الجديدة يُعلِّمون المسلمين الجدد وأبناءهم ويدرسون لهم، حتى تكونت بعد ذلك مدارس كبيرة لها روادها، مثل: مدرسة مكة ورائدتها عبد الله بن عباس^(١)، ومدرسة المدينة ورائدتها عبد الله بن عمر^(٢)، ومدرسة العراق ورائدتها عبد الله ابن مسعود^(٣)، وهكذا.

ونظرًا لهذه الحركة العلمية والثقافية الواسعة، فقد استطاعوا أن يبنوا حضارة كبيرة تضم مجموعة من الأعراق والأجناس، حيث تلاقت الأفهام وأنتجت بعد ذلك في شتى ميادين الحياة.

وعلى كلٍّ، فقد كان العهد الراشد هو الفترة الذهبية للحضارة المسلمة في كل الشؤون الحياتية والمجتمعية والسياسية، وإن توسعت بعد ذلك وكبرت وتطورت فيما لحق من عصور إلا أنها كانت تبعًا لما أسس في العهد الراشد من جهة، كما انخرمت بعض القيم من جهة أخرى، كقيمة الشورى في الحكم والخلافة.

العهد الأموي والعباسي والعثماني:

لا أرى من المهم الإطالة ببحث جوانب النهضة في هذه العصور؛ فقد امتدت لأكثر من ثلاثة عشر قرنًا^(٤)، اتسمت بالقوة في أغلب فتراتنا وبالضعف

(١) ينظر: العلل لابن المديني (ص ٤٤).

(٢) ينظر: المدينة النبوية، محمد شراب (٢ / ٤٥).

(٣) ينظر: العلل لابن المديني (ص ٤٢، ٤٤).

(٤) ابتدأت بعد انقضاء العهد الراشد سنة ٤٠ هـ، حتى سقوط الخلافة العثمانية عام ١٣٤٣ هـ. وقد ابتداءً العصر الأموي من خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وانتهى عام ١٣٢ هـ. وابتداءً العصر العباسي بعد انقضاء العهد الأموي وكان على مرحلتين: العصر العباسي الأول الذي استمر مائة عام، فانهي عام ٢٣٢ هـ، وبعده العصر العباسي الثاني الذي بدأ عام ٢٣٢ هـ، وانتهى عام: ٦٥٦ هـ. وابتداءً العصر العثماني عام ٦٩٨ هـ على يد عثمان بن أرطغرل، حتى سقوط الخلافة العثمانية عام ١٣٤٣ هـ، =

في بعضها، والقوة تعني انتعاش عوامل النهضة في جميع مجالات الحياة، والضعف يعني التدهور في ذلك.

إلا أن العهد الأموي اتسم بأثوابه العربية التي كان متشدداً فيها، ورغم التطور والنهضة التي انطلقت، علمياً وثقافياً واجتماعياً إلا أن الطابع العربي بقي هو المسيطر على ذلك العهد.

بخلاف العهد العباسي الذي انفتح على غير العرب، خصوصاً الترك. أما العهد العثماني فقد صنعت نهضته أيادٍ غير عربية، وظل كذلك لقرون، وظهرت نهضة إسلامية لأول مرة غير مرتبطة بالعنصر العربي! وقد أثرت نهضة المسلمين على أوروبا، وكانت للمسلمين إسهامات كبيرة في صناعة بلورة النهضة الأوروبية، وقد مرّت الإشارة لذلك في ما سبق. والذي يعيب العهود الثلاثة السابقة، الأموي والعباسي والعثماني، هو توقف التجديد والنهضة في الجانب السياسي، فقد اتسمت تلك العهود بتوريث الحكم، وتداوله في سلالات محددة، وابتعدت كثيراً عن المنهج والطريقة اللذين كانا في العهد الراشد.

هذا الانحراف - وإن كان طبيعة تلك الفترة الزمنية في كل دول الدنيا - إلا أنه أثر سلباً على عوامل النهضة الأخرى، ووَأد التجربة الشورية الأولى في تاريخ البشرية عند حدود أربعين عاماً من نشأتها!

وظهر - نتيجة لذلك - الخلاف بين من يرى أن العهد الراشد كان حالة بشرية استثنائية، و«أنها دولة لم تكن من طراز دول الدنيا، وهي بالأمور النبوية

= بعد استمرارها ٦٤٥ عاماً. ينظر: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط٢، ١٩٨٥م. وتاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك بن أحمد فريد باشا المحامي، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

والأحوال الأخروية أشبه، والحق في هذا أن زيَّها قد كان زيَّ الأنبياء، وهديتها هدي الأولياء»^(١)، «فترة الخلافة الراشدة ليست محسوبة من حياة الناس، على الوجه الذي قدّر لهم أن يصحبوها عليه، وإنما هي فترة استثنائية أشبه بفترة النبوة، كما أن فترة النبي لن تعيش في الناس، ولن يعيش فيها الناس إلا مرة واحدة وإلا زمنًا محدودًا ينتهي بوفاة النبي ﷺ»^(٢)، وبين من يبرر زوال تلك التجربة حين افترق المسلمون، وأنه كان لا بد من نزعة الملك والتعصب له لحفظ دماء المسلمين ونظامهم وأموالهم^(٣)، إلا أن الحقيقة أنه نظام بشري، يمكن العودة لمثله.

وإذا كان نظام الخلافة الشورية قد فسد بعد العهد الراشد، وآل هذا الأمر للورثة، وظهرت طريقة أخرى - هي الشائعة حينها - للحكم، فإن ما لا يمكن إغفاله «أن خلفاء بني أمية وبني العباس قد جمعوا بين عظمة الملك ونعيمه وترفه، وبين مقاصد الخلافة من نشر الدين والحق والعدل، وأن الفساد دبَّ إليهم بالتدريج، وما زال يفتك بهم حتى أزال ملكهم»^(٤)، ويضاف لهم كذلك خلفاء بني عثمان.

«وأكثر المسلمين لا يشعرون بسير السنن الاجتماعية فيهم، والأقلون لا يستطيعون تلافي الفساد وتداركه قبل أن ينتهي إلى غايته من هلاك الأمة. وإنما كان يتلافى بالنظام الذي تُقام به الخلافة، فالنظام قد أوجد أديانًا ومذاهب باطلة، وثبت دولًا جائرة، فكيف لا يحفظ به الحق الراسخ رسوخ الأطواد؟! فهو الحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه، ولو أن المسلمين بذلوا من

(١) الفخري في الآداب السلطانية (ص ٧٩).

(٢) الخلافة والإمامة، د. عبد الكريم الخطيب (ص ٢٥٨).

(٣) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٥٧).

(٤) الخلافة، محمد رشيد رضا (ص ١٥٢).

العناية لإعادة الخلافة إلى نصابها لعادت أقوى مما كانت وسادوا بها الدنيا كلها.

هذا وإن ما فات المسلمين في القرون الوسطى لا ينبغي أن يفوتهم في هذا العصر الذي عرف البشر فيه من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ومن فوائد النظام وأحكامه ما لم يكونوا يعرفون»^(١).

والأمة اليوم في حاجة للعمل الدؤوب للعودة إلى الرشد أو مقاربته في الحكم وفي كل مناحي الحياة، وأول ذلك: العمل بما أرشد الله إليه في كتابه من شروط صلاح الدنيا وعوامل ومقومات النهضة لإصلاح الحال والمجتمع ثم قيادة العالم به.

(١) المرجع السابق.

ب- مفهوم عوامل النهضة في القرآن الكريم:

• المصطلحات القرآنية التي بمعنى النهضة أو تدل على مقصدها:

القرآن الكريم لم يستخدم مصطلح النهضة، بل استخدم مصطلحات أخرى في معناها، كما استخدم أخرى في مبتغاها ومنتهاها ومقصدها.

١ - المصطلحات التي استخدمها القرآن الكريم في معنى النهضة:

🕌 الدعوة: والدعوة الطلب؛ يقال: دعا بالشيء: طلب إحضاره، ودعا إلى الشيء: حثه على قصده^(١)، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥].

والدعوة إلى الخير - في الآية الأولى - جنس تحته نوعان أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان^(٢)، والخير: كلمة جامعة تشمل كل ما فيه مصلحة للمجتمع بأسره، ولا شك أن مقومات النهضة وعواملها وطرق تحقيقها من الخير الذي شملته الآية.

والدعوة إلى الخير تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته،

(١) ينظر: المعجم الوسيط (١/ ٢٨٦).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٨/ ٣١٥).

وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم. وفيهم الجبار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحل الذي يكره الجد، وفيهم الظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم وفيهم، ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وهذا يقتضي سلطة للخير^(١).

والأمر كذلك في الدعوة إلى سبيل الله، والسبيل: هو الطريق وما وضع منه، والسبب والوصلة، وسبيل الله كل ما أمر الله به من الخير^(٢). وتستعمل كلمة السبيل لكل ما يتوصل به إلى شيء، خيراً كان أو شراً، واستعمالها في الخير هو الأكثر. ومن معاني كلمة السبيل الطاقة والقدرة^(٣)، فسبيل الله كلمة جامعة لكل خير وإصلاح. وكل ما يوصل إلى رخاء المجتمع وحضارة الأمة بلا مخالفة لمنهج الله وشريعته فهو من سبيل الله الذي أمر الله بالدعوة إليه والسير في طريقه المستقيم.

الإصلاح: وهو مصدر أصلح، من أصلحه فصلح^(٤)، وهو ضد الفساد والإفساد، وقد جاء في القرآن الكريم بعدة صيغ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

والمقصود بالإصلاح في الآية: الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه^(٥).

(١) ينظر: ظلال القرآن (١/ ٤٤٤).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط (١/ ٤١٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٦١٦).

(٤) شمس العلوم (٦/ ٣٨١١).

(٥) ينظر: ظلال القرآن (٤/ ١٩٢١).

وهو كذلك حين يكون الأمر في إصلاح فئة محددة من المجتمع:
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي مَلَى قُلُوبَهُمْ حَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ويحذر القرآن من مغبة الإفساد، والوقوع فيما يخرج المجتمع عن مسار الإصلاح النهضوي في كل مناحي الحياة، ومن أهمها النواحي المالية والاقتصادية، ومحاربة المجتمع في معيشته وقوته: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].
بل إن التراجع عن مسار النهضة العامة إنما يكون حين ينتشر الفساد والظلم، أما حين يكون المجتمع مصلحاً، وسائراً في طريق الإصلاح الخاص العام، فإنه دائم الاستمرارية والنماء: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وقد جعل القرآن الكريم طريق الإصلاح النهضوي الشامل مقروناً بالتمسك بالوحي «الكتاب» فلا ينفك هذا عن هذا: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، فمتى ارتخت الأيدي عن التمسك بهذا الكتاب العظيم تنكبت الأمة طريق الإصلاح الشامل، ولا يمكن أن يتحقق الإصلاح النهضوي العام بعيداً عن أنواره، إلا إن كان محدوداً مؤقتاً، والمصلحون «يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهتمون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية؛ إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحية»^(١).

التغيير: وهو إحداث شيء لم يكن قبله، أو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى^(٢)، فعلى المعنى الأول من «غير» أي حوَّله وبدَّله، كأنه جعله غير

(١) تحرير المعنى السديد (٢٩/ ٢١٤).

(٢) التعريفات (ص ٦٣).

ما كان. وعلى المعنى الثاني من «الغَيْر» أي تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد^(١).

والتغيير ورد في القرآن الكريم بعدة معانٍ، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد^(٢).

لكن التغيير قد يكون عكسيًا، فلا يغير الله ما بهم من النقم والتخلف والتشتت والنقص حتى تكون منهم الطاعة والسعي للإصلاح ونبذ موجبات الهلاك والإفساد، فإنه لا يغير نعمة أو بؤسًا، ولا يغير عزًا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقًا له في الزمان بالقياس إليهم.

وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم.

والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل، وهو يحمل كذلك -إلى جانب التبعة- دليل التكریم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه^(٣).

(١) ينظر: لسان العرب (٥/ ٤٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٩/ ٢٠).

(٣) ينظر: ظلال القرآن (٤/ ٢٠٤٩).

والتغيير يبدأ تدريجيًّا؛ فيبدأ من النفس والمحيط الاجتماعي، ثم يتراكم كَمَا وكيفًا حتى يشمل قاعدة عريضة من المجتمع، ثم يصبح ثقافة متداولة تشمل مناحي الحياة كلها: الاجتماعية والسياسية والثقافية والسلوكية، وهذا هو ما يمكن أن نعبر عنه بالنهضة الشاملة والتغيير الواسع إلى الأفضل.

🕌 القيام: ومن الألفاظ التي استخدمها القرآن الكريم في معنى النهضة لفظ الأمر بالقيام كما قال الله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وذلك إذا ما قصدنا المفهوم الواسع للأمر بهذه الأمور وما يترتب عليها من صلاح في النفس والحياة.

🕌 السعي: ومن الألفاظ المستخدمة في القرآن لمعنى الانتهاض لعمارة الأرض: الأمر بالسعي والانتشار في مناكب الأرض وابتغاء فضل الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَاخِرُونَ يَصْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فهذه كلها أوامر قرآنية بالحركة والانتهاض والانطلاق لعمارة الأرض وبنائها وفق مقاصده ومركزاته وأهدافه.

٢- المصطلحات القرآنية التي تدل على مقصد النهضة:

استخدم القرآن الكريم في مقصد النهضة ومنتهاها ألفاظاً، منها:

الإعمار: وهو لغة البقاء والتمدد والعلو، جاء في المقاييس: العين والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على بقاء وامتداد زمان، والآخر على شيء يعلو... ومنه عمارة الأرض، يقال عمّر الناس الأرضَ عِمَارَةً، وهم يعمرونها، وهي عامرة معمورة. وقولهم: عامرة، محمول على عَمَرَتِ الأرضُ، والمعمورة من عُمِرَتْ. والاسم والمصدر العُمُرَان: واستعمر الله تعالى الناس في الأرض ليعمروها^(١).

وفي القرآن: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، أي: أقدركم على عمارتها وأمركم بها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْثَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، أي: وأنثروا الأرض وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها، وعمروا الأرض^(٣).

والعمران مفهوم واسع في القرآن الكريم وفي الإسلام بشكل عام، والنصوص في أهمية إعمار الأرض متكاثرة، مهما كانت الظروف، وفي الحديث: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدَ أَحَدُكُمْ فَسِيلَةً، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»^(٤).

(١) مقاييس اللغة (٤/١٤١).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/١٣٩).

(٣) المرجع السابق (٤/٢٠٢).

(٤) أخرجه أحمد في المسند، رقم (١٢٩٨١)، وصححه محققو المسند، كما أخرجه البخاري في =

والفسيلة: هي النخلة الصغيرة^(١).

والإعمار المقصود يكون في جميع مناحي الحياة، وإلا لما كانت عمارة للأرض، وهو نتيجة حركة دؤوبة مستمرة في إثارة الأرض، والسعي في تشييدها، وهو مقصد شرعي، فيها قوام الحياة، والحياة كلها لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وتأسيساً على هذه الآية الكريمة، فإن «الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

١. عمارة الأرض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.
٢. وعبادته، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وذلك هو الامتثال للبارئ ﷻ في أوامره ونواهيه.
٣. وخلافته، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالبارئ - سبحانه - على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة... فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه^(٢).

🌟 التمكين: وتدور معانيه في اللغة على الاستقرار والقوة والثبات والرفعة، وفي الأساس: مكنته من الشيء وأمكنته منه، فتمكن منه واستمكن، وأما أمكنني الأمر فمعناه: أمكنني من نفسه، وهو مكين عند السلطان، وهم

= الأدب المفرد (رقم: ٤٧٩)، وصححه الألباني في: صحيح الأدب المفرد (ص ١٨١).

(١) لسان العرب (١١/ ٥١٩).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص ٨٣).

مكناؤه، وقد مكن عنده مكانة، وهو أمكن من غيره^(١).

وقد وردت كلمة (التمكين) بما تحمله من معانٍ لغوية في القرآن الكريم بتصريفات متعددة، وفي مواطن عديدة، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

مكناهم: جعلنا لهم فيها مكاناً وقررناهم فيها وأعطيناهم من القوى والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها^(٢).

ويشبه هذا المعنى ما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وفي سورة يوسف ذكر الله تدرج تمكين يوسف ﷺ كالاتي:

- فبعد الحب والنجاة من مصير الموت على يد إخوته مكن الله له تمكيناً أولياً، فأوجد له قراراً في بيت العزيز، وعلمه من فضله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِعَلَّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

- ثم بالعلم والحفظ مكن له تمكيناً أكبر وأوسع، فتولى مقاليد الأموال وأرزاق الناس في دولة ذلك العصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

- ثم توسع تمكينه، واستقر تصرفه في البلاد كلها وما جاورها، ودانت له الدولة ورعيتهما، وسلم الجميع بعلمه وحفظه وأمانته وذكائه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ

(١) أساس البلاغة (٢/ ٢٢٣).

(٢) تفسير البضاوي (٢/ ١٥٤).

أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿[يوسف: ٥٦].

وذكر الله ﷻ في سورة الكهف من أسباب تمكينه لعبده ذي القرنين أنه عمل بالأسباب وسعى في تحصيلها: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، ولذلك لما طُلب لصناعة السد الحاجز مضى ببيان الطريقة الموصلة لذلك، عاملاً بالأسباب الممكنة الممكنة: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

ولهذا التمكين شروط، ذكرت الآيات السابقة بعضها، وهي العلم والحفظ، والمقصود بالحفظ الأمانة في تحمل المسؤولية والاقتدار عليها، وكذا السعي بالأسباب، وقد أجملت شروط التمكين تلك في قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فقد «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات: أي الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض؛ فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين، كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام، وغيرهما، وأنه يمكن لهم دينهم، وتمكينه ذلك هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً بأن ينصرهم عليهم»^(١).

فالشرطان المجملان هما:

- الإيمان، ويدخل فيه جميع تفاصيل الإيمان، وهذا يذكرنا بحتمية تزواج

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٤/٤١٢).

الجوانب الروحية مع الجوانب المادية، كما أشرنا لذلك سابقاً.

- **والعمل الصالح**، وهو كل عمل يمكن وصفه بالصالح، سواء كان فردياً أو جماعياً، بدنياً أو فكرياً، لازماً أو متعدياً، من الأعمال الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية أو العسكرية أو غيرها.

فلا نهضة -أي نهضة- بدون عمل، ولا نهضة شاملة متكاملة بدون عمل صالح وإيمان راسخ.

والنتيجة للإيمان والعمل الصالح هي التمكين للدين، «وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض.

ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض... ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله»^(١).

ثم إن تبعات هذا التمكين تكبر وتزداد، فلا توقّف، بل سعي حثيث وحركة دائمة وعمل مستمر، ينطلقون من مرحلة إلى أخرى، ويركبون طبقاً عن طبق: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

«ومن ثمّ فإن على المسلمين أن يكونوا هذه الجماعة التي تحققت بهذه السمات، وهذا لا يكون إلا إذا وُجد علم ووعي وعمل يومي وخصائص معينة»^(٢).

(١) ينظر: ظلال القرآن (٤/٢٥٢٩).

(٢) الأساس في التفسير (٧/٣٥٧٢).

فإذا ما تحقق ذلك، وانتهضت الأمة في جميع المجالات، وأرست قواعد عدالتها على أرض بيضاء منبئة، أَمِنَ الجميع، فأقاموا شعائرهم بطمأنينة ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وتغذت أرواحهم بها، ودفعوا من أموالهم لإخوانهم عن طيب نفس ﴿وَعَاتَوْا الزَّكَاةَ﴾، فسدوا فاقة وحاجة إخوانهم، وتوسعت دائرة التكافل الاجتماعي حتى لا يكاد يوجد محتاج أو مُعَوِّز، وقد حدث ذلك فعلاً! وفي كل ذلك يقومون الاعوجاج، ويصلحون الفساد قبل استفحاله، فهم بين دعوة إلى الخير مستمرة، وتذكير به دائم ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وحربٍ على الشر موقدة دائمة، لا تهدأ؛ لأنها لو هدأت استفحل وكبر فصعب بعد ذلك علاجه ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فهم -بين هذا وذاك- يتواصلون بالحق، وينشرونه قولاً وفعلاً، ويتقاصرون عن الباطل قولاً وفعلاً.

والتمكين -كما أسلفنا- له شروطه، متى ما حُقق تحقق، ولذلك وعد الله به المستضعفين إن هم ساروا في طريقه: ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦].

الاستخلاف: الاستخلاف مصدر الفعل استخلف، من الخلف، والخاء واللام والفاء -كما في المقاييس- أصول ثلاثة: أحدها: أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني: خلاف قُدَّام، والثالث: التغير.

فمن الأصل الأول: الخلافة، سُميت بذلك لأن الثاني يجيء بعد الأول قائماً مقامه، ومن الأصل الثاني: خُلف، وهو عكس قُدَّام، تقول: هذا خلفي وهذا قُدَّامي، ومن الأصل الثالث: قولهم: خَلَفَ فُوه: إذا تَغَيَّرَ، ومنه الخلاف في الوعد^(١).

والاستخلاف في القرآن الكريم أتى بصيغ متعددة، في مواضع عديدة،

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢١٢).

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهذه الآية تنص على الاستخلاف البشري العام على كوكب الأرض، «والخليفة في الأصل الذي يخلف غيره أو يكون بدلاً عنه في عمل يعمله - كما مر معنا - فهو فعيل بمعنى فاعل، والتاء فيه للمبالغة في الوصف كالعلامة.

والمراد من الخليفة هنا إما المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملاً يريد المستخلف مثل: الوكيل والوصي، أي: جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة؛ لأن الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السلطنة على موجودات الأرض، ولأن الله تعالى لم يترك عملاً كان يعمل فوكله إلى الإنسان، بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقه أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي، خلاف غيره من الحيوان.

وإما أن يُراد من الخليفة معناه الحقيقي، إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات، وهذا ينفيه سياق الآية؛ فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها.

فالخليفة هنا: الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقراً في المكان من قبل، فالخليفة آدم، وخلفيته: قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإنسان أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي.

ومما يشمله هذا التصرف: تصرف آدم بسنّ النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم.

فكانت الآية من هذا الوجه إيماءً إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم؛ إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك. وقد بعث الله الرسل وبيّن الشرائع، فربما اجتمعت الرسالة والخلافة، وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه، إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة؛ لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع، وهو الشريعة الخاتمة، ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخُطتين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

ولهذا أجمع أصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته على إقامة الخليفة؛ لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة، ولم ينازع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة، إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى من جفاة الأعراب ودعاة الفتنة»^(١).

فالاخلافة والاستخلاف والعمل بنظامها وسنّها إذن مبدأ فطري في الإنسان، خُلِقَ معه من أول لحظة، بل تقرر ذلك قبل خلقه، وإذا لم يسعَ لهذا المبدأ والنظام فإنه يخالف فطرته التي فطره الله عليها.

والأصل أن الاستخلاف على الأرض وميراث خيراتها ومقدراتها يكون للصالحين من العباد: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، والصالحون وصف عام لمن جمع بين الإيمان والعمل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]:

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٢).

فذلك وعد الله لمن جمع بين الإيمان والعمل، ووعد الله حق، ووعد الله واقع، ولن يخلف الله وعده.

فما حقيقة ذلك الإيمان والعمل الصالح؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف؟
إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله.

فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله، لا يتبغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة الله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله. فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفاتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً، يتوجه بهذا كله إلى الله، ويتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله^(١).

وسبق أن بيّنا أن العمل الصالح عام شامل، يشمل كل عمل يمكن أن يوصف بالصالح مما فيه خير الدنيا والآخرة.

إن العمل الصالح ليس العبادة فقط، تلك العبادة الفردية الشخصية التي لا تتعدى للمحيط والمجتمع والأمة بأسرها، بل بمفهومه العام الواسع الشامل الذي يتسع لكل ما من شأنه أن يساعد في نهضة الأمة لتقوم بدورها القيادي وتعيد الناس لله تعالى.

(١) ينظر: ظلال القرآن (٤/٢٥٢٨).

فالعبادة البدنية كالصلوات والصوم والاستغفار عمل صالح، والعبادة المالية كالزكوات ووجوه الإنفاق عمل صالح، والعلم بالشريعة عمل صالح، وعلوم الطبيعة والفلك والطب والهندسة أعمال صالحة، وبناء الأسرة عمل صالح، وتربية النشء عمل صالح، وإمالة الأذى عن الطريق عمل صالح، وتعبيد الطرقات وإصلاحها وتنظيمها عمل صالح، وبناء المدن والمدارس والمساجد والمشاغل والمصانع عمل صالح، وسنُّ الأنظمة والقوانين المنظمة لحياة الناس عمل صالح، وإنتاج وإدارة التقنية عمل صالح.

إن العمل الصالح واسع جدًا، وهو ما يمكننا أن نستعيـره ليكون عوضًا عن مصطلح عوامل النهضة، أو نستعيـر هذا المصطلح رديفًا لمصطلح العمل الصالح!

إن «ذلك الإيمان - مع ما يتضمنه من عمل صالح - منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به: توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض؛ أمانة الاستخلاف.

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخلقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد

والجماعة إلى مدارج الحيوان.

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدّر لها يوم أنشأها الله.

فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يُسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله»^(١).

• آيات النهضة في القرآن الكريم:

١ - تقسيم مادة القرآن:

يرى بعض فقهاء التفسير «أن مجموع مادّة القرآن ترجع إلى ثلاثة أشياء: ١. العقيدة: وتحتها: أسماء الله تعالى وصفاته، والآيات الدالة عليه، والإيمان باليوم الآخر، وسائر الغيب، والرسل، والكتب.

٢. التذكير: وتحتة: الأمثال، والقصص، والوعد، والوعيد.

٣. الشرائع: وهي الأوامر والنواهي، وأحكام الحلال والحرام.

وهذه القسمة أصلها الحديث الصحيح المتواتر عن النبي ﷺ قال: ﴿قُلْ

هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٢).

وفي رواية صحيحة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ جَزَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ،

(١) المرجع السابق (٢٥٢٩/٤).

(٢) أخرجه البخاري، برقم (٥٠١٣)، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم، برقم (٨١٢)، عن مجموعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري.

فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ^(١).

وذلك من جهة أن هذه السورة قد اشتملت على التوحيد خاصة، وهذا ثلث القرآن؛ باعتبار القسمة السابقة^(٢).

وباعتبار هذه القسمة لمادة القرآن، ولما تقدم حول مفهوم النهضة، فإن القرآن الكريم كله كتاب نهضة، فلا يمكن أن تتحقق نهضة شاملة متكاملة بلا عقائد صحيحة أو شرائع قويمية، أما التذكير أو الأخبار والقصص في القرآن فهي رافد للعقائد والشرائع.

وإذا أمنت وأنعمت النظر في القرآن الكريم، من أوله إلى آخره، وبجميع أقسامه آنفة الذكر -إذا ما ارتضيناها- وجدته كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، «هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نوااميس الكون الطبيعية ونوااميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء، برقم (٨١١).

(٢) ينظر: مقدمات الجديع (ص ٣٩٣).

توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة. ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووثام^(١)، وهو أقوم كذلك فيما جاء به من عوامل نهضة الأمة وسبيل رفعتها، في شتى المجالات، وهو «أعدل وأعلى في العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره»^(٢).

والقرآن الكريم قد استعرض تلك العوامل في محطاتها كلها، ونبه وحث عليها، وإن شئنا قلنا: إن القرآن الكريم من أوله إلى آخره كتاب نهضة وتحفيز

(١) ينظر: ظلال القرآن (٤/٢٢١٥).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص ٤٥٤).

على البناء والتعمير والتطوير والإدارة، إدارة الحياة وفق منظومته المتكاملة في العقائد والتذكير والشرائع.

٢- عوامل النهضة مع أول نزول قرآني:

لن نستغرب إذن أن القرآن وفي أول بدايات نزوله، بل في أول سورة منه، بل في أول آية نزولاً^(١) نبّه على أعظم عوامل البناء النهضوي، وهو العلم الذي عبّر عنه بالقراءة كأول وأهم خطواته، وبالقلم الذي هو أهم أدوات العلم قديماً وحديثاً: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. وعلى رغم وجازة هذه السورة الكريمة إلا أنها قد لفتت إلى مجموعة من عوامل النهضة، أهمها:

١. أهمية القراءة باعتبارها أول بوابات العلم، والعلم هو أهم وأوسع عوامل النهضة لأي أمة، ولا يمكن لأمة مهما بذلت من جهد أن تبلغ نهضة في أي مجال ما لم تكن ولجته من باب العلم، فضلاً عن أن تكون حضارة! والقراءة هنا مطلقة، والمقصود أي قراءة، وقصرها على قراءة القرآن الكريم للتنبيه على أهميته فقط، فمتى كانت القراءة مرتبطة بالقرآن الكريم كانت أسعد وأكرم.

٢. أهمية أن ترتبط هذه القراءة بالجانب الإيماني الروحي لتتكامل العوامل، وهذا مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فالقراءة العامة والواسعة لا بد أن تنضبط بتصورات الوحي؛ لأن الوحي هو العلم الدقيق الذي لا يمكن أن يخطئ من جهة، وهو أعلم باحتياجات الإنسان من جهة أخرى، ولذا علل

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٩١).

هذا الربط بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، كمثل قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فالآية «تبرز مصدر التعليم... إن مصدره هو الله، منه يستمد الإنسان كل ما علم، وكل ما يعلم، وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود، ومن أسرار هذه الحياة، ومن أسرار نفسه، فهو من هناك، من ذلك المصدر الواحد، الذي ليس هناك سواه.

وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول ﷺ بالملأ الأعلى، بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة... كل أمر، كل حركة، كل خطوة، كل عمل، باسم الله... وعلى اسم الله... باسم الله تبدأ... وباسم الله تسير... وإلى الله تتجه، وإليه تصير»^(١).

٣. التنبيه على أهمية البدء في رحلة العلم، والعزم عليه، والجد والاجتهاد الفردي والجماعي، ثم تنزل بركة الله ويتدفق كرمه على عباده إن هم سعوا في هذا الطريق؛ طريق العلم الذي ينهض بأمته: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، بل سيفيض عليهم من العلوم ما لم تبلغه عقولهم: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

٤. التنبيه على أهم وسيلة في طريق العلم النهضوي: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾؛ لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرًا في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية، ولكن الله سبحانه كان يعلم قيمة القلم، فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية، في أول سورة من سور القرآن

(١) ينظر: ظلال القرآن (٦/٣٩٣٩).

الكريم، هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبًا بالقلم، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن، لولا أنه الوحي، ولولا أنها الرسالة^(١)!

٥. كما نبهت السورة بإشارات واضحة إلى أهمية البناء الترشيدي في طريق النهضة في كل مناحي الحياة، في المال والعلم والرفاهية بشتى أنواعها؛ حتى لا تصل إلى الطغيان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ﴾ [العلق: ٦-٧].
٦. ونبهت السورة إلى أهمية البناء الروحي في طريق النهضة الشاملة، يُستفاد ذلك من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]، وغيرها من الآيات في السورة.

٧. ونبهت السورة كذلك إلى أهمية الحرية الكاملة في العبادة وأداء الشعائر، وهو من مقومات البناء الروحي أيضًا: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: ٩-١٠].

٨. كما نبهت إلى أهمية تفعيل الرقابة الذاتية، للفرد والمجتمع، وخصوصًا لمن يعملون في حقل الوظيفة العامة أو يمارسون أدوارًا قيادية قد تتيح لهم بعض التصرف أو الطغيان مع ضعف المُساءلة بسبب مكانتهم: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

٩. ونبهت السورة إلى أهمية الحزم في التعامل مع مريدي الفساد والإفساد: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، وإلى تسمية الفساد باسمه بعيدًا عن الأسماء والإطلاقات الموهمة: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦].
١٠. والسورة نبهت أيضًا على أهمية ترك طاعة المفسدين والطغاة في تصوراتهم وإرادتهم وآرائهم التخريبية في جميع المستويات: الفكرية والاجتماعية

(١) ينظر: المرجع السابق.

والأخلاقية والاقتصادية والعسكرية والروحية، فلا طاعة لهم ولا انسجام معهم في إرادة ذلك، بل لا بد من التقرب من مصدر العلم والهدى في مجابهة هذه الإرادة الفاسدة الطاغية: ﴿كَأَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٧].

وهكذا نرى القرآن من أول وهلة يضع اللبنة الرئيسة في طريق البناء النهضوي الشامل، وينبه على أنها اللبنة الهادية، وأنه كتاب هداية شاملة: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق: ١١].

وسواء في بداية القرآن الزمانية - كما في هذه السورة - أو الترتيبية - كما في سورة البقرة - فقد أكد القرآن على حقيقتين هامتين ككتاب منهج يُستهدى به إلى كل عوامل البناء في شتى المناحي:

- الحقيقة الأولى: أنه لا خلل فيه بتاتاً، ولو في أدنى درجاته ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

- الحقيقة الثانية: أنه علاوة على ذلك يدل على الطريق والخلل ويضع العلاج ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ففي السورة الأولى زمانياً «العلق»: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾، وفي الأولى ترتيباً «البقرة»: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فهو بالنظر للحقيقة الأولى ثابت وعليه الارتكاز، وبالنظر للحقيقة الثانية تفاعلي ودليل وكاشف.

وعلى هذا يجب أن يجتهد أتباع القرآن والسائرون بمنهجه، ويعملوا بمنهجه ودليله وهده، فهي تحمل الدلالة والخير والهداية في جميع المجالات.

٣- عوامل النهضة في القرآن المكي؛

أشهر تعريف للقرآن المكي والمدني: أن المكي ما نزل قبل الهجرة،

والمديني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة^(١). ولا شك أن لكل من القرآن المكي والمديني ميزات وخصائص، وهذه القضايا لا تهملها هنا إلا بقدر أن نتعرف على أن القرآن الكريم اهتم ببيان عوامل النهضة وأشار إليها في جميع مراحل تنزيله الزمانية والمكانية.

وقد اختلفوا في بعض السور والآيات أنزلت بمكة أم بالمدينة، وأشهر إحصاء لذلك ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية... وما تقدم من السور مدنيات^(٢)».

ونزلت بمكة: سورة الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل... وسورة بني إسرائيل^(٣)، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج... وسورة المؤمنون والفرقان، وسورة الشعراء... وسورة النمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان... وسورة السجدة... وسورة سبأ، وفاطر، ويس، والصفات، وص، والزمر... والحواميم السبع^(٤)، وق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة، والصف، والتغابن... والملك، ون، والحاقة، وسأل^(٥)، وسورة نوح، والجن، والمزمل... والمدثر إلى آخر القرآن إلا: إذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس؛ فإنهن مدنيات.

ونزل بالمدينة: سورة الأنفال، وبراءة، والنور، والأحزاب، وسورة محمد،

(١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (١/ ٣٧).

(٢) أي: سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة.

(٣) هو من أسماء سورة الإسراء. ينظر: الإتيان في علوم القرآن (١/ ١٩٣).

(٤) هي السور السبع التي ابتدأت بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾، وهي سور: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٤/ ١٢٩).

(٥) أي: سورة المعارج.

والفتح، والحجرات، والحديد، وما بعدها إلى التحريم^(١).
وإذا ما أخذنا على -سبيل التمثيل- سورة من أوائل ما نزل بمكة، وهي
سورة «المدر» لوجدناها كذلك تشير إلى مقومات النهضة وعواملها، ومن
ذلك:

١. الأمر بالقيام والحركة الدؤوبة، وعدم الخلود للراحة والدعة: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدر: ١-٢].

٢. التنبيه على ركيزة التوحيد، وهي من أهم ركائز القرآن الكريم في بناء
عوامل النهضة -كما سيأتي في الفصل القادم من هذا الكتاب-: ﴿وَرَبَّكَ
فَكَبِّرْ﴾ [المدر: ٣].

٣. التنبيه على أهمية النظافة الشخصية، الحسية والمعنوية، الشخصية
والبيئية: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۖ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدر: ٤-٥].

٤. ونبهت السورة أيضاً على الصبر وتحمل المشاق، والتعامل الحسن مع
الناس: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۖ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدر: ٦-٧].

٥. ونبهت على أهمية الأموال ونمائها، وأهمية النماء البشري كذلك،
وترشيد ذلك كله بما يفضي إلى الرشد والنهضة لا إلى الطغيان والطمع
المهلك: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ
شُهُودًا﴾ [المدر: ١١-١٣]، وما بعدها من الآيات.

٦. كما نبهت على أهمية المسؤولية الفردية الشخصية في المجتمع: ﴿كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدر: ٣٨].

٧. التنبيه على التربية الروحية والسلوكية لاجتناب طريق المجرمين: ﴿عَنِ

(١) أوردته باختصار هنا، وأخرجه النحاس مفرقاً في كتابه: الناسخ والمنسوخ (٤١٥) وما بعدها،
وأورده السيوطي مجموعاً بطوله في كتابه: الإتقان (٣٩/١)، وقال: إسناده جيد رجاله كلهم ثقات
من علماء العربية المشهورين.

الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ [المدثر: ٤١-٤٣].

٨. أهمية التكافل الاجتماعي، والارتفاق بالضعفة وسد حاجاتهم: ﴿وَلَمْ نَكُ نُنْطِمْ الْمُسْكِينِ﴾ [المدثر: ٤٤].

٩. التنبيه على الجوانب الإيمانية والعقدية، والبعد عن الخوض فيما لا طائل منه، والتنبيه على أهمية التذكير والحوار المجتمعي، يبدأ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، إلى آخر السورة.

فهذه التنبيهات والإشارات والإرشادات في سورة واحدة من السور القصار نسبياً في العهد المكي، ولم نستقص كل ما فيها، وقد نبّهت على هذه الجملة المهمة من عوامل البناء المجتمعي والنهضة العامة، ولو شئنا أن نستعرض غيرها من السور المكية لكان ذلك ممكناً، لكن سوف نناقش ذلك بتوسع في الفصل الأخير من فصول هذ الكتاب، إن شاء الله.

٤- عوامل النهضة في القرآن المدني:

إذا ما استذكرنا التقسيم الثلاثي لمادة القرآن الكريم، والذي مرّ بنا قريباً، إلى: توحيد، وتذكير، وشرائع، وكان القرآن المكي يتميز -فيما يتميز به- بالكليات الكبيرة، والتأكيد على المبادئ الأولى في التوحيد، ويحاور في ذلك ويضرب الأمثال، وهو يشمل القسم الأول من مادة القرآن: التوحيد، والقسم الثاني: التذكير.

فإن القرآن المدني يتميز بالتفاصيل التشريعية والقوانين التنظيمية وصفات المجتمع وأخلاقه، وبيان أهم مقوماته للبقاء والاستمرارية، وذكر أهم ما يعزز القيم الكبرى في المجتمع، والتنبيه على مصادر القوة بمفهومها الواسع: العلمية والعسكرية والتشريعية والفكرية، وهو القسم الثالث من أقسام مادة

القرآن المجيد.

لقد كان القرآن المكي عامًّا في خطابه، بيد أن القرآن المدني كان يتناول المجتمع الجديد في دولته الجديدة بشكل أخص.

وبنظرة سريعة على سورة الحجرات -على سبيل التمثيل- وهي سورة مدنية، نجدها قد ركزت على عدة مفاهيم وأخلاقيات، هي في الأساس من أهم عوامل النهضة القيمية المجتمعية، فمن ذلك:

١. نهت السورة على واحدة التشريع العام، فلا يمكن أن يتقدمها شخص أو فكر أو مصلحة موهومة، وهذا من الثبات التشريعي في الأصل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

٢. نهت السورة على أهمية سلوك التخاطب، فبينت أساليبه، وعرضت لأسلوب غير مناسب على سبيل التمثيل، وهو التخاطب برفع الصوت والاستعجال بذلك مع إمكانية إتمامه دون الحاجة لذلك، ثم ذكرت السورة خُلُقًا رفيعًا يساعد في بناء مجتمع هادئ متفاهم ساكن الفكر والبال، وكان ذلك في صدر السورة حتى الآية الخامسة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢-٥].

وهذه الآيات وإن كانت تذكر الأدب السلوكي في مخاطبة الرسول الكريم إلا أنها من الآداب المرعية مع كل أحد، خصوصًا إن كان من القدوات

والقيادات العلمية والفكرية، مع التأكيد على أن حُبُط الأعمال المذكور في الآية خاص بالتخاطب غير المناسب مع الرسول ﷺ.

٣. التنبيه على أهمية الثبوت في نقل الأخبار وقبولها، ففي نشرها والترويج لها من الأضرار المجتمعية ما قد يدمرها، خصوصاً في الأوقات العصيبة أو حين يكون النقل عن مؤثرين أو إلى مؤثرين في المجتمع.

إن الجري وراء الشائعات والأخبار الزائفة قبل تمحيصها والتحقق منها من أكثر وسائل هدم المجتمعات وأنظمتها وقيمتها، وفي زمننا هذا اتضح ذلك بجلاء في الأحداث التي نعايشها بسبب سهولة النشر وتنوع وسائله ويسر الوصول إليه من كل أحد مهما كان مستواه العمري والأخلاقي!

فلا شك أن الثبوت والتحقق والتحقيق من عوامل البناء النهضوي في هذا الصدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وفي هذه الآية ألفت عنايتكم إلى نكتتين - وإن لم يكن هذا مقصودنا هنا -: الأولى: عبّرت الآية بلفظ ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ مطلقة منكّرة هكذا، لتكون شاملة لكل جهالة محتملة، جهالة الناقل أو جهالة المتلقي أو جهالة الحدث أو جهالة القوم، أي: فتصيبون القوم بسبب جهالة منهم.

الثانية: عبّر بالفعل: ﴿فَتُصْبِحُوا﴾، الدال على زمن الصباح ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾: فجعل مَنْ لم يتثبت كمن يفعل الشيء في الظلام ثم حين يصبح يرى ما لا يسره من أفعاله في وقت الليل والظلام فيندم، فهو كحاطب الليل، يجمع في يده ما قد يضره!

وهكذا المجتمع بأسره، إن تناقل الإشاعات بلا تثبت فإنه يساهم في التدمير الذاتي لبنائه وأأسسه.

٤. بينت السورة طرق ردم الهوة بين أفراد المجتمع إن بغى بعضهم على بعض، وتدرجت في المعالجات لمثل تلك الحالات الطارئة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرَات: ٩].

فلا تشنج ابتداءً في إعادة المسار للوضع الطبيعي؛ لأن هذا من الأمراض التي لا يخلو منها تجمع بشري، فتتم المحاولة للمّ الشمل بالصلح والإصلاح، فإن تطاولت فئة باغية على أخرى ولم تنجح للصلح والإصلاح والمسعاعي السلمية الحوارية فلا تهاون حينئذٍ، بل جدية صارمة في التعامل ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾، وبهذا يستقر المجتمع ويطمئن.

إن التشنج ابتداءً يجرح الطمأنينة والسكينة، ويخلق الاضطرابات ويوسع من نطاقها، وإن التساهل بعد ذلك يفضي لزوال السكينة المجتمعية بالكلية، ويحوّل المجتمع إلى قطع غاب، القوي يهجم على الضعيف على مأمّن من بقية عناصر المجتمع وقواه.

٥. التأكيد على الرباط الجديد والعظيم للمجتمع: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرَات: ١٠].

فالرباط الجديد بعيد عن القبيلة والنسب، وهي روابط ضعيفة الفتل، سرعان ما تُنْقَضُ، أما رباط الإيمان فهو رباط وثيق، إذ لا مصالح فردية مرجوة منه أو فتوية، بل مصلحة المجتمع كله.

٦. التنبيه على مصفوفة من الأخلاق الحسنة التي متى ما انتشرت وتوسعت قاعدتها في المجتمع؛ زاد المجتمع في تماسكه وترابط بنيانه: ﴿يَنَآيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ

عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ
الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أُجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ
بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿الحُجُرَات: ١١-١٢﴾.

إن السخرية والتنازع بالألقاب البغيضة وسوء الظن والتجسس -وهي من
كبريات الأخلاق المذمومة- كالنار إن هي استشرت في المجتمع، تأكل كل
شيء... كل شيء!

فيتحول المجتمع إلى مستنقع من الرذائل، الجميع يجلد في الجميع،
ويزول الهدوء والسكينة من جنباته، كلُّ مترقب أو مراقب، يخشى من لسان
السخرية الذرب أو لقبٍ بغيض يلتصق به أو نفس مريضة تشك فيه أو عين
خبیثة ترقبه، فكلُّ ﴿يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾!

فكيف لمجتمع هذا حاله أن ينتهض ويسود؟! كيف له أن يبنى حضارة وهو
متناحر، لا يجرؤ أحد أن يبدع فيه أو يتميز؛ خوفاً من السخرية أو النبز... إلخ!

٧. التأكيد على تساوي أفراد المجتمع في الأصل، وأن التميز والأفضلية
إنما تكون بالتقوى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَّكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
[الحُجُرَات: ١٣]، فالتقوى والعلم -كما في آيات أخرى^(١)- هما مقياس
الأفضلية في المجتمع، وهما شيان مكتسبان يمكن لكل فرد من أفراد المجتمع
أن يسعى في تحصيلهما، فلا علاقة للنسب والقبيلة في الأفضلية والتكريم،

(١) كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]،
وغيرها من الآيات.

«النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»^(١).

والتقوى بمفهومها الواسع هي اسمٌ جامع لكل خلق كريم ظاهرًا وباطنًا، والعلم المقصود به هنا العلم النافع، سواء كان علمًا من علوم الشريعة أو من العلوم الدنيوية التي حذت الشريعة دراستها لنفع المجتمع وبناء نهضته وحضارته.

وسوف نتطرق إلى هذا المفهوم بشكل أوسع حين نصل إلى الفصل الأخير في هذا الكتاب، وإنما عرجنا هنا سريعًا لبيان أن القرآن المدني كان ينبه على عوامل النهضة بما يتناسب مع المجتمع الجديد أرضًا وإنسانًا وبيئةً وتنوعًا.

٥- عوامل النهضة موضوعيًا في القرآن:

فرغنا التَّوَّة^(٢) من سرد سريع لاهتمام القرآن الكريم بعوامل النهضة في قسميه الزمانين المكي والمدني، ولكل موضوعه الأبرز، ولكن للقرآن الكريم تقسيمات موضوعية أخرى، فالسور القرآنية تعتبر تقسيمًا موضوعيًا، وداخل السورة القرآنية الواحدة يمكن أن تجد أكثر من موضوع وقضية، وفي قضيتنا هذه -عوامل النهضة- يمكن أن تتطرق لها السورة القرآنية بأشكال متعددة ومتشابهة، ويمكن أن يكون ذلك في سورة بعضها مكي وبعضها مدني، لذلك أثرنا أن نتحدث عن كل عاملٍ على حدة، ونحشد تحته الآيات التي تحدثت عنه أو أشارت إليه، وهو ما سيكون في الفصل الأخير، إن شاء الله.

وعلى ضوء ما سبق، فيمكن أن نقول: إن القرآن الكريم كله كتاب نهضة وبناء حضاري، فكل سورة منه بل كل آية هي إما دليل ومرشد لعامل نهضة أو

(١) أخرجه الترمذي (رقم: ٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (رقم: ٢٩٦٥).

(٢) التَّوَّة: الساعة من الزمان. تهذيب اللغة (١٤ / ٢٤٩).



مرتکز من مرتکزات تلك العوامل.

لكن الذي يعنينا هنا الآيات الكريمة التي تذكر أو تشير بشكل مباشر إلى عوامل النهضة المدنية: كالاهتمام بالنسل وتحفيز المجتمع على التناج البشري، والاهتمام بالعمل وتحمل المسؤولية.

أو العوامل السياسية للنهضة: كأهمية الشورى، وعدم التمييز أمام النظام والقانون، وتفعيل الرقابة القانونية والمجتمعية، وتفعيل الرقابة الاستخباراتية والأمنية، وتفعيل الرقابة الإعلامية.

أو العوامل الاقتصادية للنهضة: كالتنبه على الموارد المالية، والعدالة في التوزيع، وعدم هدر الثروة والمال.

أو العوامل العلمية للنهضة: كتفعيل التعليم الموجه، والتثقيف المجتمعي. أو العوامل العسكرية للنهضة: كالاهتمام ببناء القوة العسكرية الرادعة، والتنبه على شروط استخدام القوة العسكرية، وذكر مجالات استخدامها.

أو العوامل الاجتماعية للنهضة: كالعدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، والانسجام المجتمعي العام.

أو العوامل الروحية للنهضة: كاهتمام القرآن بالبناء الروحي والعقدي (الإيمان)، وأسلوبه في بناء العوامل الروحية.

أو العوامل الأخلاقية للنهضة: كاهتمام القرآن بالبناء السلوكي والأخلاقي، وأسلوبه في بناء الوازع الرقابي الذاتي.

فسيكون مجال بحثنا إذن هو القرآن الكريم كاملاً، لكن من حيث الموضوعات التي حددناها سلفاً؛ إذا لا يمكن حصر الآيات التي تتحدث عن عوامل النهضة والبناء الحضاري للحثيات السابقة، فكل آية هي عامل، وكل سورة هي أساس من أسس بناء الحضارة ونهضة المجتمع والأمة، ولهذا أنزله الله ﷻ وبعث به

رسوله ﷺ إلى الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].
وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَٰ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

• عرض القرآن لعوامل النهضة من خلال المجتمعات السابقة؛

تحدثنا في ما سبق عن اهتمام القرآن الكريم بذكر عوامل النهضة، سواء سبرنا القرآن من خلال العهدين المكي والمدني، وهو سبرٌ زمني، أو من خلال السبر الموضوعي للقرآن الكريم، وهو ما أشرنا إليه إشارة، وسوف نتناوله في الفصل الأخير من هذ الكتاب، إن شاء الله.

وهنا نتحدث بإيجاز عن عرض القرآن الكريم لتلك العوامل من خلال سرده لأنباء الأمم السابقة وأيامها وأحداثها، ولن نطيل في ذلك؛ فالمقصود هو التنبيه على إشارة القصص القرآني لعوامل النهضة والبناء الحضاري، واستلهم ذلك من عصور السابقين ومحادثاتهم مع أنبيائهم، فكل نبيٍّ جاء لقومه لعمارة الدنيا وسياستها بالدين.

وتنقيبنا في ذلك ليس نفلاً في استلهم عوامل النهضة ومعالم بناء الحضارة، بل هو من صميم ما اهتم القرآن ببيانه والنظر فيه من زوايا متعددة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ [الأنعام: ١١]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

والمقصود السير وأخذ العبرة في جميع النواحي، كيف انتهضوا؟ ولماذا بادوا؟ وأسباب تمكينهم وأسباب هلاكهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا

السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿[الأنعام: ٦]﴾.

فالآية تدعو للبحث والنظر في القرون السابقة وكيفية سقوطها وهلاكها،
رغم أنها متصفة بثلاثة أوصاف: التمكين، وإرسال السماء مدرارًا، وإجراء
الأنهار من تحتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]، فكلمة «(ما)» في قوله
﴿فِيمَا﴾ بمنزلة (الذي)، و﴿إِنْ﴾ بمنزلة (ما) والتقدير: ولقد مكناهم في الذي
ما مكناكم فيه، والمعنى: أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالاً^(١).

ولا شك أن هذا التمكين بمقوماته كان له أسباب كذلك، كما للسقوط
والهلاك أسباب، فينبغي النظر فيها جميعًا لأخذ العبرة الكاملة.

والآيتان السابقتان متطابقتان، إلا أن الأولى عطف بـ «ثم»، ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾
والثانية بـ «الفاء» ﴿فَآنْظِرُوا﴾، «فقلوه»: ﴿فَآنْظِرُوا﴾ يدل على أنه جعل النظر
سببًا عن السير، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين.

وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ [الأنعام: ١١]: فمعناه إباحة
السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين،
ثم نبه الله تعالى على هذا الفرق بكلمة «ثم»؛ لتباعد ما بين الواجب والمباح^(٢)،
والحاصل من ذلك: أنه أوجب السير وأوجب النظر والاعتبار، سواء كان
منشأ السير للنظر ابتداءً، أو نشأ السير لغرض آخر ثم وُجد ما يستوجب النظر
والاعتبار، و«المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/٢٦).

(٢) المرجع السابق (١٢/٤٨٨).

في الأرض كان المقصود حاصلًا»^(١).

إن الغرض هو النظر في الأسباب المؤدية لكل حال، لا مجرد النظر لحالهم، يبين ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والسنن جمع سنة، و«هي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع»^(٢) الذي يقتدى به.

والمغزى من قص القصص وتكراره في القرآن إنما هو الاعتبار والنظر وإعمال الفكر: ﴿فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ثم إن القرآن وهو يقص تلك القصص ويسرد تلك الأحداث لينبه على المقصد منها بشكل دقيق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فهي مع بيان القرآن لها في سياقاته:

- عبرة وعظة لذوي العقول.
- وتصديق لما جاء في كتب الأنبياء السابقين.
- وتفصيل كل شيء، فالقرآن فصل وبين ما يحتاج له من يريد أن ينظر ويتأمل.

- وهدى ورحمة، فهي مما يُستهدى به في الدنيا، ويكون سببًا لرحمة الله في الدنيا والآخرة^(٣).

(١) المرجع السابق (٩/ ٣٧٠).

(٢) المرجع السابق (٩/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر للاستزادة في بيان ذلك: المرجع السابق (١٨/ ٥٢٣).

وسنأخذ - على عجالة - ثلاثة مجتمعات شهيرة في القرآن الكريم، نرى من خلالها عرض القرآن لعوامل ومقومات النهضة والعمران:

١ - مجتمع عاد:

تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن مجتمع عاد، وذكر خصائصهم التي كان يمكن أن تجعل منهم مجتمعًا صالحًا، لكنهم نفضوا ذلك كله، واستولت عليهم فكرة أنهم الأقوى والأشد، ويمكن أن يحموا أنفسهم ومكتسباتهم بتلك القوة التي توهموها!

وقد ذكر القرآن من خصائصهم التي كان يمكن أن يجعلوا منها عوامل بناء ونهضة شاملة، تجمع بين الإيمان والعمل الصالح:

﴿أَنَّهُمْ اسْتَخْلَفُوا عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ ﴿٦٩﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمُ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وهذا يعني أنهم يعرفون ما حلّ بتلك الأمة، إضافةً إلى قرب عهدهم بمبدأ الخليقة، كما أنهم استلموا الأرض طاهرة صالحة بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿أَنَّ أَجْسَامَهُمْ كَانَتْ قَوِيَّةً مَبْسُوطَةً ﴿٦٩﴾ وَزَادَكُمُ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، فعندهم عامل البناء القوي وهو القوة البشرية كيفًا كما هو ظاهر الآية، وكما يشير له مضمونها، ويدل عليه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنعَمٍ وَبَيْنَينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣].

ومع ذلك فلم يصرفوا هذه الطاقة في النافع، بل ذهبوا للتفاخر والتعالي بها: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

🌟 تفننهم في البناء والتطوير المعماري، لكنه بلا فائدة مرجوة، بل لمجرد العبث: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]: فهم يبنون بكل مرتفع أو شعب^(١) من شعاب الجبال ومدخلها قصورًا كبيرة عظيمة البناء هائل الأعمدة، لكن للتفاخر فقط، لا للمصلحة الخاصة أو العامة، عبث يزاولونه بافتخار!

لم يكن البناء والتشييد مدروسًا، ولا عن حاجة اجتماعية ولا لإسكان المعدمين والمحتاجين، فقط للعبث والمفاخرة وتوهم الخلود: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، والمصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون مأخذ وبركات ضخمة للماء^(٢).

وهذا العبث نراه ماثلاً أمامنا في عصرنا الحاضر، بعد مجتمع عادٍ بآلاف السنين، ففي الوقت الذي تُبنى فيه القصور العظيمة التي تكلف مبالغ طائلة، وربما لن يسكنها أحد، وربما مرَّ عليها الأعوام لا يدخلها أحد، وربما هُدت قبل أن يُتفجع بها، بينما ذلك كله حادث مشاهد تجد من أبناء المجتمع من يفترش الأرض أو العشش المصنوعة من الشجر لا ترد عنه وأطفاله حرَّ الصيف ولا برد الشتاء!

🌟 كانت لديهم القوة الكفيلة لردع أعدائهم، فجنابهم مهاب، وهيبتهم كبيرة، وإذا ضربوا عدوًا بطشوا به قتلاً وتنكيلاً: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

🌟 وضعهم الاقتصادي كان قويًا كذلك، فعندهم ثروة حيوانية ﴿أَمَدَّكُمْ

(١) يُنظر في معنى الآية: تفسير الطبري (١٧/٦٠٦).

(٢) المرجع السابق (١٧/٦١١).

بِأَنْعَمِ وَبَيْنِينَ ﴿[الشعراء: ١٣٣]، وثروات زراعية متنوعة ﴿وَجَنَّتِ وَعُيُونٌ﴾ [الشعراء: ١٣٤].

لقد كانوا أيضًا - ونتيجة للعوامل والخصائص السابقة - في مأمن كبير، حتى توهموا أنه لن يجري عليهم شيء من عواتي الزمان وتقلبات الأحوال، حتى وهم يرون بوادر ذلك: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. على كلٍّ، لقد جمع مجتمع عاد خصائص خطيرة وكثيرة كما رأيت، كان يمكن أن يجعلوا من تلك العوامل والخصائص جسرًا لبناء حضارة عظيمة خالدة، لكنهم لم يرضوا بذلك، فأصبحوا مجرد مثل!

وكان أهم عاملين لسقوطهم:

الأول: عدم الإيمان، بل ورفضه حين عُرض عليهم، لقد رفضوا الوحي، رفضوا عضد النهضة وركيزتها الكبرى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

الثاني: العبث الذي اتسموا به في كل أعمالهم، وهذا منافٍ للعمل الصالح، مما يعني السقوط وعدم الانتهاض.

٢ - مجتمع ثمود:

لا يكاد يذكر القرآن الكريم مجتمع عادٍ حتى يتبعهم بذكر مجتمع ثمود، والمجتمعان متشابهان جدًا في الخصائص والعوامل والنتائج كذلك! فمن خصائصهم التي كان يمكن أن يجعلوا منها منطلقًا وعوامل بناء ونهضة شاملة:

لأنهم ورثوا الاستخلاف بعد قوم عاد على الأرض ومقدراتها،

وذلك كان من المنن عليهم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]: وفي ذكر ذلك تعريض بالخطر من الخطى في طريقهم الذي كانت نهايته نهايتهم وسقوطهم!

لقد تبوؤوا الأرض، والبوء هو الرجوع، لأن المرء يرجع إلى منزله ومسكنه^(١)، فخضعت لهم سهولها، وطوَّعوا جبالها ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]: والسهول: جمع سهل، وهو المستوي من الأرض، وضده الجبل. والقصور: جمع قصر وهو المسكن، وهذا يدل على أنهم كانوا يشيدون القصور، وآثارهم تنطق بذلك، و «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ سُهُولِهَا﴾ للظرفية، أي: تتخذون في سهولها قصورًا. والنحت: بري الحجر والخشب بآلة على تقدير مخصوص^(٢). فقد جعلوا منازلهم قسمين: قسم مبني في السهول، وقسم منحوت في الجبال، قيل: كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال.

أنهم المجتمع الذي نصَّ القرآن الكريم على أن الله ﷻ استعمرهم في الأرض: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَوْمَ اْعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، أي: عمَّركم فيها واستبقاكم، من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم^(٣)، وكلها معانٍ متقاربة بل متلازمة للإعمار المقصود في الآية، والسين والتاء في ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ للمبالغة، ومعنى الإعمار:

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: تفسير البضاوي (٣/ ١٣٩).

أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعد تعميراً للأرض حتى سُمِّي الحرث عمارة؛ لأن المقصود منه عَمُر الأرض^(١).

لقد ورثوا خبرة العمارة من قوم عاد، وطوروها، فبلغوا في ذلك الذروة حينها، حتى وُصفوا بالحِذْق والمهارة في هذا الجانب: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، والفاره: هو الماهر الحاذق الذكي فيما يفعل ويصنع، وهو كذلك الفرح بما يصنع حال صنعه، فهو طيب النفس نشيط. وقد يكون معنى ﴿فَرِهَيْنَ﴾، أي: البطرين العابثين^(٢)، وهذا معنى آخر للوصف القرآني هنا لمجتمع ثمود، وعلى ذلك فقد ورثوا العبث من قوم عاد أيضاً وطوروه!

كان مجتمع ثمود مجتمعاً آمناً، وذلك يوحى بقوته وبأسه، فالتقوى يأمن بخلاف المجتمع الضعيف، وهذا يشي لنا بتناجهم الأمني وعوامل ذلك، ولذلك ذكر القرآن عنهم ذلك: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَلَهْنَا ءَامِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦]، «وآمنين حالٌ مبينةٌ لبعض ما أجمله قوله: ﴿فِي مَا هَلَهْنَا﴾، وذلك تنبيهٌ على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة؛ لأنها لا يشار إليها، وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يُتَذَوَّق طعم النعم الأخرى إلا بها»^(٣).

ومن خصائص مجتمع ثمود أنه تمتع بثروات كبيرة، فقد كانوا إلى جانب أمنهم العام يتمتعون بأمنٍ غذائي وزراعي ومائي: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلُوعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٧-١٤٨].

فقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ ليكون مجموع ذلك تفصيلاً

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠٨/١٢).

(٢) يُنظر في معاني ﴿فَرِهَيْنَ﴾ في الآية: تفسير الطبري (٦٢١/١٧)، وتفسير البضاوي (١٤٦/٤).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٧٥/١٩).

لإجمال اسم الإشارة، أي: اجتمع لهم الأمن ورفاهية العيش، والجنات: الحوائط التي تشجر بالنخيل والأعناب، والطلع: وعاء يطلع من النخل فيه ثمر النخلة في أول أطواره، والهضم: بمعنى المهضوم اللين، وخُصَّ النخل بالذكر مع أنه مما تشمله الجنات لقصد بيان جودته بأن طلع هضم^(١).

لقد استطاع المسرفون والمفسدون في مجتمع ثمود أن يُنْهَكُوهُ ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]. ولم يسمعوا كلام الناصح الصالح: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢].

وشارك المجتمع في ذلك عن غير وعي وإدراك لحجم التبعة في الانقياد للمسرفين المفسدين، ومن ثم سقطوا في المهالك ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]، وما جرى على مجتمع عاد جرى على مجتمع ثمود، فالأسباب واحدة فلا جرم أن تكون النتيجة واحدة. لقد كان بالإمكان أن ينطلقوا من هذه الميزات التي حفتهم ولقّتهم، والأمن والجنات التي أحاطت بهم، فيستمر ذلك ويزيد، لكنهم هدموا كل ذلك بأمرين رئيسيين:

الأول: عدم الإيمان، ونقول فيه ما قلناه في نتيجة فقدته على مجتمع عاد. والثاني: اتباع المسرفين المفسدين في شوراهم ورأيهم وتقريرهم ومكرهم مع تنبيهِهم أنهم: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]، فكان الدمار والسقوط شاملاً للمجتمع كله.

٣- مجتمع مدين:

(١) يُنْظَرُ الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، بِتَصْرِفٍ.

ظاهرٌ من السياق القرآني أن مجتمع مدين متأخر عن المجتمعين السابقين؛ مجتمعَي عاد وثمود.

ولكنهم كذلك امتازوا بخصائص كبيرة وعوامل مؤهلة للنهضة والبناء والاستخلاف في الأرض، ومن أهم تلك الخصائص والعوامل:

﴿ أن أرضهم كانت صالحة بالكلية، صالحة لكل ما أرادوا أن يجروه عليها ويستخرجوه منها، ولذلك حُذِّروا من مغبة المواصله في طريق الإفساد؛ لأنه بالضرورة سوف ينسحب على الأرض الصالحة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهنا نلاحظ أن مجتمع مدين فضلاً عن عدم استغلال هذا الصلاح وتنميته وتوسعة نطاقه والمحافظة عليه، قاموا بمحاربة كل مساعٍ للإصلاح في شتى المجالات!

﴿ أن ثرواتهم كانت كبيرة، وعائدتهم المالية في توسع وارتفاع، ولذلك استنكر عليهم نبيُّهم الإفساد مع ما هم فيه من خير: ﴿إِنِّي أَرْكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، والمقصود: «إنكم بخير، وإنما ذكر رؤيته ذلك لأنها في معنى الشهادة عليهم بنعمة الله عليهم فحق عليهم شكرها، والباء في ﴿بِخَيْرٍ﴾ للملابسة.

والخير: حسن الحالة، ويطلق على المال كقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، والأولى حملة عليه هنا ليكون أدخل في تعليل النهي، أي: إنكم في غنى عن هذا التطفيف بما أوتيتم من النعمة والثروة. وهذا التعليل يقتضي قبح ما يرتكبونه من التطفيف في نظر أهل المروءة ويقطع منهم العذر في ارتكابه، وهذا حث على وسيلة بقاء النعمة»^(١).

لقد أعلن لهم نبيهم الكريم أنه يريد الإصلاح، والإصلاح فقط، فما كان صالحاً استبقوه ونموه، وما كان فاسداً أصلحوه وأقاموه، ولذلك أعلن لهم

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/١٣٧).

بلفظ الإصلاح الصريح: ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، والإصلاح الذي عناه في ثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

وثانيهما: وهو شيء من صلاح العمل، خص بالنهي لأن إقدامهم عليه كان فاشياً فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهو الكف عن نقص المكيال والميزان.

وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض^(١). لقد انحطت أفهام كبراء مجتمع مدين، فبدلاً من المحافظة على الصلاح والخير - بمعنى المال والثروة - الذي ورثوه وتوارثوه، قاموا بعكس ذلك كله، ومن أضيق الأبواب وأرداها، عبثوا بالمكاييل، وطففوا في الموازين، وسعوا في هدم الخير الذي أحيطوا به!

ما أقبح أن يتنزل أصحاب الثروات الكبيرة في المجتمع ليطففوا الميزان، ويبخسوا السلع، ويشعلوا نار الأسواق التي تأكل أقوات البسطاء ومحدودي الدخل، ثم تتوالى تداعياتها على الاقتصاد كله ثم على المجتمع برمته!

توالت دعوات الإصلاح، وتنوعت أساليبه، وتعددت محفزاته، فقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

(١) المرجع السابق (١٢/١٣٦)، بتصرف.

وقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣].

ولكن شيئاً من ذلك لم يُسمع، هذا في الجانب الاقتصادي المالي فقط، ومثله أساليب إصلاح المنظومة الاعتقادية والفكرية - التوحيد-، ومثله الممارسات اليومية والحياتية. وقد سرد القرآن ذلك كله بأساليب متنوعة في سورة الأعراف وهود والشعراء وغيرها من السور.

لقد بلغت الرأسمالية عند مجتمع مدين أن استغربوا دعوات الإصلاح، وخاصة إصلاح المسار الاقتصادي، ورأوا أن من حقهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، حتى لو كان فيه إضرار بالآخرين: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَئُوْا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

والرأسمالية: نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعاً في مفهوم الحرية، معتمداً على سياسة فصل الدين نهائياً عن الحياة. ولقد ذاق العالم بسببه ويلات كثيرة نتيجة إصراره على كون المنفعة واللذة هما أقصى ما يمكن تحقيقه من السعادة للإنسان، وما تزال الرأسمالية تمارس ضغوطها وتدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي وترمي بثقلها على مختلف شعوب الأرض^(١).

وقد اتضح عمق مفهوم الرأسمالية في خطاب مجتمع مدين من زاويتين: الأولى: في استغرابهم من أن صلاته تأمره بالإصلاح الشامل، والذي منه

(١) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (٢/ ٩١٠).

صلاح أسواق المال، والمقصود بالصلاة هنا الدين بشكل عام.
الثانية: ما أسلفناه، وهو استغرابهم من تقييد بعض تصرفاتهم في أموالهم، وهو ما ظهر ضرره على الحالة المجتمعية.

لقد كان بإمكان مجتمع مدين أن ينطلق من مقومات أرضه وثرواته ويبنى نهضة شاملة، لكنه سار على نهج المجتمعات السابقة، عادٍ وثمرود، رغم التحذيرات من نهايتهم: ﴿وَيَقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٦].

ومع الإصرار على المُضي في طريق الإفساد والفساد، وتدمير مقومات الإصلاح وبنيته، حدث ما حدث للمجتمعات السابقة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [آل بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ] [هود: ٩٥]، وهي نتيجة طبيعية ومتوقعة لمصفوفة من الأعمال الإفسادية، في الجانب الفكري والسلوكي والاجتماعي والاقتصادي.

الخلاصة:

استعرضنا حالة المجتمعات الثلاثة السابقة، عاد وثمرود ومدين، والتي حكى لنا القرآن الكريم مقوماتها، واتضح كيف تعاملوا مع تلك المقومات من جهة، ومع دعوات الإصلاح والانتهاض من جهة أخرى، ويمكن أن نخلص من ذلك كله لنتائج مهمة، منها:

١. أن المجتمعات الثلاثة السابقة اشتركت في أنها تركت أهم مقومات ومرتكزات النهضة الشاملة، وهي: الفكرة الصالحة، التوحيد، صلاحية المعتقد.
٢. أن تلك المجتمعات تنوعت من حيث بروز الإفساد في نقطة ما، كالآتي:
- فمجتمع عاد طغى عليه - إلى جانب فساد الأفكار والتوحيد - فساد القوة، فكانوا باطشين بلا عدل ولا رحمة، إضافةً إلى العبث الاقتصادي في



جانب الإسكان وغيره.

- أما مجتمع ثمود فقد طغى عليه - إلى جانب فساد الأفكار والتوحيد - فساد الترف والدعة، وهذا جرّهم إلى اتباع المفسدين في رأيهم وقولهم، فلا يخالفونهم في شيء.

- وأما مجتمع مدين - فإلى جانب فساد التوحيد والفكر - فقد طغى عليه الفساد الاقتصادي والمالي، وفشت فيهم الخديعة في التعاملات المالية.

٣. هذا الفساد الذي انتشر في تلك المجتمعات منع نهضتها واستمراريتها، وكانت النتيجة هلاكهم كما حكى القرآن عنهم.

٤. وبالنظر في حال تلك المجتمعات ومسارها وسقوطها - من خلال عرض القرآن الكريم لها - تُستلهم العوامل والأفكار والمقومات والمركزات الكلية وربما الجزئية لبناء النهضة الشاملة، وهو ما مررنا عليه سريعاً آنفاً.

الفصل الثاني

مرتکزات القرآن الكريم

في عرضه لعوامل النهضة

أ- مرتکز أصل الاستخلاف البشري .

ب- مرتکز التوحيد .

ج- مرتکز التدافع البشري .

د- مرتکز البعد التكافلي الإنساني .

هـ- مرتکز شرائع الدين .

و- مرتکز الحاجة الإنسانية .

الفصل الثاني

مرتكزات القرآن الكريم

في عرضه لعوامل النهضة

المرتكزات لغةً: جمع مرتكز، مفعول من ارتكز، فهو مرتكز ومرتكز، والركز: غرزك شيئاً منتصباً كالرمح ونحوه، تركزه ركزاً في مركزه، وقد ركزه يركّزه ويركّزه ركزاً وركّزه: غرزه في الأرض^(١)، وأصله من ركز: الرأ والكاف والزاء، وهي أصل في إثبات شيء في شيء يذهب سُفلاً، ومنه: ركزت الرمح ركزاً، ومركز الجند: الموضع الذي ألزموه، ويقال: ارتكز الرجل على قوسه: إذا وضع سَيْتَهَا بالأرض ثم اعتمد عليها، والمُرتكز: يابس الحشيش الذي تكسر ورقه وتطاير. ومعناه: أنه ذهب منه ما ذهب وارتكز هذا، أي ثبت^(٢).

واصطلاحاً: مرتكزات القرآن الكريم -وعلى ضوء المعنى اللغوي- هي: الأسس والدعائم الثابتة التي ارتكز عليها خطاب القرآن في عرض عوامل النهضة الشاملة.

وسنستعرض بعض تلك المرتكزات -وأقول بعض-؛ لأنه لا شك أن ثمة مرتكزات وحيثيات وأسساً أخرى انطلق منها القرآن الكريم وهو يبين عوامل النهضة العامة الشاملة، فكما لن نستطيع حصر تلك العوامل في القرآن الكريم؛ لطبيعته البيانية الصالحة لكل زمان ومكان، ولاختلاف الفهوم والمطالعة والتدبر لمعانيه ومرامييه، فلن نستطيع كذلك حصر مرتكزاته وأسسهِ في عرض عوامل النهضة لذات الأسباب السابقة.

(١) ينظر: لسان العرب (٥/٣٥٥).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٢/٤٣٣).

أ- مرتكز أصل الاستخلاف البشري:

• مقصود الاستخلاف في الأرض:

خلق الله الإنسان ليستخلفه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والآية لم تذكر من الذي سيخلف، فهل هو خليفة عن مخلوقات قبله سكنت الأرض أم خليفة عن الله تعالى يقيم فيها نظامه؟ والأول لا دليل عليه في الثقافة الإسلامية وموروثها إلا ما تلقفته من موروثات الحضارات السابقة.

والثاني هو الأقرب، «ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله في أرضه، والظاهر -والله أعلم- أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته، ولكن ما معنى هذه الخلافة، وما المراد من هذا الاستخلاف، هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض، أم استخلاف البعض على غيره؟

جرت سنة الله في خلقه بأن تُعَلَّمَ أحكامه للناس وتُنَفَّذَ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أي الشرعية؛ لأن الشرع وضع إلهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية، فيصح أن يكون معنى الخلافة عامًّا في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات.

وقد نطق الوحي ودل العيان والاختيار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعًا مختلفة، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشيء محدود معين لا يتعداه.

فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحي كالملائكة فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

لَا يَفْتُرُونَ ﴿الأنبياء: ٢٠﴾، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّاقُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥-١٦٦]، إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف، لكل طائفة وظيفة محدودة، وورد في الأحاديث أن منهم الساجد دائماً، والراكع دائماً إلى يوم القيامة.

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد، الذي لا علم له ولا عمل، وحال النبات، والذي تأثير حياته في نفسه، فلو فرض أن له علماً وإرادةً فهُما لا أثر لهما في جعل عمل النبات مُبيناً لحكم الله وسننه في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها، فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية له استعداد محدود، وعلم إلهامي محدود، وعمل محدود، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته، ولا حصر لأحكامه وسننه، ولا نهاية لأعماله وتصرفاته.

وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً، كما قال في كتابه: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وخلقه جاهلاً كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب؛ لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء!

يولد الحيوان عالماً بالإلهام ما ينفعه وما يضره، وتكمل له قواه في زمن قليل، ويولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء، ثم يحس ويشعر بالتدرج البطيء بالنسبة إلى غيره من الحيوان، ويُعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له به السلطان على هذه الكائنات، فيسخرها ويذلها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة وهي التي يسمونها العقل، ولا يعقلون سرها، ولا يدركون حقيقتها وكنهها، فهي التي تغني الإنسان عن كل ما

وُهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر، والأعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو على عدوه، وغير ذلك من المواهب التي يُعطاها الحيوان بلا كسب، حتى كان للإنسان بهذه القوة من الاختراعات العجيبة ما كان، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان.

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليُظهر بها أسرار خليفته، وملَّكه الأرض وسخر له عوالمها، أعطاه أحكاماً وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حدّاً يحول دون بغي أفرادهِ وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعد على بلوغ كماله؛ لأنها مرشدة ومرتب للعقل الذي كان له تلك المزايا، فلهذا كله جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة.

لقد ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض، ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فهو يتفنن وابتدع ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل، حتى غيّر شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً، والماحل خصباً، والخراب عمراناً، والبراري بحاراً أو خلجاناً، وولد بالتلقيح أزواجاً من النبات لم تكن، فإن الله تعالى خلقه بيد الإنسان وأنشأه بكسبه، وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد، حتى ظهر التغير في خلقتها وخلائقها وأصنافها، فصار منها الكبير والصغير، ومنها الأهلي والوحشي، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخره لخدمته، كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات.

أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض، يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه؟^(١)

لقد كان مقصود الاستخلاف ظاهراً - من قبل خلق الخليفة الإنسان نفسه - وهو استصلاح الأرض وإقامة نظامه الكوني والشرعي فيها، بسعي الإنسان وعلمه وعقله الذي خلقه الله له، فحين أخبر الله ملائكته أنه سبحانه ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، بادرت الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فلقد كان مقصود الاستخلاف ظاهراً إذن، ولذلك بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب هذا، فإن «قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها، وإلا لما كان للاستفهام المشوب بالتعجب موقع، وهم علموا مراد الله ذلك من تلقيهم عنه سبحانه أو من مقتضى حقيقة الخلافة أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقائها إلى أمد، وقد دلت آيات كثيرة على أن إصلاح العالم مقصد للشارع قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ٢٢ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣]، وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]»^(٢).

واستفهام الملائكة الاستغرابي هذا مبني إما على رؤيتهم لنماذج خلق

(١) ينظر: تفسير المنار (١/ ٢١٧)، بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٣).

سابقة سكنت الأرض، وهو ما ذكرنا آنفاً تداوله بلا دليل من مصادر المسلمين المعتمدة، أو أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة وما يقتضيه من العلم غير المحدود والإرادة المطلقة، وكون هذا العلم المصّرّف للإرادة لا يحصل إلا بالتدريج، وكون عدم الإحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضي إلى سفك الدماء... ففهموا من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أن يكون ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وأن الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تعزُّ له يكون بحسب علمه، وأن العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة وذلك هو الفساد، وهو متعينٌ لازم الوقوع؛ لأن العلم المحيط لا يكون إلا لله تعالى، فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق^(١).

لقد استشعرت الملائكة من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية، إما بوصف الله لهم هذا الخليفة أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده -والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه- فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى العصيان، فإن العقل يشتمل على شاهية وغازبية وعاقلة، ومن مجموعها ومجموع بعضها تحصل تراكيب من التفكير نافعة وضارة، ثم إن القدرة التي في الجوارح تستطيع تنفيذ كل ما يخطر للعقل وقواه أن يفعله، ثم إن النطق يستطيع إظهار خلاف الواقع وترويج الباطل، فيكون من أحوال ذلك فساد كبير، ومن أحواله أيضاً صلاح عظيم، وإن طبيعة استخدام ذي القوة لقواه قاضية بأنه سيأتي بكل ما تصلح له هذه القوى خيرها وشرها، فيحصل فعل مختلط من صالح وسيئ^(٢).

(١) تفسير المنار (١/٢١٣-٢١٧) بتصرف يسير.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١/٤٠٣) بتصرف يسير.

وعلى كلٍّ، فقد رد الله على استفهام الملائكة واستغرابهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]: فكان جواباً لاستفهامهم، «أي أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وأعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض وأن فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال وأن في ذلك كله مصالح عظيمة ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب واطلاعاً على نموذج من غايات علم الله تعالى وإرادته وقدرته بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم والصنائع والفضائل والشرائع وغير ذلك»^(١).

• تحليل آية الاستخلاف:

مما سبق يمكننا أن نستخلص من هذه الآية العظيمة -وهي قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، والتي هي أصل في استخلاف الله تعالى للإنسان على الأرض - عدة أمور:

١- أن الله ﷻ أظهر إرادته للملائكة الكرام فمن وراءهم من الخلق بعد خلقه الأرض أنه سيجعل عليها خليفة.

٢- عبّر القرآن الكريم عن ذلك بلفظ ﴿جَاعِلٌ﴾، «من (جَعَلَ) الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكانا مفعولين، ومعناه: مُصَيِّرٌ في الأرض خليفة»^(٢)، وهذا قد يرجح أن هذا الحوار كان فعلاً بعد وجود آدم ﷺ؛ لعدم استخدام لفظة (خالق) التي توحى بتأخر وجوده عن الحوار، «والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق فيه معنى التقدير،

(١) المرجع السابق (١/٤٠٦).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢/٣٨٨).

وفي الجعل معنى التضمين والتصيير كإنشاء شيء من شيء، وتصيير شيء شيئاً^(١). وقد حُسِّن استخدام لفظة (جاعلٌ) من وجه آخر؛ فهي تنبئ أن الإنسان صار خليفة عن الله ﷻ، إذا ما استفدنا الفرق بين الخلق والجعل، وهو أن الجعل تصيير شيء من شيء سابق.

وبذلك يستشعر الإنسان عظم مسؤوليته في خلافة الأرض وإصلاحها وفق منهج الله الذي صيره نائباً عنه وخليفة في ذلك.

٣- أن الآية حددت النطاق المكاني لخلافة الإنسان: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، وبهذا فإنني أزعم أن محاولات الإنسان إخضاع الكواكب الأخرى ومحاولة إيجاد موضع قدم فيه، اعتبره نوعاً من العبث الذي يمارسه الإنسان لإفساد الأرض. هذا إذا ما اعتبرنا أن المقصود بالأرض في الآية هي الأرض المعهودة في الذهن وفي الذكر، لأنه سبق هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ثم بعدها مباشرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: هذه الأرض التي خلقناها لكم.

ومع ذلك فيمكن للمنازع أن يحتج بآيات تسخير الله ﷻ للإنسان ما في السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ليستدل بذلك على أن طمع الإنسان لما هو خارج حدود الأرض طمعٌ مفيد، وقد يكون من الإصلاح للأرض والخلافة التي تحمّلها، ونقاش هذا الأمر هنا لا طائل منه، والمقصود التنبيه على مجال الخلافة الإنسانية المكاني، والذي أشارت إليه الآية الكريمة.

(١) المرجع السابق (١٢/٤٧٨).

٤- حددت الآية الكريمة طبيعة مهمة الإنسان على الأرض ووصفته بأنه: ﴿خَلِيفَةٌ﴾، وسبق أن أوضحنا أن الراجح أن خلافته عن الله ﷻ، وهي خلافة كونية وشرعية، وأعني بالخلافة الكونية العمل وإثارة الأرض واستصلاحها وتقطيعها وعمارتها، إلى غير ذلك، وبالاخلافة الشرعية إقامة منهجه وشرعه في الأرض، وإصلاحها بناءً على ذلك.

وكل إثارة وإعمار للأرض لا يتسق ولا يسير مع المنهج الذي حدده الله تعالى، وهو الذي جعل الإنسان خليفة على الأرض، فهو سيرٌ في غير ما أراد وبيّن، وهو بالضرورة إفساد لا إصلاح، وإخراص لا إعمار.

٥- إن من طبيعة الخليفة الذي ينطبق عليه الوصف أن يخلف من استخلفه على وفق نظامه، فإذا ابتدع أو بدل خرج عن مفهوم الاستخلاف، وإنّ منهج الله ﷻ بما تضمنه من عقائد وشرائع وأخلاق هو النظام الذي ارتضاه لعمارة الأرض، فمن خالفه فقد خالف قانون الاستخلاف، ودخل ضمن الإفساد الذي عنته الملائكة الكرام في حوارها مع الرب ﷻ كما ذكرنا آنفاً، وستطرق له أيضاً بعد قليل.

٦- رد الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ينبئ - كما ذكرنا سابقاً - عن إدراك الملائكة لطبيعة المخلوق الجديد، وأنه قادر بما وهبه الله على الإصلاح والإفساد، وقد رجحوا أنه سيفسد في الأرض إما لكون علمه تدريجياً، أو لكونه مختاراً مع كثرة الصوارف عن الإصلاح، وذلك مما أطلعهم الله عليه.

غير أن الملائكة نبهت على فساد العام ثم ذكرت نوعاً خاصاً من الإفساد، وهو سفك الدماء، أو أنها نبهت على الإفساد الذي تكون نتيجته سفك الدماء. وعلى كل حال، فسفك الدماء هو أعظم جريمة يرتكبها الإنسان بعد الشرك

بالله، وهي نهاية فساد الإنسان واستجابته لنوازغه الإفسادية.
وأصل الإصلاح في الأرض هو إقامة توحيد الله ﷻ وحفظ النوع البشري،
والإفساد في الأرض يتضمن الإشرak بالله وسفك الدماء.
ولذلك فإن القرآن الكريم قد شدد في مواطن كثيرة منه على أهمية إقامة
التوحيد وحفظ النفس البشرية، وسنتحدث -بحول الله- في الفصل الأخير عن
قضية حفظ النوع البشري وحمايته، كما سنتحدث عن أهمية إقامة التوحيد في
المرتکز التالي من مرتکزات النهضة في القرآن الكريم، ونعاود الحديث عنه
في الفصل الأخير أيضًا.

لقد كان القرآن الكريم واضحًا أشد الوضوح بخصوص حفظ حياة الإنسان؛
لأن بها عمارة الأرض، لذلك جعل إزهاق نفس واحدة كإزهاق أنفس الناس
جميعًا، والمحافظة عليها كالمحافظة على الناس جميعًا: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا
بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، ولعلك تلاحظ ملازمة الإفساد في الأرض
لسفك الدماء والقتل في هذه الآية الكريمة أيضًا.

٧- قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]:

أي: حال كوننا نسبح بحمدك ونقدس لك، وهي تحتل ثلاثة احتمالات:
الأول: «أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما
أشاروا به، كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسدُّ منه رأيًا وأرجح عقلاً، فيشير
ثم يفوض، كما قال أهل مشورة بلقيس إذ قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ٢٣ ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٢٣-٢٣]
أي: الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]،
﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]. وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ

في بحثه معه ثم يصرح بأنه مبلغ علمه، وأن القول الفصل للأستاذ، أو هو إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وبراءة من شائبة الاعتراض، والله تعالى وإن كان يعلم براءتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير، أو لأن في نفس هذا التصريح تبركاً وعبادة، أو إعلاناً لأهل الملأ الأعلى بذلك.

الثاني: أن يكون الغرض من قولهم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] التعريض بأنهم أولى بالاستخلاف؛ لأن الجملة الاسمية دلت على الدوام وجملة ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] دلت على توقع الفساد والسفك، فكان المراد: أن استخلافه يقع منه صلاح وفساد. والذين لا يصدر منهم عصيان مراد الله هم أولى بالاستخلاف ممن يتوقع منه الفساد^(١).

الثالث: أن يكون غرضهم من ذلك: إن كان المقصود من خلق هذا الخليفة هو التسبيح والتحميد، ف﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وكأنهم ظنوا أنهم مقصرون في التسبيح والتحميد والتقديس، فذكروا ذلك وبينوه، ليسمعوا جواباً يطمئنهم بهذا الخصوص.

والتسبيح: قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه. وحمد الله تعالى: تمجيده والثناء عليه.

والتقديس: التنزيه والتطهير، وهو إما بالفعل وإما بالاعتقاد.

فمعنى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: نحن نعظمك وننزهك، والأول بالقول والعمل، والثاني باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية^(٢).

وأياً يكن الاحتمال لدافع كلامهم، فإن من المهم التنبيه على أن الملائكة

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٥) بتصرف.

(٢) ينظر: المرجع السابق.

حين قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] قد فهموا أن إصلاح الأرض يكون غايته تسبيح الله وتحميده وتقديسه، وجماع ذلك كله هو التوحيد، وأن إفساد الأرض يكون نهايته عدم التسبيح والتحميد والتقديس، وجماع ذلك كله الشرك بالله وسفك الدماء.

فإصلاح الأرض يُزهر تحميدًا وتسبيحًا وتقديسًا وتوحيدًا، ويمكن العكس: فالتسبيح والتحميد والتقديس والتوحيد يُزهر إصلاحًا للأرض. وإفساد الأرض ينتج عنه عدم التسبيح والتحميد والتقديس والتوحيد، ويمكن العكس: فانعدام التسبيح والتحميد والتقديس والتوحيد يُنتج فسادًا في الأرض وسفكًا للدماء.

٨- جواب الله ﷻ للملائكة بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]: سبق أن تقديره: أي أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وأعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض وأن فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال، وأن في ذلك كله مصالح عظيمة ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب واطلاع على نموذج من غايات علم الله تعالى وإرادته وقدرته بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم والصنائع والفضائل والشرائع وغير ذلك.

ولكن قد يقال: كيف يصلح أن يكون جوابًا عن السؤال الذي ذكره؟ فيقال: هذا مبني على احتمالات السؤال، فإن كان سؤال الملائكة للتعجب فيكون قوله: ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جوابًا له من حيث إنه قال تعالى: لا تتعجبوا من أن يكون فيهم من يفسد ويقتل؛ فإني أعلم مع هذا بأن فيهم جمعًا من الصالحين والملتقين وأنتم لا تعلمون.

وإن كان سؤال الملائكة للغم فيكون الجواب: لا تغتموا بسبب وجود

المفسدين؛ فإني أعلم أيضاً أن فيهم جمعاً من المتقين، ومن لو أقسم علي لأبرّه.

وإن كان سؤال الملائكة طلباً للحكمة فجوابه: أن مصلحتكم فيه أن تعرفوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل، بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم^(١).

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العُليا في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحياناً، وقد يسفك الدماء أحياناً، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل، خير النمو الدائم، والرقى الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف، والتطلع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا المُلْك الكبير، عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخير بمصائر الأمور: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]^(٢).

من هنا ندرك أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مع كونه جواباً متكاملاً لكل احتمالات منشأ سؤال الملائكة فإنه كذلك يحمل في طياته تكريماً لهذا المخلوق الجديد - الإنسان -، إنه تكريم حافل بهذا المخلوق المنوط به الخلافة وعمارة الأرض واستصلاحها، وتسبيح الله وتحميده وتقديسه قبل ذلك وأثناءه وبعده.

وكان يجدر بالإنسان أن يحفل بهذا التكريم والتنويه العُلوي، فيعمل بناءً على ما يحمله من شرف، ويسعى في إصلاح الأرض وعمارتها بالتوحيد،

(١) يُنظر في تفاصيل احتمالات سؤال الملائكة: تفسير الرازي (٢/ ٣٩٦).

(٢) ظلال القرآن (١/ ٥٧).

وينابذ الإفساد فيها، الإفساد بكل صورته، كالإشراك بالله وسفك الدماء.

٩- عَقَّبَ اللهُ ﷻ هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] إلى آخر الآيات في قصة بداية خلق الإنسان وتكريمه بإسجاد الملائكة له.

والذي نحاول الإشارة إليه هنا هو التعقيب بأهم خصيصة في الإنسان، وهي العلم؛ للإشعار بتلازم إصلاح الأرض والعلم، والإشعار بتنافي الإفساد وسفك الدماء مع العلم، والإشعار بأن أهم مقومات الاستخلاف هي العلم، والإشعار بأن أهم مقدمات التكريم هي العلم، ولذلك كله كانت هذه الآية الكريمة عقب آية الاستخلاف وقبل آية التكريم بأمر السجود لآدم ﷺ.

إن العلم هو أهم عوامل النهضة، النهضة التي تعني عمارة الأرض واستصلاحها، والتي تعني خلافة الأرض.

العلم الذي يوضح الحق، ويقيم العدل، ويمنع الهوى، وهو بهذا شامل للعلم التجريبي الكوني، والعلم النظري الشرعي، فالأول يُصْلِحُ الأرض، والثاني يُصْلِحُ الإنسان الذي يُصْلِحُ الأرض.

ولذلك ذكره الله ﷻ في تكليفه لعبده ونبيه داود ﷺ: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

إن هذه الآية وإن كانت بعيدة زمنًا ومكانًا عن الآية السابقة، إلا أنها شديدة اللصوق بها؛ فهي كالتكملة لها، فهذه هي وظيفة الخليفة الذي قررته الآية الأولى، الخليفة الذي تسليح بالعلم لإصلاح الأرض ومنع الإفساد فيها:

أن يحكم بالحق، ومعناه: معرفة الحق وإقامته، والإصلاح به، وهو العدل بعمومه، في العقائد، والدماء، والأخلاق، والاجتماعيات، والاقتصاديات، وغيرها من مجالات الحياة والعمارة.

عدم اتباع الهوى، وما ينتج عنه من إفساد بعمومه، في العقائد، والأخلاق، والدماء، والاجتماعيات والاقتصاديات، وغيرها.

وعدم اتباع الهوى يعني بالضرورة اتباع العلم، وفرق بين من يتبع العلم وبين من يتبع الأهواء والنزوات، فرق في المقدمات والنتائج.

والخلاصة: أن القرآن الكريم وهو يستعرض قضية استخلاف الإنسان على الأرض نوه على مجموعة من العوامل التي يمكن أن نستلهمها في بناء نهضة الإنسان وطريق إصلاح الأرض ومنع الفساد فيها.

ب- مرتكز التوحيد:

ارتبطت الحضارة الإسلامية من أول وهلة بالتوحيد، فهو من أهم سماتها، وإذا ما رجعنا للوراء كثيراً سنجد التوحيد هو قضية استخلاف الإنسان على الأرض.

فما هو التوحيد؟

القضية الكبرى التي نصب لها القرآن الدلائل المتنوعة وتناولها بطرق شتى وأساليب مختلفة هي قضية التوحيد، والمتأمل في القرآن يجدها القضية الأولى على الإطلاق؛ فلا تكاد تمر أربع آيات أو خمس إلا وذكر دليلاً على التوحيد أو أشار إليه أو استنكر على من لم يحققه.

وعلى هذا فقد ناقش القرآن هذه القضية وأدلتها مباشرة وغير مباشرة في أكثر من ألفي موضع منه، وضرب لها الأمثال الكبيرة والظاهرة.

إن التوحيد الصافي هو لبُّ القرآن، والقرآن يقرر أن من حققه فقد حقق معنى الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وحقق معاني الأمر والنهي: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وحقق النجاة في المعاد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقضية التوحيد «من كليات القرآن؛ فهو يدعو إلى توحيد الله ومعرفته بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه»^(١).

وبعيداً عن التعريفات المشتهرة لهذه القضية العظيمة، إلا أن التوحيد

(١) تفسير السعدي (ص ٩٤١).

بمفهومه الواسع هو أفراد الله ﷺ بالعبادة. ويتفرع عن هذه الجملة المختصرة مئات بل ألوف المسائل العقدية، تعود في منتهائها إلى مقصود هذه الجملة. فإفراد الله ﷺ بالعبادة يعني: أنه الإله الواحد، الذي لا يمكن أن يشابهه أحدٌ في صفة من صفاته؛ إذ لو شابهه لاستحق العبادة!

وقضية التوحيد - كما أسلفت - هي قضية الاستخلاف البشري، وهي صميم إرسال الرسل ودعوتهم، وكيف عالجوا انحرافات مجتمعاتهم المتنوعة بالتوحيد، فهي أساس الإصلاح في هذه الأرض كما أراد الله تعالى، وحين ضلت البشرية وابتعدت عن هذه القضية تشعبت بها المسالك وضاعت، وكان الدمار بعد ذلك هو النتيجة.

لقد كان كل انحراف بعد ذلك في السلوك والأخلاق والمعاملات المالية والفساد الاجتماعي وغير ذلك إنما هو نتيجة عن الانحراف عن قضية التوحيد، فالانحراف فيها هو البداية ثم تنساق البشرية إلى الظلمات. وسوف نستعرض بعض ذلك بإيجاز، ونحن نتحدث عن هذه القضية، قضية التوحيد، كأهم مرتكز من المرتكزات التي عرض القرآن الكريم من خلالها عوامل بناء النهضة في الأمم والمجتمعات.

• التوحيد هو قضية الاستخلاف؛

حين أطلع الله ﷺ ملائكته أنه: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، كانت المهمة المنوطة بهذا الخليفة متقررة وواضحة، وهي المهمة الكبيرة التي يشترك فيها مع جميع المخلوقات، إلا أنه تميز بالعقل والاختيار: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]: و«اللام في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام العلة، أي ما خلقتهم لعله إلا علة عبادتهم إياي.

والتقدير: لإرادتي أن يعبدون، ويدل على هذا التقدير قوله في جملة البيان:

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧].

فالله تعالى خلق الناس على تركيب يقتضي النظر في وجود الإله ويسوق إلى توحيده ولكن كسب الناس يجرف أعمالهم عن المَهْيَع^(١) الذي خلقوا لأجله، وأسباب تمكنهم من الانحراف كثيرة راجعة إلى تشابك الدواعي والتصرفات والآلات والموانع.

ومعنى العبادة في اللغة العربية - قبل حدوث المصطلحات الشرعية - دقيق الدلالة، وكلمات أئمة اللغة فيه خفية، والذي يُستخلص منها: أنها إظهار الخضوع للمعبود، واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكاً ذاتياً مستمراً، فالمعبود إله للعابد.

والحصر المستفاد من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قصر علة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصرٌ إضافي، وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: أي إلا ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو ردٌ للإشراك^(٢).

ولأن التوحيد قضية الاستخلاف الأولى فقد كان القرآن كثيراً ما يربط بين هذا المقصد وبين خلق الأرض أو خلق الإنسان أو خلق ما تقوم به حياة هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

(١) المَهْيَع: الطريق الواضح، ينظر: التفقية في اللغة (ص ٥٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٢٧)، بتصرف.

فقد «استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتتفنون بالآبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، والسماء: كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماءً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: كالحبوب، والثمار من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: به ترتزقون، وتقوتون وتعيشون وتفكهون، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضررون، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة ولا في الألوهية والكمال، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟! هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرّاً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك^(١).

(١) تفسير السعدي (ص ٤٤).

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]. وهذا ربط بين خلق السماوات والأرض وبين استحقاقه للعبادة ﷻ، ولذلك ختم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وفي قراءة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، بتشديد الذال^(١)؛ «للإنكار والتوبيخ والتفريع، لأن من له أدنى تذکر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه»^(٢).

ومن آيات القرآن الكريم التي ربطت بين قضية التوحيد وأصل الخلق واستصلاح الأرض قوله تعالى: ﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [١٣] إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤]: وختم الآية بقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مناسب لمطلعها المذكور بأحقية الألوهية والتوحيد الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد.

وحين ضلت البشرية عن هذه القضية تخبطت في الظلام والظلمات، فلم تُغن عنها بعض صناعاتها، ولم تستفد نهضةً شاملة في مجتمعاتها؛ لأن النهضة الشاملة مهمة الخليفة - الإنسان - حين يحمل أمانة التوحيد الكامل والخالص. ولذلك، وإذا ما عدنا إلى نموذج الحضارة الأوروبية - كمثال - فإنها تخبطت في طريق نهضتها كلياً في البداية، وجزئياً حالياً، حين حادت عن هذه الحقيقة.

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي بتخفيف الذال، وباقي السبعة بتشديدها. ينظر: المنح الإلهية في جمع

القراءات السبع (٨/٤).

(٢) فتح القدير (٢/٤٨٢).

والربط بين قضية التوحيد والنهضة والبناء الحضاري يشغل كثيرًا من المتخصصين في تاريخ الحضارات، ففي بحث كبير - كان قد أُلقي في مؤتمر إفريقية الشمالية -: «إن الذي ساعد الإسلام على الانتشار هو ما قرره الإمبراطور (بيزانطين) في القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة، وقد جرَّ هذا القرار على الدولة البيزنطية من المشاكل أعقدها، فكم أهرقت من دماء في سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية، وكم من مقاطعة ضيعها الإمبراطور إثر كل قرار كان يصدر من مجمع (نيقية)^(١) أو من غيره من المجمع.

وإن مسألة طبيعة المسيح، أو مسألة الأقانيم - التي نعتقد الآن - أي يعتقد بها النصارى بكل سكينه واطمئنان - قد سالت من أجلها دماء غزيرة، ونشأت من الجدل فيها حروب هائلة.

هذا، وقد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين المسيحي أنها غفلت عن احتياجاتها الأولية؛ فاحترمت الصوامع، ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية، وأعفتهم من الضرائب، فلم يكدر يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة في غاية الضعف، ومُلئت جوانبها بالخلافات الدينية.

أما الإسلام فهو دين جاء بخلاف كل ذلك؛ فقد اعتاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد في كل الأمور، ولم يقرر شيئًا من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب.

ولم يسُن نظام الصوامع، وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة

(١) مؤتمر دعا له الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥م، وأمر بعقد اجتماع عام يجمع كل أصحاب الآراء والأفكار الدينية تحت مظلة النصرانية للاتفاق على عقيدة واحدة يجمع الناس حولها، فاجتمع في نيقية (٢٠٤٨) أسقفًا منهم (٣٣٨) يقولون بالوهية المسيح، وانتهى ذلك المجمع بانحياز الإمبراطور إلى القول بالوهية المسيح، ولعن ونفي من يقول بالتوحيد وحرقت كتبه. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (٢/ ٥٦٩).

مستفيضة بين المسيحيين في ذلك العصر، وقضى أيضًا على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معًا.

ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حالته الطبيعية، ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية، بل قال بكل وضوح: (لا إله إلا الله)، وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الأوروبية، والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية.

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم أن تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة في الدولة البيزنطية، وأنتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع أنها لم تقلل من فساد الأخلاق، ويمكنكم أن تدركوا كيف أن سكان البلاد الآسيوية التابعة للدولة البيزنطية اعتبروا ظهور الإسلام إيذانًا بنجاتهم وسعادتهم، بينما جاء المسلمون متشبعين بروح التسامح، وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وإفريقيا ونصف أسبانيا.

وإذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الأعمال الجليلة. لقد أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفترة، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار، فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم، وإني ليخيل إليّ أنه كانت على أبصار مسيحيي القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الأشياء على حقائقها^(١). ومسألة طبيعة المسيح، أو مسألة الأقانيم التي يعتقدونها النصراني بكل سكينه واطمئنان - والتي أقرها مجمع (نيقية) - المشار إليه؛ ليست كما هو الواقع، بل الواقع أن الاختلافات والشقاق بين معتنقي هذه العقيدة نار من تحت رماد،

(١) جزء من بحث للمستشرق «رينيه ميوليه»، قدمه وألقاه في مؤتمر إفريقية الشمالية الذي عقد في باريس، نُشر بالفرنسية، ثم تُرجم في بعض الجرائد والمجلات العربية إلى اللغة العربية. ينظر: الحضارة والتمدن الإسلامي، د. عبد المتعال الجبري (ص ١٢).

ولولا تعمد صناع القرار في الدول الأوروبية وغيرها -ممن يعتنق النصرانية-، لولا تعمدهم نشر الانحلال والفساد الأخلاقي وغيره من أنواع الفساد، بل وشرعته وحمايته، حتى بات كثير من شعوب تلك المجتمعات منغمساً في وحلها، ولا يلتفت لشيء حول دينه وعقيدته، لولا ذلك لعادت فرق النصاري للقتال والتذابح، وقد سجل القرآن هذه الحالة وبيّن سببها: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والمجتمع المسلم وإن كان قد وقع فيما يناقض التوحيد الخالص الكامل، التوحيد الذي دعا إليه القرآن بأكمله، حتى إنه يمكن أن نطلق عليه كتاب التوحيد، إلا أنه لم يصل لما وصلت له أوروبا والمجتمع النصراني بشكل عام، والفارق من وجوه:

١- أن المجتمع المسلم وإن كان قد وقع في بعض ما يضاد التوحيد الخالص، فإنه وقوع في الممارسة فقط، لا في التنظير والتعديد غالباً، بخلاف النصاري الذين جعلوه عقيدة وقعدوا له.

٢- أن تلك الممارسات المضادة للتوحيد ليست من عموم المجتمع المسلم على امتداد التاريخ، بل من فئات صغيرة منه هنا وهناك، وبعضها لم يعد انتسابها للإسلام إلا في الاسم فقط، بخلاف المجتمع الأوروبي والنصراني؛ فإنه يكاد يجمع على الانحراف عن عقيدة التوحيد.

٣- أن المجتمع المسلم بطبيعته يحارب الظواهر المضادة للتوحيد، وبين الفترة والأخرى يخرج فيه من يجدد معالم التوحيد، ويلتف المجتمع المسلم حوله، بخلاف المجتمع الأوروبي والنصراني، فإنه لا يوجد من حارب أو يحارب

هذه الانحرافات عن سبيل التوحيد، ومن ضاق صدره بذلك انتقل للإسلام.

• قضية التوحيد أساس الإصلاح والنهضة:

كانت العادة أن البشرية إذا انحرفت عن قضية التوحيد وحقيقته انحدرت بعد ذلك في الفساد العريض بكل جهاته: الأخلاقي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، فحينئذ يأتي الوحي لإصلاح المسار في الأرض، ويدخل الأنبياء والرسول في مهمة إصلاح شاقة، أساسها إصلاح قضية التوحيد مع التنبيه على آثار فساد هذه القضية على مناحي الحياة.

وكما مرّ في الفصل السابق، عند الحديث عن عرض القرآن لعوامل النهضة من خلال المجتمعات السابقة، لاحظنا كيف انغمست تلك المجتمعات -التي اخترناها كنماذج- في فساد التوحيد، وما نتج عنه من إفساد أخلاقي واقتصادي واجتماعي.

وإذا ما عدنا إلى القرآن لنرى كيف عرض سير إصلاح الأنبياء لتلك المجتمعات، سنجد أنهم ركزوا أولاً على معالجة قضية التوحيد كمحور رئيس إذا صلح صلحت بقية الأعراض.

ففي فساد مجتمع عاد: كان خطاب نبهم ﷺ: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وفي خطوة متقدمة قال: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

ثم بعد ذلك تناول سعيه ومحاولة إصلاحه لقضايا الفساد الأخرى. وفي فساد مجتمع ثمود: كان خطاب نبهم ﷺ: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وفي خطوة متقدمة قال: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثم بعد ذلك تناول سعيه ومحاولة إصلاحه لقضايا الفساد الأخرى. وفي فساد مجتمع مدين: كان خطاب نبيهم ﷺ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وفي خطوة متقدمة قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

ثم بعد ذلك تناول سعيه ومحاولة إصلاحه لقضايا الفساد الأخرى. وهذه كانت طريقة كل الأنبياء مع مجتمعاتهم، فمن تتبع طريقة دعواتهم الإصلاحية والنهضوية - من خلال القرآن الكريم - يجد أنهم يبدؤون بقضية التوحيد كقضية مركزية، ويجعلون إصلاحها هو الطريق الوحيد لإصلاح بقية المنظومة الفاسدة.

• نتيجة الانحراف عن قضية التوحيد:

من خلال عرض القرآن الكريم لحالة المجتمعات والأمم السابقة، ومحاولة أنبيائهم إصلاح الانحراف الكبير في قضية التوحيد، ثم ما تلاه من انحرافات في كثير من شؤون الحياة، ومن خلال السبر التاريخي يمكن الخروج بالنتائج التالية:

١- يبدأ الانحراف أولاً في قضية التوحيد، فتزل المجتمعات والأمم إلى مهاوي الإشرak بالله تعالى، وصنع آلهة أخرى تخضع لها وتقدم صنوف العبادة، مع اختلاف أنواع تلك المصنوعات.

٢- تنتشر على إثر ذلك أنواع من المفساد الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إما بطبيعة ما تطلبه الآلهة التي صنعوها، أو لضعف الوازع والابتعاد عن هيبة التوحيد وما يثمره في حياة الإنسان.

٣- تكبر كرة الإفساد تلك، حتى يعم مناحي الحياة كلها، وإن كان يظهر بشكل أكبر في زاوية محددة، فتصبح سمة ذلك المجتمع، كما لاحظنا في مجتمع مدين -مثلاً- فقد كانت سمة المجتمع الفساد المالي والاقتصادي بشكل عام، وكذا مجتمع قوم لوط، كانت سمتهم الفساد الأخلاقي، إلا أن الانحراف بدأ من فساد قضية التوحيد.

٤- تأتي بعد ذلك مرحلة محاولة الإصلاح الخاص لقضية التوحيد، والشامل لكل قضايا الفساد، وهذه كانت مهمة الوحي والأنبياء، ثم صارت مهمة المصلحين من بعدهم في كل مجتمع، كلٌ بحسب تخصصه ومجاله، وبحسب طاقته ووسعه.

٥- لا شك أن مرحلة محاولة الإصلاح تطول، وهي مرحلة تدريجية كما لاحظنا في محاولة إصلاح المجتمعات الثلاثة المختارة كنماذج، فيبدؤون بمحاولة إصلاح قضية التوحيد، ويستخدمون الترغيب ثم التهيب، ثم ينتقلون لمحاولة إصلاح القضايا الفاسدة الأخرى، من خلال عرضها كمشكلة تابعة لمشكلة فساد التوحيد.

٦- تعقب ذلك مرحلة ما يشبه اليأس من حالة الفساد التي وصل إليها المجتمع، وقد عبر عنها القرآن بذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ

وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿يوسف: ١١٠﴾، ويستمر ذلك: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَّ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

٧- قد تصلح بعض المجتمعات، فتنفع بذلك، وتصل إلى إعمار الأرض وفق ما أَرَادَهُ اللهُ، ومن ذلك على سبيل المثال قوم نبي الله يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]: فاستثنى الله قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منه، وأخبر خلقه أنه نفعهم إيمانهم خاصة من بين سائر الأمم غيرهم^(١).

وفي التعبير بجملة: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ما يُشعر بصلاح مجتمعهم وصلاح أرضهم، ليكون التمتع شاملاً، كما أن جملة: ﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ تدل على أن ذلك الصلاح وما عقبه من تمتع كان مبنياً على الإيمان، وأعلاه التوحيد، فلا إيمان بلا توحيد.

٨- تكون نهاية المجتمعات التي لا تستجيب للإصلاح الشامل -وأوله التوحيد- هي الهلاك، إما بعد نذارة النبي، أو الهلاك الطبيعي نتيجة لتراكم عملية الفساد والإفساد، فيفسد الشرك وسفك الدماء -الذي خشيته الملائكة- فيتآكل المجتمع وينقسم ويصارع نفسه، وربما تسلط عليه عدو خارجي، وهكذا يكتب المجتمع نهايته بيده إذ لم يبادر لعملية الإصلاح والنهضة الشاملة، مبتدئاً بالأهم فالمهم.

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٩١).

ج- مرتكز التدافع البشري:

• مقصود التدافع البشري:

التدافع البشري بين الحق والباطل، والصحيح والفساد، والخير والشر، واحدٌ من أهم مرتكزات البناء الحضاري والنهضة الشاملة وإصلاح الأرض والقيام بأمر الله بعمارتها، «إن الإنسان الواحد لا يمكنه أن يعيش وحده؛ لأنه ما لم يخبز هذا لذاك ولا يطحن ذاك لهذا، ولا يبني هذا لذاك، ولا ينسج ذاك لهذا، لا تتم مصلحة الإنسان الواحد؛ فهي لا تتم إلا عند اجتماع جمع في موضع واحد، فلهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، ثم إن الاجتماع يسبب المنازعة المفضية إلى المخاصمة أولاً، والمقاتلة ثانياً»^(١)، وحين ذاك لا بد من نظام يُصلح تلك الحالة ومصلحين يقومون بعملية تصحيح المسار، وهو التدافع.

والتدافع: تفاعل من (دفع)، وكل مخلوق -ومنه الإنسان- يدفع عن نفسه الفساد وأسبابه، ويستجلب لنفسه الصلاح وأسبابه، والمقصود بالفساد والصلاح هنا بحسب ما يراه كذلك لا بحسب حقيقته، وهذا واحد من أسباب التدافع كذلك.

والتدافع بمفهومه هذا حالة كونية لا تختص بالإنسان، بل كل مخلوق يمارس هذا التدافع شعوراً وبلا شعور.

ولو لم يكن ذلك التدافع لتحولت الأرض إلى فساد عام طاماً، ولاستحالت الحياة عليها بالكلية، فهو ﷺ يدفع الناس بعضهم ببعض لكي لا تفسد الأرض، قال الحق تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

(١) تفسير الرازي (٦/٥١٨).

فالآية ذكرت الدافع، وهو ﴿اللَّهُ﴾، بما ركبه في الإنسان من عقل وعلم يسعى به لدفع الضر والفساد عنه.

وذكرت المدفوع، وهو ﴿بَعْضُهُمْ﴾، إشارة إلى بعض الناس، وهم المدفوعون، وهم المفسدون، على اعتبار أن الدفع خاص بالإنسان في الآية، وأن المقصود فقط من الآية تدافع الخير والشر، والفساد والصلاح، الكوني والشرعي.

وذكرت الآية: المدفوع به، وهو ﴿بِبَعْضٍ﴾، وهم المصلحون على الاعتبار السابق.

ولم تذكر الآية المدفوع عنه؛ ل يبقى عامًّا مطلقًا، فيشمل كل فساد ديني وديني، كوني وشرعي.

و«مضمون هذه الآية -على وجازتها- عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاوبها.

ومعنى الآية: أنه لولا وقوع دفع بعض الناس بعضًا آخر بتكوين الله وإيداعه قوة الدفع وبواعثه في الدافع لفسدت الأرض، أي من على الأرض، واختل نظام ما عليها؛ ذلك أن الله تعالى لما خلق الموجودات التي على الأرض من أجناس وأنواع وأصناف، خلقها قابلة للاضمحلال، وأودع في أفرادها سننًا دلت على أن مراد الله بقاءها إلى أمد أرواده، ولذلك نجد قانون الخلقية منبثًا في جميع أنواع الموجودات، فما من نوع إلا وفي أفرادها قوة إيجاد أمثالها؛ لتكون تلك الأمثال أخلافًا عن الأفراد عند اضمحلالها، وهذه القوة هي المعبر عنها بالتناسل في الحيوان، والبذر في النبات، والنضح في المعادن، والتولد في العناصر الكيماوية.

وجود هذه القوة في جميع الموجودات أول دليل على أن مُوجدها قد أراد بقاء الأنواع، كما أراد اضمحلال الأفراد عند آجال معينة؛ لاختلال أو انعدام صلاحيتها، ونعلم من هذا أن الله خالق هذه الأكوان لا يحب فسادها، بل يريد صلاحها واستمرارها، كما قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ثم إن الله تعالى كما أودع في الأفراد قوة بها بقاء الأنواع، أودع في الأفراد أيضاً قوى بها بقاء تلك الأفراد بقدر الطاقة، وهي قوى تطلب الملائم ودفع المنافي، أو تطلب البقاء وكرهية الهلاك، ولذلك أودع في جميع الكائنات إدراكات تنساق بها، بدون تأمل أو بتأمل، إلى ما فيه صلاحها وبقاؤها، كانسحاق الوليد لالتهم الشدي، وأطفال الحيوان إلى الأثداء والمراعي، ثم تتوسع هذه الإدراكات، فيتفرع عنها كل ما فيه جلب النافع الملائم عن بصيرة واعتياد، ويسمى ذلك بالقوة الشاهية.

وأودع أيضاً في جميع الكائنات إدراكات تندفع بها إلى الذب عن أنفسها، ودفع العوادي عنها عن غير بصيرة، كتعريض اليد بين الهاجم وبين الوجه، وتعريض البقرة رأسها بمجرد الشعور بما يهجم عليها، من غير تأمل في تفوق قوة الهاجم على قوة المدافع، ثم تتوسع هاته الإدراكات فتتفرع إلى كل ما فيه دفع المنافر من ابتداء بإهلاك من يُتوقع منه الضرر، ومن طلب الكِنِّ، واتخاذ السلاح، ومقاومة العدو عند توقع الهلاك ولو بآخر ما في القوة وهو القوة الغاضبة، ولهذا تزيد قوة المدافعة اشتداداً عند زيادة توقع الأخطار حتى في الحيوان.

وما جعله الله في كل أنواع الموجودات من أسباب الأذى لمريد السوء به أدل دليل على أن الله خلقها لإرادة بقائها، وقد عوض الإنسان -عما وهبه إلى

الحيوان- العقلَ والفكرةَ في التحيُّل على النجاة ممن يريد به ضرراً، وعلى إيقاع الضَّر بمن يريده به قبل أن يقصده به، وهو المعبَّر عنه بالاستعداد.

ثم إنه تعالى جعل لكل نوع من الأنواع، أو فرد من الأفراد خصائص فيها منافع لغيره ولنفسه؛ ليحرص كلُّ على إبقاء الآخر، فهذا ناموس عام، وجعل الإنسان بما أودعه من العقل هو المهيمن على بقية الأنواع، وجعل له العلم بما في الأنواع من الخصائص، وبما في أفراد نوعه من الفوائد.

فخلق الله تعالى أسباب الدفاع بمنزلة دفع من الله، يدفع مريد الضَّر بوسائل يستعملها المراد إضراره، ولولا هذه الوسائل -التي خولها الله تعالى أفراد الأنواع- لاشتد طمع القوي في إهلاك الضعيف، ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره، فابتزها منه، ولأفرطت أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب النافع الملائم لغيرها، مما هو له، ولتناسى صاحب الحاجة حين الاحتياج ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضاً.

وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره، وكل قوي على ضعيفه، فيهلك القويُّ الضعيفَ، ويهلك الأقوى القويَّ، وتذهب الأفراد تباعاً والأنواع كذلك، حتى لا يبقى إلا أقوى الأفراد من أقوى الأنواع، وذلك شيء قليل، حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه، وكان يجدها في غيره من أفراد نوعه، كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض، أو من أنواع أخرى، كحاجة الإنسان إلى البقرة، فيذهب هدرًا.

ولما كان نوع الإنسان هو المهيمن على بقية موجودات الأرض وهو الذي تظهر في أفراد جميع التطورات والمساعي، خصته الآية بالكلام فقالت: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ﴾ [البقرة: ٢٥١]:

إذ جعل الله في الإنسان القوة الشاهية لبقاءه وبقاء نوعه، وجعل فيه القوة الغاضبة لرد المفرط في طلب النافع لنفسه، وفي ذلك استبقاء بقية الأنواع؛ لأن الإنسان يذبُّ عنها لما في بقائها من منافع له.

وبهذا الدفاع حصلت سلامة القوي، وهو ظاهر، وسلامة الضعيف أيضًا؛ لأن القوي إذا وجد التعب والمكدرات في جلب النافع سئم ذلك، واقتصر على ما تدعو إليه الضرورة.

وإنما كان الحاصل هو الفساد، لولا الدفاع، دون الصلاح؛ لأن الفساد كثيرًا ما تندفع إليه القوة الشاهية بما يوجد في أكثر المفاسد من اللذات العاجلة القصيرة الزمن، ولأن في كثير من النفوس أو أكثرها الميل إلى مفاسد كثيرة؛ لأن طبع النفوس الشريرة ألا تراعي مضرة غيرها، بخلاف النفوس الصالحة، فالنفوس الشريرة أعمد إلى انتهاك حرمت غيرها، ولأن الأعمال الفاسدة أسرع في حصول آثارها وانتشارها، فالقليل منها يأتي على الكثير من الصالحات، فلا جرم لولا دفاع الناس بأن يدافع صالحهم المفسدين، لأسرع ذلك في فساد حالهم، ولعم الفساد أمورهم في أسرع وقت.

وأعظم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غضب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل، ولأجلها تتألف العصبيات والدعوات إلى الحق، والإنحاء على الظالمين، وهزم الكافرين.

ثم إن دفاع الناس بعضهم بعضًا يصد المفسد عن محاولة الفساد، ونفس شعور المفسد بتأهب غيره لدفاعه يصدّه عن اقتحام مفاسد جمّة.

ومعنى فساد الأرض: إما فساد الجامعة البشرية كما دل عليه تعليق الدفاع بالناس، أي لفسد أهل الأرض، وإما فساد جميع ما يقبل الفساد فيكون التقدير:

ولو لا دفاع الله الناس بعضهم ببعض، وبقية الموجودات بعضها ببعض، لفسدت الأرض، أي: مَنْ على الأرض، ولفسد الناس.

والآية مسوقةً مساق الامتنان، فلذلك قال تعالى: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾؛ لأن الإنسان لا يحب فساد الأرض؛ إذ في فسادها -بمعنى فساد ما عليها- اختلال نظامه وذهاب أسباب سعادته، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]: فهو استدراك مما تضمنته (لولا) من تقدير انتفاء الدفاع، أي: لو كان انتفاء الدفاع موجودًا لفسدت الأرض، وعلق الفضل بالعالمين كلهم لأن هذه المنة لا تختص^(١) بالإنسان فقط، بل بجميع المخلوقات.

• تحليل سياق آيات التدافع:

من المهم أن ألفت عنايتك إلى أن هذه الآية الكريمة -وهي تنص على أهمية المدافعة حتى لا تفسد الأرض- قد جاءت خاتمة جزئين قرآنيين كاملين، تحدّثا عن مئات الأحكام الشرعية والكونية، من بداية سورة البقرة إلى هذه الآية التي هي ختام الجزء الثاني.

فقد تحدثت السورة عن طوائف الناس: المؤمن والكافر والمنافق، وبينت خصائص كل طائفة، وهي وإن كانت تتحدث عن مجتمع المدينة إلا أنه صورة مصغرة لحال كل مجتمع.

ثم تحدثت عن قصة البداية، بداية الإنسان واستخلافه، وعن مجتمع اليهود بعد ذلك، وما مارسوه مع أنبيائهم من طرق ملتوية، وعن أسئلتهم الكثيرة بلا طائل، عن المواجهة الدائمة بينهم وبين أنبيائهم، وكشف دسائسهم وحيلهم، وتُوجّز الجزء الأول بقصة إبراهيم عليه السلام وما أسسه من قواعد الملة الحنيفة معنويًا،

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٠)، بتصرف يسير.

وقواعد البيت العتيق حسيًا.

ثم ذكرت السورة حادثة تحويل القبلة وما أشاعه السفهاء حينها، وأوصت السورة بالصبر، وعدم التجزع عند وقوع المصيبة، سواء كانت كونية أو بسبب شرعي، وانتقلت منها لبيان حالة وحكم من يكتم العلم، ثم ذكرت التوحيد وعقّبه بالتذكير بخلق الأرض وتسخير كل ما فيه، إلى أن وصلت إلى حزام السورة الذهبي الكبير، وهو آية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فها هي السورة هنا توضح شمولية «الإسلام» كنظام عام، ومحرك كبير لإصلاح الأرض بشمولية تامة، إذ لا يمكن لأحد أن يُقرّمه بحدٍّ أو ينظر إليه من جهةٍ واحدة.

فهذه الحياة بكل ما فيها من تفاصيل واجتماع، وسلم وحرب، واقتصاد وأخلاق، وعقائد وقيم، وجدّ وهزل، كلها قد استوعبها الإسلام! ولا يمكن أن تقصره على شيء منها فقط.

فالآية (١٧٧) من سورة البقرة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ...﴾ قد أبانت عن هذا الشمول، وصدّعت أولئك الذين يقصّرون الإسلام على طقسٍ أو مجالٍ ما، وقد يرون غيره ليس إسلامًا؛ لضعف عقولهم عن إدراك سعة دائرة اهتمامات الإسلام ومجالاته.

ولقد جاءت حياة النبي ﷺ، وسيرته، وأيامه، ومعاملاته، ترجمة حيّة لهذه

الآية العظيمة وللإسلام عامًّا.

وبالمناسبة، فإن هذه الآية كالحزام الذهبي على سورة البقرة كلها، فما قبلها كالمقدمة لها، وما بعدها حتى نهاية السورة ما هو إلا بسط وشرح لما طوَّته هذه الآية العظيمة.

تأمل في كل كلمة من هذه الآية، وفي كل جملة منها، وفي كل مقصدٍ من مقاصدها، ستجد دستورًا عظيمًا ونبلاً كبيرًا، ستجد الإسلام.

ثم بعد هذا الحزام تفرعتِ السورة لبيان جملة كبيرة من أحكام القصاص والقتل والقتال والصيام والحج، وأقسام الناس بناءً على ذلك، وغاصت السورة في بيان دقائق تفاصيل أحكام الأسرة، إلى أن وصلت إلى أحكام الرضاع، والطلاق، والعِدَّة، وغير ذلك من التفاصيل، وكلها -كما ترى- تفاصيل مدنية عملية معاملتية، ثم هاهي السورة تعود لتذكر جملة من مخادعة ومخاذلة اليهود، وعبادة^(١) أسلَّتهم وأمنياتهم، فهم يتمنون القتال دفاعًا عن أبنائهم وأنفسهم، فلما فرض عليهم تنكصوا وتخوفوا، واختلقوا الأعذار للهروب من استحقاقاته، كل ذلك لتصل السورة إلى بيان واحد من أهم أسرار الخلق والكون ودوام الحياة، ألا وهي سُنَّة المدافعة، مدافعة الباطل بالحق، ودفع الحق بالباطل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكأن الآية تقول: إن كل تلك الأحداث والأحكام التي رأيت، وينبغي أن تلتزمها، ما هي إلا مدافعة، يدفع الله ﷻ بعض خلقه للقيام بها وباستحقاقاتها حتى لا تفسد الأرض وتنتهي الحياة، إذ لو لم يكن ذلك لعلت صولة الباطل، وخيم جاثمًا على الأرض كلها فتبطل الحياة وتتوقف، فالفساد موقف للحياة،

(١) العبيط: الأهوج، كالمعْبُوط، ومضدُّه: العَبَاطَةُ. ينظر: تاج العروس (١٩ / ٤٦٩).

ومن أبرز مظاهر الفساد فساد التوحيد، وانتشار الشرك، وقد تقدم بيانه في ما سبق، وعرضت السورة كثيراً من تفاصيله ومظاهره ومضاداته قبل أن تصل إلى هذه الآية، ثم يليه القتل وسفك الدماء، ولذلك نصّت السورة على أن القتل بالباطل مفسد للحياة وموقف لنموها، ولا حياة بوجود سفك الدماء، وإقامة العدل فيه واحد من مظاهر الحياة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

نعم، لولا سنة المدافعة لفسدت الأرض كلها، وأول ما يفسد نظام التوحيد والدين، الذي يدفع الناس بِنُظمه وأحكامه لإصلاح الأرض، ونعني بذلك التوحيد الصافي، والدين الحق للذين لم تعبت بهما أيادي الفساد والتحريف والطمس والتميع.

ولذلك نبّهت آية المدافعة الأخرى على ذلك، ونصت على هذه الأمور: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فلولا المدافعة لهدمت هذه الأماكن التي من مهمتها تعزيز ثقافة إصلاح الأرض ومحاربة الفساد فيها.

والصوامع والبيع والصلوات، هي أماكن عبادة اليهود والنصارى والصابئين على اختلاف تحديد كل مختص منها -على قول-، وفي قول آخر أن جميعها مرادفة للمسجد، وهو المقصود بها جميعاً^(١).

ولا يعنينا ذلك كله، ولا الاختلاف في صلاحيتها -على القول الأول- لذكر الله تعالى، رغم تحريف أصحابها لكلام الله وشرعه. والذي يهمنا هنا

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٠).

هو كيف أن هذه الأماكن -إن قصد مواقعها- تحت على الإصلاح وتنفر من الفساد، ولذلك تكون حمايتها واحداً من أهداف التدافع.

وقد يكون المعنى أن المقصود بها نفس الصلوات والذكر، لا أماكنها؛ فمتى ما تحققت إقامة الصلاة وذكر الله تحقق صلاح الأرض وزال فسادها، فتكون نظير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿أَتُلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فذكر الله وإقامة الصلاح يحثان على الصلاح والإصلاح الذي من صورته التوحيد وعدم الإشراك، وينهيان عن الفساد والإفساد الذي من صورته العبث بالمال والغش فيه، والفحشاء والمنكر.

وفي ختام الكلام عن في كون سنة التدافع من المرتكزات التي أشار إليها القرآن الكريم في عرض عوامل العمران والنهضة، أنه لثلاثة أمور:

١- أن القرآن مليء بالآيات التي أشارت لسنة التدافع في مجالات شتى، وإن كانت الآيتان اللتان أوردتهما أصرحها في التدافع العام، ومن هذه الآيات -على سبيل المثال:-

سورة (الكافرون): ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]: فهذا تدافع بياني نظري في أهم ما يصلح الدنيا وينفي عنها الفساد، وهو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ٢٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ [البقرة: ٢٠٦]: فهذا دفعٌ من الناصحين

المؤمنين لمن يسعى لفساد الأرض وإهلاك الحرث والنسل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [١١٦] وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [هود: ١١٦-١١٧]: وهذا تدافع بين الذين ينهون عن الفساد وبين المفسدين، وتشير الآية إلى أنه متى ما بقي هناك من يصلح فلن تهلك الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]: كذلك هذا خطاب من المصلحين لمن

يسعى لفساد الأرض وخرابها، وهو تدافع صريح.

إلى غيرها من الآيات القرآنية الكثيرة التي لا تكاد تذكر المفسدين المجرمين إلا وتنبه على وجود مصلحين يدافعونهم ليبقى في الأرض صلاحٌ تستمر معه الحياة.

٢- أن التدافع شامل عام، فلا يقتصر على مجال دون آخر، فهو تدافع اجتماعي، وإعلامي، واقتصادي، وسياسي، وعسكري، وثقافي، إلى غير ذلك، وإذا رجعنا لآيات القرآن في هذا الصدد فسنجدها نبهت أو أشارت إلى ذلك.

٣- أن هذه الآيات تناولت بشكل رئيس التدافع بالقتال؛ لكونه أعلى درجات التدافع، وكل تدافع آخر فإنما هو إما مقدمة للتدافع العسكري القتالي أو أثر له.

ولذلك رأينا أن كلا آيتي التدافع الصريح في القرآن، كانت خاتمة للأمر أو الإذن بالقتال، ففي الآية الأولى ذكر قتال بني إسرائيل وصبر القليل منهم حتى

انتصروا: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

أما الآية الأخرى فقد جاءت بعد الإذن للمؤمنين بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]: فقد كان المسلمون بداية ممنوعين من القتال، حتى قويت شوكتهم، وكبرت جماعتهم، واشتدَّ عودهم أُذِنَ لَهُم بِالْقِتَالِ دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَرَدَّ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ عَنْهُمْ، وَلِتُمْكِينِهِمْ فِي الْأَرْضِ، ذَلِكَ التُّمْكِينُ الَّذِي لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِوَسَائِلٍ عَدِيدَةٍ، مِنْ أَهْمِهَا الْقِتَالُ لِلْحَقِّ وَالْإِصْلَاحِ، وَلِذَلِكَ عَقِبَتِ الْآيَةُ بِالْهَدَفِ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فهذا هو الهدف العام للتدافع، والهدف الخاص للقتال، إقامة الدين، وعلى رأسه عموده الصلاة التي فيها التوحيد والتسبيح، وإيتاء الزكاة، وهو مبدأ التكافل الاجتماعي وعون الفقراء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى لا يشيع الفساد ويكثر ويشدد.

إن مبدأ التدافع كما مرَّ ليس حتمًا كونيًّا فقط -وقد لا يختص بالإنسان فقط على هذه الأرض- لكنه كذلك حتم شرعي دلت عليه الآيات الكريمة التي مرت، ومما دل على حتميته أيضًا:

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]: فهذا نوع من التدافع أيضًا ووسيلة من وسائله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢ - ٧٣]: فالمؤمنون المصلحون يوالي بعضهم بعضًا ويدفع بعضهم عن بعض وينصر بعضهم بعضًا؛ ابتغاء الإصلاح ومحاربة الفساد والإفساد والمفسدين. والكافرون يفعلون ذلك ابتغاء الفساد ومحاربة للصالح والإصلاح والمصلحين.

وما لم يفعل المؤمنون المصلحون ذلك في مواجهة الكافرين المفسدين فإن النتيجة هي الفتنة والفساد الكبير في الأرض.

د- مرتکز البعد التكافلي الإنساني:

• محورية التكافل الاجتماعي في القرآن:

الدعوة إلى التكافل الإنساني العام سمة بارزة في القرآن الكريم، وقد جعل القرآن الكريم تلك الدعوة مرتکزًا لكثير من المفاهيم، ومنها البناء الحضاري وإعمار الأرض ونهضة المجتمعات والأمم.

و«يُقصد بالتكافل الاجتماعي: أن يكون أفراد المجتمع مشاركين في المحافظة على المصالح العامة والخاصة، ودفع المفسد والأضرار المادية والمعنوية، بحيث يشعر كل فرد فيه أنه إلى جانب الحقوق التي له فإن عليه واجبات للآخرين، وخاصة الذين ليس باستطاعتهم أن يحققوا حاجاتهم الخاصة، وذلك بإيصال المنافع إليهم ودفع الأضرار عنهم.

لذا فإن التكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مقصودًا على النفع المادي، وإن كان ذلك ركنًا أساسيًا فيه، بل يتجاوز به إلى جميع حاجات المجتمع أفرادًا وجماعات، مادية كانت تلك الحاجة أو معنوية أو فكرية على أوسع مدى لهذه المفاهيم، فهي بذلك تتضمن جميع الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات داخل الأمة»^(١).

لكننا هاهنا سوف نقصر الحديث على الركن الأساس للتكافل الاجتماعي، وهو النفع المادي فحسب.

وحين يعرض القرآن الكريم الإسلام بقسميه البارزين: العبادات والمعاملات، فإنه يشدد على مرتکز التكافل الاجتماعي كقيمة كبيرة تنتمي إلى القسمين؛ فهي من صميم العبادات، وهي كذلك من أكبر المعاملات التي تُظهر روح

(١) التكافل الاجتماعي، كتاب على الموسوعة الشاملة، ونسبته لموقع وزارة الأوقاف السعودية بدون ذكر بياناته (ص ٢).

الإسلام وعدالته الكبيرة.

والآية الكريمة التي تحدثنا عنها سابقاً، وهي قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، اختصرت

هذا المعنى من جهة، وبينته بجلاء من جهة أخرى، وهذه الآية - حتى ندرك أبعادها - لها ارتباط بآية وردت قبلها، ويفصل بينهما خمس وثلاثون آية، وهي قول الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]: فإن أهل الكتاب رأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البر باستقبالهم قبلتهم، فلما تحولوا عنها لمزوهم بأنهم أضاعوا أمراً من أمور البر... فجاءت الآية لتقول: أعرضوا عن تهويل الواهنيين، وهبوا أن قبلة الصلاة تغيرت أو كانت الصلاة بلا قبلة أصلاً، فهل ذلك الأمر له أثر في تركية النفوس واتصافها بالبر؟! (١).

لقد كانت نظرة أهل الكتاب قاصرة، قاصرة من حيث المضمون والشكل والصفة؛

أما المضمون: فإن الأمر بتولية الوجه إلى مكة ليس بشرياً، بل هو أمرٌ إلهي، فكيف يجعلونه من غير البر!

وأما الشكل: فإنهم جعلوا البر مجرد تولية الوجه إلى جهة ما!

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ١٢٨).

وأما الصفة: فإن المعترضين غيرُ ذي صفة؛ فمن خولهم تحديد ما هو البرُّ وما هو غير البر؟!

والقرآن، سواء كان يرد عليهم، أو يؤسس قاعدةً وحكمًا، فإنه أوضح مقاييس البر، الذي هو أعلى الإحسان وأكمل الصلاح، وواحد من أهم وسائل الإصلاح.

فليس البر تلك الحركة البدنية بالتوجه نحو جهة، قِبَل المشرق والمغرب فقط، لكن البر منظومة كاملة، تشمل أصنافاً من الاعتقادات والأعمال والمبادرات.

وهنا يستعرض القرآن الكريم أهم محددات البر، وقبل أن نستعرض تلك المحددات ننبه على ما أشرنا له لمحا - وهو متعلق بصميم هذا المتركز - من حيث كون التكافل الاجتماعي مرتكزاً من مرتكزات القرآن الكريم عند تناول عوامل النهضة، فالبر: «سعة الإحسان، وشدة المروضة، والخير الكامل الشامل، ولذلك تُوصف به الأفعال القوية الإحسان فيقال: بر الوالدين، وبر الحج، وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»^(١).

ثم إن هذا البر المفضي لمجموعة من المصالح المجتمعية العامة، قد شمل على الاعتقادات القلبية الكبرى، لتواطئ أعمال الجوارح عمل القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولا أدل على صدق الاعتقادات من البذل والعطاء في سبيلها، ولذلك كان الإيمان هو أكبر حافز على العمل والإنفاق، مع جبلة النفس على حب المال والحرص على الاحتفاظ به واكتنازه، ولذلك كان التكافل هنا عن حبٍّ للمال:

(١) المرجع السابق.

﴿وَعَاتَى أَلْمَالِ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] لا عن ترفٍ واستغناء؛ لبيان أهمية التكافل مع هذه الحالة من حبه، فكيف إنفاقهم في حالة عدم تعلق قلوبهم به؟! وحبهم له قد يكون سببه نفاسته أو ندرته وقلته، والإنفاق في الحاليين دليل صفاء ونقاء كبيرين، واستشعار بأهمية هذا السلوك في تزكية نفوس المنفقين وإصلاح نفوس وأحوال المنفق عليهم.

ثم ذهبَت الآية الكريمة تذكر مسارات الإنفاق، ودوائر التكافل، وهي: الدائرة الأولى: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ١٧٧]: وهم أصحاب قرابة المعطي المبادر، وأهمية الإحسان إليهم تكمن في أن مواساتهم تكسبه محبتهم إياه والتتامهم، وهذا التَّام القبائل الذي أَرَادَهُ اللهُ بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ [الحُجُرَات: ١٣]، فليس مقيَّدًا بوصف فقرهم، كما فسر به بعض المفسرين، بل ذلك شامل للهدية لأغنيائهم، وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم؛ إذ المقصود هو التحاب^(١).

الدائرة الثانية: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ [البقرة: ١٧٧]: وهم مظنة الضعف؛ لظهور أن المراد هو اليتيم المحتاج حاجة دون الفقر، وإنما هو فاقد ما كان ينيله أبوه من رفاهية عيش، فإيتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم^(٢).

واليتيم مشروع نابغة ومصلح اجتماعي كبير في حين امتدت له يد الرعاية حتى يشتد على سوقه، وقد رأينا كيف أن كثيرًا من اليتامى غيَّروا مجرى التاريخ في مجالات عديدة، حين كان المجتمع مساعدًا لهم على تجاوز عقبة غياب عطف الأب ورعايته.

واليتامى - في المقابل - أدوات هدم كبيرة إن ضاعوا في ظلام الحاجة

(١) ينظر: المرجع السابق (٢/ ١٣١).

(٢) المرجع السابق.

لمقومات الحياة؛ فإنهم يبحثون عنها ولو بالتضحية بالقيم والأخلاق والسكينة العامة، هذا إن استطاعوا الوصول إلى تلك المفاهيم واكتسابها، وكيف يصل إليها من قص جناحه؟! والأب العطوف الحاني هو الجناح.

الدائرة الثالثة: ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ [البقرة: ١٧٧]: والمسكنة: هي الذل، مشتقة من السكون، والمسكين: الفقير الذي أذله الفقر، وقد اتفق أئمة اللغة على أن المسكين غير الفقير، فهو أقل فقراً من الفقير، وقيل هو أشد فقراً، وقد يُطلق أحدهما في موضع الآخر إذا لم يجتمعا^(١).

الدائرة الرابعة: ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧]: ابن السبيل هو الغريب، أو الضيف في البوادي إذ لم يكن في القبائل نزل أو خانات أو فنادق، ولم يكن السائر يستصحب معه المال وإنما يحمل زاد يومه، ولذلك كان حق الضيافة فرضاً على المسلمين، أي في البوادي ونحوها^(٢).

وابن السبيل مستوحش في غربته، وإيتاؤه والإحسان إليه وإصلاح شأنه يزيل ذلك الاستيحاش، ويُظهر تآلف المجتمع وتماسكه، وهذا من مفردات إصلاح المجتمع.

والغريب في الغالب لا يهتم لنظرة المجتمع الجديد له، فالرقابة المجتمعية ضعيفة؛ لأنه بعيدٌ عن قومه وقبيلته التي تلومه وتوجهه بسلوكها العام، لذلك فإن تركه نهياً للحاجة والضعف قد يفسده، ويجعل منه عنصر إفساد في محيط لا يخشى لومه ولا عتب ذويه.

الدائرة الخامسة: ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]: وهم الفقراء، كُنِيَ عنهم بالسائِلين لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه من أن يسأل الناس لغير حاجة غالباً، فالسؤال علامة الحاجة غالباً.

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

الدائرة السادسة: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]: والمراد فداء الأسرى وعتق العبيد^(١). وفي بقاء الأسرى رهن الأسر فساد على صلاحهم في أنفسهم: الصلاح النفسي والصلاح الفكري والبدني، وفساد على أسرهم وذويهم بغياب عائلهم وراعيهم.

وأما العبيد، فإن الإسلام -كمنظومة متكاملة- أول من تشوف لعتقهم، وحث على ذلك، وجعله مقصداً سعى له بأكثر من وسيلة.

والعبودية منافية لتمام الصلاح المعنوي، والواقع فيها كالأسير، والعبد يزيد عليه بأن نفعه المجتمعي حال العبودية يكاد يكون منعدماً، لذا -ومن أجل المساهمة في الإصلاح العام والنهضة الشاملة- فقد حث القرآن على عتق العبيد والسعي في ذلك، وجعله من علامات البر والإحسان.

ثم إن الآية قد ذكرت مجموعة من الأعمال الأخرى، لكنني هنا أنبه على أن الآية ذكرت بعد ذلك إيتاء الزكاة: ﴿وَعَاتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذا مشعرٌ بأن الإنفاق السابق والتكافل في المسارات والدوائر السابقة قدرٌ زائدٌ على الزكاة الواجبة.

إن القرآن حينما يتحدث عن التكافل الاجتماعي في الإنفاق خاصةً، فهو لا يعني الفتات أو ما عافته النفس وعابته، أو الذي بقي بلا مماثل لبيتاع، أو كاد أن يفسد أو تنتهي صلاحيته، فيقال: تخلصوا منه، أو: أعطوه لمحتاجيه!

بل إن عدالة القرآن سامية في كل شيء، فيدعو للتكافل مما هو «البر» بكل ما تحمله الكلمة من معاني الجودة: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، مما تحبون! كما قال في هذه الآية: ﴿وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، وحذر من الضد بوضوح: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا

(١) ينظر: المرجع السابق.

أَلْحَيْتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾؛ لأنكم لن تأخذوه لو كنتم في الجهة المقابلة ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: فبسبب احتياجكم تغضون الطرف عن رداءته.

بل إنه يدعو للإنفاق مما يحب صراحة كما هنا، وكما في قوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]: أي حال كونهم يحبونه.

هذا من حيث الكيف، أما من حيث الكم فما أدهشه وهو يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]: أي ما زاد عن احتياجكم.

والظاهرة القرآنية في الحث والحظ على التكافل الاجتماعي ثرية، وقضية محورية، ومتنوعة، ومسببة، ومقنعة، وستناول فيما سيأتي طريقة القرآن في جعل التكافل الاجتماعي مرتكزاً في البناء النهضوي الشامل، ثم سيكون لنا عودة في الفصل الأخير، عند ذكر العوامل الاجتماعية للنهضة في القرآن الكريم، للحديث عن التكافل الاجتماعي كعامل مهم من عوامل النهضة.

• أسلوب القرآن في عرض مرتكز التكافل الاجتماعي؛

يتخذ القرآن الكريم أساليب عديدة في عرض مرتكز التكافل الاجتماعي، وينوع في الطرح والبيان؛ للإشعار بأهمية هذه القضية الكبيرة في إصلاح المجتمع وإعمار الأرض، إذ العامل البشري هو المستهدف بالتكافل الاجتماعي، وهل تقوم عمارة الأرض من غير صلاح عاملها وصلاحه؟!

ومن صور عرض مرتكز التكافل في القرآن الكريم، التالي:

الصورة الأولى: كما رأينا في الآية السابقة، الآية الفذة العظيمة، الآية (١٧٧) من سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى

الْمَالِ عَلَى حَبِيءِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]: فإنها عرضت التكافل الاجتماعي في صورة القسيم للبر، الذي هو أعلى الإحسان والصلاح، وأثره في المجتمع لا بد وأن يكون إحساناً وصلاحاً.

فإذا شاع البر والإحسان ضاقت أسباب وجود المساكين والسائلين، ودُفعت البأساء والضراء، وهذا واحد من أهم عناوين الصلاح على الأرض. ولذلك خُتِمت الآية بإقرار أنهم إن فعلوا ذلك ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾: وهو صدق عام، وقد يكون من معانيه: الصدق في تحمل أمانة الاستخلاف، وعدم الفساد في الأرض وسفك الدماء، والعمل على إصلاح الأرض وعمارتها، وفق شرع الله تعالى ونظامه.

الصورة الثانية: تشبيه التكافل الاجتماعي بواحدة من صور الصلاح على الأرض، وهو طلوع النبات في أبهى صورهِ وأكمل ثمرته: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]: فهذه الآية الكريمة «لفظها بيانٌ لمثلٍ لشرف النفقة في سبيل الله ولحسنها، وضمنها التحريض على ذلك».

وفي الكلام حذف مضاف تقديره: مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة.

أو: مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع في الأرض حبة فأنبتت الحبة سبع سنابل، يعني أخرجت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، فشبه المتصدق



بالزراع وشبه الصدقة بالبذر، فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]: فيكون مثل المتصدق مثل الزارع إن كان حاذقاً في عمله ويكون البذر جيداً وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر، فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً والمال طيباً ويوضعه موضعه فيصير الثواب أكثر^(١).

فالكافل الاجتماعي، وهو المتصدق المنفق كالزارع، وعملية التكافل كعملية الزراعة، ووجه الشبه أن الزارع يُصْلِحُ الأرض ويهيئها لجني الثمرة مضاعفة، والكافل يُصْلِحُ بتكافله المجتمع ويهيئه للإصلاح العام والشامل، ولعملية البناء النهضوي والحضاري.

الصورة الثالثة: بيان أن انعدام التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة والمجتمع هو الهلاك والفساد والذهاب للهاوية: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]: قال البخاري: التهلكة والهلاك واحد، عن حذيفة رضي الله عنه: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: (نزلت في النفقة)^(٢). وهذا المعنى هو ما ذهب إليه الجمهور^(٣).

وسبيل الله عام في كل ما كان سبيلاً إليه، والتكافل الاجتماعي من أعظم سُبُلِ الله ﷻ.

والصورة واضحة من الآية، لا تحتاج لمزيد إيضاح، فترك التكافل والإنفاق هلاك للمجتمع ولا بد، بينما السعي في طريق الإنفاق والتكافل هو سعي في

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ما جاء في قوله ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، رقم (٤٥١٦).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٦٢).

طريق الإنقاذ والإصلاح الشامل، من التهلكة المحققة، والألف والام في ﴿التَّهْلُكَةُ﴾ للاستغراق، فكل أفراد التهلكة تكون حين يُترك الإنفاق والتكافل بين أفراد المجتمع.

ويمكن أن نقول: إن المجتمع في حالة هلاك، والمنفق الكافل في مهمة إنقاذ، فهذه صورة مشهدٍ عظيم يقوم به المنفق المنقذ.

وكلما توسعت دائرة التكافل توسعت دائرة النجاة من الهلاك أو التهلكة.

الصورة الرابعة: بيان أن التكافل يحفظ المجتمع من سُنّة الاستبدال:

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِشُفُقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن مميزات هذا المجتمع الجديد المستبدل به: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾: أي: «ثم لا يخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله»^(١)، فسيقوم هذا المجتمع التكافل بين أفراد، فليسوا كالمجتمع السابق الذي يبخل.

فإن تولى المجتمع عن الإنفاق والتكافل بين أفراد، فإنهم يذهبون للهلاك على ما في الصورة السابقة، أو إلى الاستبدال بالأصلح كما في هذه الصورة.

فالتكافل كما هو دعوة شرعية: ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ فإنه كذلك

ضرورة اجتماعية، لا مناص^(٢) للمجتمع عنها، ولا يمكن إلا أن تكون أحد أهم ركائز إصلاحه والمحافظة عليه من الهلاك أو الاستبدال على أخف تقدير.

والاستبدال هنا ليس معناه الانقراض والهلاك، وإلا لكان رديقاً للتهلكة في الآية

السابقة، وإنما معناه: انتقال مقومات النهضة والريادة والقيادة من هذا المجتمع الذي

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢٣٢).

(٢) المناص: الملجأ والمفر. ينظر: الصحاح (٣/ ١٠٦٠).

خَفَتْ فِيهِ وَهَجَ التَّكَاْفَلِ وَالْإِنْفَاقِ إِلَى مَجْتَمَعٍ آخَرَ يَتَدَاْعَى أَفْرَادُهُ لِلتَّكَاْفَلِ وَالْعَوْنِ. وَنَحْنُ نَلْحِظُ أَنَّ الْمَجْتَمَعَاتِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا التَّكَاْفَلُ، مَجْتَمَعِيًّا وَرَسْمِيًّا، تَكُونُ نِسْبَةُ الْاسْتِقْرَارِ وَالتَّنْمِيَةِ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا.

وَلِذَلِكَ كَانَتْ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ اسْتِقْرَارِ الْمَجْتَمَعِ وَدِيمُومَتِهِ، فَلَا يَتَطَّلَعُ الْفَقِيرُ لِمَا فِي يَدِ الْغَنِيِّ، فَالْفَقِيرُ حِينَ لَا يَجِدُ طَرِيقًا مَشْرُوعًا لَهُ قَدْ يَتَجَهَّ لِلطَّرْقِ الْمَحْرَمَةِ، وَحِينَهَا تَنْتَشِرُ الْأَخْطَارُ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَلَا يَأْمَنُ فِيهِ أَصْحَابُ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ.

وَمَا انْتَهَجَتْهُ الْاِشْتِرَاكِيَّةُ الشِّيْعِيَّةُ^(١) كَانَ ضِدَّ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى سَلْبِ الْأَمْوَالِ وَالْمَمْتَلَكَاتِ، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ -طَبَقًا لِنَهْجِهَا- أَنْ يَمْلِكَ أَرْضًا وَلَا دَارًا وَلَا سَيَّارَةً وَلَا مَتَجَرًّا، فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا ثِيَابَهُ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهِ وَإِلَّا أَجْرَةٌ عَمَلُهُ بِشَرَطِ أَنْ لَا يَدْخُرَهَا لَوْ كَانَ فِيهَا مَتَسَعٌ لِلادِّخَارِ^(٢)!

لِذَلِكَ قَامَتْ بِإِذْكَاءِ الصَّرَاعِ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَالْعَمَالِ وَأَصْحَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ، بِدَعْوَى التَّوْزِيعِ الْعَادِلِ لِلْجَمِيعِ، وَهُوَ مَا لَمْ يَتَحَقَّقْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ، وَكُلُّ الَّذِي اسْتَطَاعُوهُ أَنَّهُمْ أَفْقَرُوا الْجَمِيعَ، وَضَخَمُوا مِنْ تَغَوُّلِ السَّلْطَةِ الَّتِي مَلَّكُوها كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا الْفَقِيرُ انْتَفَعَ وَلَا الْغَنِيُّ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ!

بَيْنَمَا جَاءَ الْإِسْلَامُ بِنِظَامِ الزَّكَاةِ الْحَتْمِيِّ كُنُوعَ مَلْزَمٍ مِنْ أَنْظِمَةِ التَّكَاْفَلِ

(١) الشِّيْعِيَّةُ: مَذْهَبٌ فِكْرِي يَقُومُ عَلَى الْإِلْحَادِ، وَأَنَّ الْمَادَّةَ هِيَ أَسَاسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُفَسِّرُ التَّارِيخَ بِصَّرَاعِ الطَّبَقَاتِ وَبِالْعَامِلِ الْاِقْتِصَادِيِّ. ظَهَرَتْ فِي أَلْمَانِيَا عَلَى يَدِ مَارْكَسَ وَإِنْجِلْزَ، وَتَجَسَّدَتْ فِي الثَّوْرَةِ الْبُلْشَفِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي رُوسِيَا سَنَةَ ١٩١٧مَ بِتَخْطِيطِ مِنَ الْيَهُودِ، وَتَوَسَّعَتْ عَلَى حِسَابِ غَيْرِهَا بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ. وَقَدْ تَضَرَّرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا كَثِيرًا، وَهَنَّاكَ شُعُوبٌ مُحِيتٌ بِسَبَبِهَا مِنَ التَّارِيخِ، وَلَكِنْ الشِّيْعِيَّةُ أَصْبَحَتْ الْآنَ فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ، بَعْدَ أَنْ تَخَلَّى عَنْهَا الْإِتِّحَادُ السُّوْفِيَّةِيُّ، الَّذِي تَفَكَّكَ بِدَوْرِهِ إِلَى دَوْلٍ مُسْتَقْلَةٍ تَخَلَّتْ كُلُّهَا عَنِ الْمَارْكَسِيَّةِ، وَاعْتَبَرَتْهَا نَظَرِيَّةً غَيْرَ قَابِلَةً لِلتَّطْبِيقِ. يَنْظُرُ: الْمَوْسُوعَةُ الْمِيسِرَةُ فِي الْأَدْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ (٩١٩/٢).

(٢) يَنْظُرُ: الْإِسْلَامُ وَالْمَذَاهِبُ الْاِشْتِرَاكِيَّةُ، تَقِي الدِّينَ الْهَلَالِيَّ (ص ١٢).

الاجتماعي، وحث على الإنفاق خارج هذا النظام الحتمي، كنوع اختياري صنع له العديد من المحفزات.

الصورة الخامسة: التذكير بأن التكافل الاجتماعي إنما هو اختبار مصغر للاستخلاف الكبير في إصلاح الأرض وعدم الإفساد فيها وسفك الدماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

وهذا يدل على أن الأموال ليست بأموالهم في الحقيقة، بل هم مستخلفون فيها؛ فأصل الملك لله سبحانه، والإنسان ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله تعالى، وما هم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم^(١).

فالمال هو أحد تلك المقومات الأرضية التي أصبح الإنسان خليفة عليها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد ذكر الإنسان في هذه الآية - التي تحث على الإنفاق والتكافل - أن هذه صورة مصغرة من صور الاستخلاف، وأن عليه الإصلاح فيها، وهو مشعر بأن عدم التكافل فساد وإفساد، وهو ما عبرت عنه الملائكة بقولها: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

الصورة السادسة: جعل القرآن مبدأ التكافل الاجتماعي صورة من صور الطهر وصلاح الحال والباطن، وهو ما ينعكس على الظاهر: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فيفشو الطهر والصلاح بكثرة الإنفاق واتساع دائرة التكافل، وهو سائر في

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٢٣٨).



فلك إصلاح الأرض كلها، بجميع نواحي معيشتها.

وفي الآية الكريمة ما يُشعر بالدفء في جو التكافل والإنفاق العام، فالتطهير والتزكية والصلاة تكون كالسكن للمنفقين من أموالهم، الحريصين على مبدأ التكافل الاجتماعي، وهو الدفء الذي ينسحب بالضرورة على المجتمع كله. الصورة السابعة: نبه القرآن الكريم على أهمية التكافل الاجتماعي في طور حفظ النظام الاجتماعي، واجتماع الناس على النظام والقيم الكبرى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

ذلك أن التكافل يقود إلى احترام النظام والسكينة العامة، والاجتماع على الخير، والإقبال على العلم والتعلم، والمساهمة في البناء، ولذلك انتبه المفسدون إلى صنيع مبدأ التكافل ذلك، فتواصوا بعدم الإنفاق، والمقصود أنهم يحثون أتباعهم وغيرهم على عدم الإنفاق وترك السعي في طريق التكافل، «وهي قوله يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة^(١). وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان.

وذلك لأنهم -لخسة مشاعرهم- يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة -كما هي في حسهم- فيحاربون بها المؤمنين. إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصره رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين.

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع.

(١) النحيزة: الطريقة المستدقة. ينظر: لسان العرب (٥/ ٤٦١).

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة.

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق. وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان إلى هذا الزمان^(١).

إن القرآن الكريم قد نبّه بذكر هذه المقولة إلى مدى تلازم الإصلاح والنهضة الشاملة مع مفهوم التكافل الاجتماعي والإنفاق، وهو ما تنبّهت له جماعة المفسدين حينها (المنافقون)، فعملوا على السعي لمحاصرته. وهو ما نراه في واقعنا بذات الأدوات ولذات السبب، فهم يسعون لتجفيف منابع الخير والتكافل، ويحاصرون المنفقين، ولربما قاموا بعملية تشويه واسعة في هذا الصدد، والغرض من ذلك كله ﴿حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧] عن السعي في طريق الإصلاح والنهضة والبناء المجتمعي.

الصورة الثامنة: القرآن الكريم لا يهتم غالباً -في جانب التكافل الاجتماعي- بمعتقد المكفول المحتاج، بل يحفل بنشر قيم التكافل بين كل بني البشر، بل أبعد من ذلك إلى كل مخلوق، ولذا فقد اخترنا أن يكون اسم هذه النقطة من هذا الفصل «مرتكز البعد التكافلي الإنساني»؛ لنشير إلى أن التكافل لا يختص بإنسان دون آخر لمعتقده أو غيرها من المحددات، بل لكونه إنساناً.

وهذا التنبيه كثير في القرآن، ويكفي أنه يُطلق عملية الإنفاق والتكافل فلا يقصرها على عينة محددة، ومع ذلك فقد نبّه على هذا المفهوم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]،

(١) ظلال القرآن (٦/ ٣٥٧٩).



مع كون الأسير غير مسلم!

وبشكل أشمل فقد جَوَزَ القرآن كل وجوه البر والتكافل والإنفاق لكل أحدٍ ما لم يكن ممن يقاتل المسلمين: ﴿لَا يَنْهَٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

أما إن كان ممن يقاتل المسلمين فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]؛ لأن الإنفاق عليه حينها سيؤدي إلى نتيجة عكسية؛ فإن المقصود من الإنفاق والتكافل إصلاح المجتمع، والإنفاق على الكافر المقاتل من التعاون على إفساد المجتمع، وهذا ما نهى عنه القرآن: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وهو ما يقتضيه العقل السليم.

هـ- مرتكز شرائع الدين:

• مفهوم الدين والشرعية ومقصدهما:

الدين لغةً: الانقياد، وفي المقاييس: الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنس من الانقياد، والذل.

فالدين: الطاعة، يقال: دَانَ له يدين دَيْنًا، إذا انقاد وطاع. وقوم دينٌ، أي: مطيعون منقادون... والمدينة كأنها مَفْعَلَةٌ، سُميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر^(١).

واصطلاحًا: إذا ما سبرنا الدلالة اللغوية لكلمة «الدين»، والتعريفات الكثيرة لها لغويًا واصطلاحيًا، فيمكن أن نكتفي بالقول: إنه مجموعة النظم العقدية والفكرية والتشريعات العملية المندرجة تحت حكم سلطة عليا. وبما أن السلطة العليا في دين الإسلام لله ﷻ، فيمكن القول باختصار أن الدين هو: الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة من خلال النصوص التي تحدد صفات تلك الذات، وتبين القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها^(٢).

وعلى كثرة الاختلاف في مفهوم الدين كثرت كذلك التفسيرات الباحثة عن دوافع الدين، وذلك بعد الاتفاق على أن فطرة الدين أصيلة في الإنسان. إن تفسيرات الباحثين في الديانات -الذين يتجاهلون ما تقرره الكتب السماوية لنزعة التدين ونشأة الدين- يكتنفها جميعًا كثير من الغموض والتناقضات؛ إذ تقوم جميعها على التخمين والحدس. فالذي لم يختلفوا فيه مطلقًا هو أصالة هذه النزعة في الإنسان، ولهذا فإن النهج الموضوعي يستلزم

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣١٩).

(٢) الدين في الاصطلاح الإسلامي، كتاب على الموسوعة الشاملة، ونسبته لموقع وزارة الأوقاف السعودية بدون ذكر بياناته (ص ١).

الرجوع إلى المصادر الأخرى غير البشرية للوقوف على المعلومات الصحيحة عن حقيقة هذه النزعة^(١).

وطريقة القرآن الكريم توضح أن الفطرة التي خلقها الله في الإنسان، وفطره عليها هي الباعث له على الدين: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. أي: اتبع الدين الحنيف واتبع فطرة الله^(٢).

والفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ...»، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]^(٣)، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته.

فالفطرة إذن هي الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل، والتي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه، ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرض لهم العوارض، ومنه قول النبي ﷺ السابق: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ»، فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة، فإن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية

(١) المرجع السابق (ص ٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٤).

(٣) أخرجه: البخاري، رقم (٤٧٧٥)، ومسلم، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق^(١).

ومما يشهد لهذا المعنى آية بدء الخلق: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فإن آدم حين أكل من الشجرة، وتاب الله عليه قال له: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

والهدى هو شرائع الدين التي يرسل الله ﷻ بها رسله وينزل معهم بها كتبه وما فيها من بيان^(٢).

والشرائع لغة: جمع شريعة، من شرع، والشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه، من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة الماء. واشتق من ذلك الشرعة في الدين والشريعة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]^(٣).

وفي الاصطلاح: تطلق الشريعة ويُراد بها كل تفاصيل الدين من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، فتكون مرادفة للدين.

وقد يعبر عنها بعبارة أخرى فيقال: هي وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم^(٤).

وقد يُخصَّصُ الشرع بالأحكام العملية الفرعية، فالعلم المتعلق بالأحكام

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٩/١٤)، بتصرف.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥٨٩/١).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة (٢٦٢/٣).

(٤) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون (١٠١٨/١).

الفرعية يُسمَّى علم الشرائع والأحكام، والعلم المتعلق بالأحكام الأصلية يُسمَّى علم التوحيد^(١). وقد مرَّ معنا مرتكز التوحيد، وأهميته في بناء عوامل النهضة.

وهذا الهدى والشرائع والبيان الذي أرسلت به الرسل، وجاءت به الكتب السماوية، هو في مجموعه الدِّين، وهو المنظم للإنسان حتى لا يقع فيما استعجبت منه الملائكة: الفساد وسفك الدماء: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وكان الدين بشرائعه يدخل تحت قوله تعالى في جوابه لملائكته: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]: أي: أعلم أن طائفة كبيرة منهم يستجيبون للهدى الذي نرسله لهم فيتبعونه، فيأمرهم بالإصلاح في الأرض وعدم الإفساد وسفك الدماء.

والأديان والشرائع قد نزلت بما يُصلح الناس ويقيم حياتهم، ولذلك فقد جعل القرآن الكريم الدِّينَ - بل الأديان - مرتكزاً في عرضه لعوامل النهضة والبناء وإعمار الأرض، و«إذا تأملت شرائع دينه التي وضعها بين عباده وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تراجحت قُدِّمَ أهمُّها وأجلُّها وإن فاتت أدناها، وتعطيل المفسدات الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تراجحت عُطِّلَ أعظمُّها فساداً باحتمال أدناها. وعلى هذا وضع أحكمُ الحاكمين شرائع دينه دالَّةً عليه، شاهدةً له بكمال علمه وحكمته ولُطْفِهِ بعباده وإحسانه إليهم، وهذا لا يستريبُ فيه من له ذوقٌ من الشريعة وارتضاعٌ من ثديها، وورودٌ من عَفْوِ حَوْضِهَا، وكلِّما كان تضلُّعه منها أعظمَ كان شهودُهُ لمحاسنها ومصالحها أكمل.

(١) ينظر: المرجع السابق.

كيف والقرآنُ وسنَّةُ رسول الله ﷺ مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبية على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام، ولأجلها خلق تلك الأعيان... والقرآن مملوءٌ من أوَّله إلى آخره بذكر حكم الخلق والأمر ومصالحهما ومنافعهما، وما تضمنته من الآيات الشَّاهدة له الدَّالة عليه، ولا يمكن لمن له أدنى اطلاعٍ على معاني القرآن إنكارُ ذلك.

وهل جعل الله سبحانه في فطر العباد استواء العدل والظلم، والصدق والكذب، والفجور والعفة، والإحسان والإساءة، والصبر والعفو، والاحتمال والطيش، والانتقام والحدّة، والكرم والسماحة، والبذل والبخل، والسُّخِّ والإمساك؟! بل الفطرة على الفرقان بين ذلك كالفطرة على قبول الأغذية النافعة، وترك ما لا ينفع ولا يغذي، ولا فرق في الفطرة بينهما أصلاً.

وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حقَّ التأمل وجدتها من أوَّلها إلى آخرها شاهدةً بذلك، ناطقةً به، ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة بادياً على صفحاتها، منادياً عليها، يدعو العقول والألباب إليها، وأنه لا يجوزُ على أحكم الحاكمين ولا يليقُ به أن يشرع لعباده ما يضادُّها؛ وذلك لأنَّ الذي شرعها علِمَ ما في خلافها من المفساد والقبايح والظلم والسفَه الذي يتعالى عن إرادته وشرعه، وأنه لا يصلح العبادُ إلا عليها، ولا سعادة لهم بدونها البتَّة. وجميعُ مسائل الشريعة كذلك آياتٌ بيّنة، ودلالاتٌ واضحة، وشواهدُ ناطقاتٌ بأنَّ الذي شرعها له الحكمةُ البالغة، والعلمُ المحيط، والرحمةُ والعنايةُ بعباده، وإرادةُ الصِّلاح لهم، وسوقهم بها إلى كمالهم وعواقبهم الحميدة^(١).

وسوف نستعرض بعضاً من ذلك باختصار شديد، وإلا فإن كل فرع من

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩١٢) وما بعدها، بتصرف.

فروع الشريعة الحقة، سواء ما ورد منها في القرآن أو في السنة النبوية الكريمة لا يمكن أن يكون من ورائها - كما مرّ - إلا مصلحة الإنسان وإصلاح الأرض والمجتمع، ومحاربة المفساد والتقليل منها، ومحاربة الإفساد في الأرض.

• أسلوب القرآن في عرض مرتكز الشرائع:

يتخذ القرآن الكريم صوراً عديدة في ربط الأوامر الشرعية بقضية الإصلاح العام للأرض ونهضتها وديمومة الحياة فيها إلى أن يشاء الله.

وسنأخذ هنا صورتين من صور ذلك الربط الحكيم، إحداهما في شرائع الدين الإسلامي في الدماء، والأخرى في شرائعه وأحكامه في الأموال، وبحفظ الدماء والأموال وإصلاحهما تصلح الحياة وتُحفظ، وينمو المجتمع، وتنهض الأمم، وتُبنى الحضارات:

الصورة الأولى: ربط الأحكام الشرعية والأوامر الدينية بمقصد الحفاظ على الحياة، التي يكون بها عمارة الأرض وبنائها، قال تعالى في آية القصاص، وهو حكم شرعي: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۖ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨ - ١٧٩]: فبعد أن ذكر حكم القصاص الشرعي الديني طمأن نفوس الفريقين أولياء الدم والقاتلين إلى قبول أحكام القصاص فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾، فبين أن في القصاص حياة، والتنكير في ﴿حَيَوةٌ﴾ للتعظيم بقرينة المقام، أي: في القصاص حياة لكم، أي: لنفوسكم؛ فإن فيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم

القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفًا بالعقوبات... ولو تُرك الأمر للأخذ بالثأر كما كان عليه في الجاهلية لأفرطوا في القتل وتسلسل القتل، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين^(١).

والمعنى: أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر؛ مخافة أن يُقتص منه فحييا بذلك معًا.

وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حَمِي قبيلاًهما وتقاتلوا، وكان ذلك داعيًا إلى قتل العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال، فلهم في ذلك حياة^(٢).

ومع ذلك فليس الأمر فوضى، يقتص كل أحد ممن يزعم أنه قتل؛ فقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض، وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك، ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدي الناس بعضهم عن بعض^(٣).

والناس أمام مقصد هذا الحكم سواء، لا يخرج عنه أحد، فقد أجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدَّى على أحد من رعيته؛ إذ هو واحد منهم، وإنما له مزية النظر لهم كالوكيل، وذلك لا يمنع القصاص؛ وليس بينهم وبين العامة فرق في أحكام الله تعالى^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] تنبيه بحرف النداء على التأمل في حكمة القصاص، ولذلك جيء في التعريف بطريق الإضافة الدالة على أنهم من أهل العقول الكاملة؛ لأن حكمة القصاص لا يدركها إلا

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ١٤٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٦).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزية ثانية، لكنه عند التأمل هو حياة لا رزية^(١).

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي: تتقون القتل فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك^(٢).
 فيمكن أن نستخلص من هذه الآية الكريمة والأحكام الشرعية المترتبة عليها، والمأخوذة منها، التالي:

١- أن من أهم مهمات الإنسان -وهو الخليفة على الأرض- أن يحافظ على الدماء، ولا يفسد فيها على وجه الخصوص؛ لأن ذلك مما نهت عليه الملائكة حين قالت مستغربة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٢- أن الولوج إلى منزلق فساد الدماء يترتب عليه فساد كبير في الأرض، فكان ذلك كأنه ولوغ في دماء الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

والمعنى: أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ قتلها فاستحقت القود بها والقتل قصاصاً، أو بغير فسادٍ في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه^(٣).

٣- أن القرآن الكريم قد بيّن كيفية معالجة هذه المفسدة إذا ما وقعت، وهو القصاص العادل ممن ارتكبها.

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٤٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٦).

(٣) يقارن مع تفسير الطبري (٨/ ٣٥٧).

٤- أن القصاص لا ينبغي أن يتعدى إلى غير مرتكب الجريمة، فإن تعدى فهو من مظاهر الفساد في الأرض الذي جاء حكم الدين للتقليل منه، ولذلك جاء النهي القرآني عن استغلال مظلومية المقتول لنشر الفساد في الأرض والتوسع في قتل الأبرياء انتقاماً أو مبالغة في الغضب والتنكيل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

فهذه الآية تبين أن الأصل في القتل هو الحرمة المغلطة، وحل القتل إنما ثبت بسبب عارض، فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل، وهي الأسباب العَرَضِيَّة فقال: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١)، ومن الحق القتل قصاصاً.

فتحذر الآية من الإفساد ونشر الفوضى والقتل باستغلال حادثة القتل الأول: ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ ولي الدم أو السلطان ﴿فِي الْقَتْلِ﴾، ولذلك الإسراف صور منها: الإسراف بقتل مَنْ هو أشرف من القاتل، أو الإسراف بقتل عدد أكثر بالواحد، أو بالمثلة بالمقتول قصاصاً، والمثلة: هي قتله قصاصاً بطريقة موحشة، أو تشويبه بعد قتله.

وهذا كله جالب للفوضى والفساد الذي شرع القصاص من أجل محاربته والتقليل منه.

٥- أن إقامة الدين بإقامة أحكامه التي منها القصاص، فيه مصلحة للمجتمع كله، ولذلك عبّر بصيغة الجمع ﴿وَلَكُمْ﴾.

٦- لا يمكن أن يحل مكان القصاص العادل شيء لو أد فتنة ما بعد جريمة القتل، وإلا استمر مسلسل القتل والأحقاد والنزاعات، حتى السجن الطويل لا

(١) تفسير الخازن (٣/ ١٢٩).



يمكن أن يكون بديلاً صالحاً للقصاص لعدة أسباب، منها:

١. أن القاتل أزهد نفساً، والعدل أن يعامل بالمثل.
٢. أن نفوس وقلوب أهل المقتول تبقى في حالة توتر دائم وحزن، مادام القاتل على قيد الحياة.

٣. أن طبيعة النفس البشرية أن تتكيف مع أي ظرف، فلذلك قد يقبل الإنسان أن يعيش مسجوناً طيلة حياته، ويتكيف مع هذه الحالة، ولذا فيمكن أن يباشر جرائم أخرى، ولا يردعه هذا العقاب، بينما إن كان يدرك أن القتل هو مصيره فلن يقدم على جريمة أخرى.

٤. أن الردع بالسجن فاعليته ضعيفة في النفوس، ومن مقاصد القصاص ردع مَنْ قد تسول له نفسه بارتكاب جريمة سفك الدم.

٧- ومع أن عفو ذوي المقتول أو قبولهم بالدية مقبول شرعاً، إلا أن الذي يظهر أن إقامة القصاص أنفع بالنسبة للمجتمع، ولذلك عقب به بعد ذكر العفو والدية، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وهو ما يشعر بأن القصاص أكثر حسماً لمادة الصراع وتوارث الجريمة وتجدها، ولذلك عُدَّ تشريع العفو والدية تخفيفاً خارجاً عن الأصل، والله أعلم.

٨- قد نهت الآية إلى أن الحكمة من مشروعية القصاص عظيمة ونبيلة، إلا أنها لا تظهر لكل أحد، بل لأولي الألباب: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، وهي العقول المفكرة، أما مَنْ تغلب عليهم العاطفة فلن ينتبهوا لهذه الحكم الكبيرة التي تفيد كبح الفساد عن المجتمع كله، فعاطفتهم قاصرة من وجهين:

الأول: أنها لم تنظر لمآلات المستقبل، وما يترتب على ترك القصاص من فساد كبير في المجتمع.

الثاني: أنها لم تَطَّرِدْ؛ فما بالها لم تعطف على المقتول الأول؟!
لذلك، فإن حقائق أحكام الدين وما تؤول إليه قد لا تظهر لكل أحد، بل لمن تأمل وتفكر.

فهذه صورةٌ من غائيّة الدين وأحكامه وشرائعه، وهي الحرص على سلامة المجتمع واستقراره؛ ليتفرغ بنوه للبناء والنهضة والإعمار، أما إن اشتعلت نار القتل فيه، وتجدرت نابتة الثأر، فهو الدمار فقط!

الصورة الثانية: من صور الربط الحكيم بين الدين ومهمة النهضة والبناء وإعمار الأرض، ربط بعض المنهيات الدينية الشرعية بعدم الاستقرار وصلوحية الأرض، ومن ذلك ممارسة الربا، والربا هو القتل البطيء للمجتمع ومقوماته وعناصر استقراره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]: فهذا وعيد إن لم يذروا الربا بالحرب، والحرب داعية القتل^(١). إن الربا هو قسيم سفك الدم، وهما أبرز فساد يذكي الصراع البشري ويديمه.

وحصر أضرار وأثر فساد الربا يطول جدًّا؛ فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة.

فالمرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة، ومن ثمّ يمسك المال حتى يزيد اضطراب التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة، ويظل يرفع السعر

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٦٣).

حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة أنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال؛ لأنه لا يدر عليهم ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء... عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تشتغل فيها الملايين، وتضيّق المصانع دائرة انتاجها، ويتعطل العمال، فتقل القدرة على الشراء.

وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد، ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارًا، فيقبل عليه العاملون في الصناعة والتجارة من جديد، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء... وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية، ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة!

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين؛ فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية.

أما الديون التي تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك؛ إذ إن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسد منها هذه الديون وفوائدها.

وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف... وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون... ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار!

إن النظام الربوي بلاء على الإنسانية - لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب - بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية، وإنه أبشع نظام يمحق

سعادة البشرية محققاً، ويعطل نموها الإنساني المتوازن، على الرغم من الطلاء الظاهري الخداع الذي يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام! إن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقته، وشعوره تجاه أخيه، وإلا أن يفسد حياة المجتمعات البشرية وتضامنها بما يئته من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة^(١) والمقامرة بصفة عامة.

أما في العصر الحديث فإنه يُعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحطّ وجوه الاستثمار؛ كي يستطيع رأس المال المُستدان بالربا أن يربح ربحاً مضموناً، فيؤدي الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين، ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال في الأفلام القدرة، والصحافة القدرة، والمراقص، والملاهي، والرقيق الأبيض، وسائر الحرف والاتجاهات التي تحطم أخلاق البشرية تحطيمًا... والمال المُستدان بالربا ليس همّه أن يُنشئ أنفع المشروعات للبشرية، بل همه أن يُنشئ أكثرها ربحاً، ولو كان الربح إنما يجيء من استشارة أحط الغرائز وأقذر الميول... وهذا هو المُشاهد اليوم في أنحاء الأرض، وسببه الأول هو التعامل الربوي!

والربا ليس ضرورة حتمية كما يُروّج له... إن هناك استحالة اعتقادية في أن يكون هناك أمر خبيث ويكون في الوقت ذاته حتمياً لقيام الحياة وتقدمها... فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة، وهو مستخلف الإنسان فيها، وهو الأمر بتنميتها وترقيتها، وهو المرید لهذا كله الموفق إليه.

فهناك استحالة إذن في تصور المسلم أن يكون فيما حرّمه الله شيء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه، وأن يكون هناك شيء خبيث هو حتمي لقيام الحياة ورقيها.

(١) المخاتلة: المخادعة. ينظر: شمس العلوم (٣/ ١٧١٧).

وإنما ذلك كله بسوء التصور، وسوء الفهم، والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التي دأبت أجيالاً على بث فكرة أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادي والعمراني، وأن النظام الربوي هو النظام الطبيعي. وبُث هذا التصور الخادع في مناهل الثقافة العامة، ومنابع المعرفة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلاً بسعي بيوت المال والمرايين.

وصعوبة تصور قيام الحياة على أساس آخر، تنشأ أولاً من عدم الإيمان، كما تنشأ ثانياً من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذي اجتهد المرابون في بثه وتمكينه لما لهم من قدرة على التوجيه ومِلكية للنفوذ داخل الحكومات العالمية، ومِلكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة.

إن استحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوي... ليست سوى خرافة، أو هي أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التي يستخدمها أصحاب المصلحة في بقائها أجهزة ضخمة فعلاً.

وحين تصح النية، وتعزم البشرية -أو تعزم الأمة المسلمة- أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد، الذي أراده الله للبشرية، والذي طُبّق فعلاً، ونمت الحياة في ظله فعلاً وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفي ظلاله، لو عقل الناس ورشدوا!

وليس هناك مجال لتفصيل القول في كفيات التطبيق ووسائله... فحسبنا هذه الإشارات المجملّة، وقد تبين أن شناعة العملية الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية، وأن الإنسانية التي انحرفت عن النهج قديماً حتى ردها الإسلام إليه، هي الإنسانية التي تنحرف اليوم الانحراف ذاته، ولا تفيء إلى النهج القويم الرحيم السليم.

إن مجتمع: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] هو مجتمع الذين لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة... وإذا كان هناك شك في الماضي أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية، فإن تجربة هذه القرون لا تُبقي مجالاً للشك أبداً.

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم - في أنحاء الأرض - هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية، باعتراف عقلاء أهله ومفكره وعلمائه ودارسيه، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار. ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المييدة، وحرب الأعصاب، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك!

إنها الشقوة البائسة المنكودة، التي لا تزيلها الحضارة المادية، ولا الرخاء المادي، ولا يُسر الحياة المادية وخفضها ولينها في بقاع كثيرة، وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ في النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة؟!

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى، ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى، حقيقة أن الناس في أكثر بلاد الأرض رخاء عامًّا - في أمريكا، وفي السويد، وفي غيرها من الأقطار التي تفيض رخاء ماديًّا - أن الناس ليسوا سعداء... إنهم قلقون، يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء! وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج! وأنهم يُغرقون هذا الملل في

العريضة والصخب تارة، وفي التقاليع الغربية الشاذة تارة، وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة، ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب... الهرب من أنفسهم، ومن الخَواء^(١) الذي يعيش فيها! ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها، فيهربون بالانتحار! ويهربون بالجنون! ويهربون بالشذوذ! ثم يطاردهم شبح القلق والخَواء والفراغ ولا يدعمهم يستريحون أبدًا! لماذا؟

السبب الرئيس طبعًا هو خَواء هذه الأرواح البشرية الهائلة المعذبة الضالة المنكودة - على كل ما لديها من الرخاء المادي - من زاد الروح... من الإيمان... من الاطمئنان إلى الله.. وخَوَاؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه.

ويتفرع من ذلك السبب الرئيس الكبير بلاء الربا؛ بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويًا معتدلًا بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها. إنما ينمو مائلًا جانحًا إلى حفنة الممولين المرابين، القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف، يُقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة، ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع، والتي تكفل عملاً منتظمًا ورزقًا مضمونًا للجميع، والتي تهَيِّئ طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع... ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح، ولو حطم الملايين وحرّم الملايين وأفسد حياة الملايين، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعًا!

إن نهاية التعامل الربوي هو المَحَق لا غيره... المَحَق في كل مناحي الحياة، حياة الفرد والمجتمع: ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرَّبَّوْا وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

(١) الخَواء: الفراغ والخلو. ينظر: المخصص (٤/ ٤٥٢)، شمس العلوم (٣/ ١٩٤٩).

وها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة.

إن الله يمحق الربا، فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء. وقد ترى العين - في ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجاً وموارد موفورة، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد، وقد أشرنا قبلُ إلى الشُّقْوة النَّكِدَة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة من الموارد الربوية؛ وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده، ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم، حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب المبيدة، كما تصحو وتنام في هم الحرب الباردة، وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوماً بعد يوم - سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا - ولا يُبارَكْ لهم في مال ولا في عمر ولا في صحة ولا في طمأنينة بال!

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون، الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع، - كما مرَّ معنا عند الحديث عن مرتكز التكافل الاجتماعي - وسادته روح المودة والحب والرضا والسماحة، والتطلع دائماً إلى فضل الله وثوابه، والاطمئنان دائماً إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها... ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله - أفراداً وجماعات - في مالهم ورزقهم، وفي صحتهم وقوتهم، وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم.

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية، هم الذين لا يريدون أن يروا؛ لأن لهم هوى في عدم الرؤية! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبتوثة عمداً وقصدًا من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت؛

فضعفت عن رؤية الحقيقة!

وها هو الدين، ها هي الشريعة تنادي لنبد فساد الربا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].
اتركوا الربا ليصلح المجتمع، وإلا فإنها الحرب: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾: أي اعلّموا أنها الحرب إذن، وأيقنوا بذلك.

وفي قراءة: { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ } ^(١) أي: أعلّموا، والتقدير: فأعلّموا من لم يتنه عن الربا بحرب من الله ورسوله، وإذا أمروا بإعلام غيرهم فهم أيضاً قد علموا ذلك، لكن ليس في علمهم -على القراءة الأولى- دلالة على إعلام غيرهم، فهذه القراءة في البلاغة أكد ^(٢).

على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام، فهذه الحرب معلنة -كما قال أصدق القائلين- على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي.

هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة، وهي حرب على الأعصاب والقلوب، وحرب على البركة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة... حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض، حرب المطاردة والمشاكسة، حرب الغبن والظلم، حرب القلق والخوف... وأخيراً حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول... الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جرّاء النظام الربوي المقيت.

فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه

(١) قرأ شعبة وحمزة (فأذنوا) بفتح الهمزة وألف بعدها وكسر الذال، وقرأ بقية السبعة (فأذنوا) بإسكان الهمزة وفتح الذال. ينظر: المنح الإلهية في جمع القراءات السبع (١/ ٢٨١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٧/ ٨٤).

الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر، وهم يلقون شباكههم فتقع فيها الشركات والصناعات، ثم تقع فيها الشعوب والحكومات، ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب!

أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب!
أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم، فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب!

وأيسر ما يقع -إن لم يقع هذا كله- هو خراب النفوس، وانهيار الأخلاق، وانطلاق سُعار الشهوات، وتحطم الكيان البشري من أساسه، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبية! إنها الحرب المشبوبة دائماً.

وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا، وهي مُسْعرة الآن، تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة، وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع، وكانت هذه التلال حَرِيَّةً بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر، ولكنها -وهي تخرج من منبع الربا الملوث- لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية، ويسحقها سحقاً، في حين تجلس فوقه شرذمة المرايين العالميين، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون!

لقد دعا الإسلام ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى المَشْرِع الطاهر النظيف، بعيداً عن الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان.

إن الانحراف ذلك خطيئة تنشأ آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم وفي تصورهم للحياة، وتنشأ آثارها في حياة المجتمعات وارتباطاتها العامة، وتنشأ آثارها في الحياة البشرية كلها، وفي نموها الاقتصادي ذاته، ولو حسب

المخدوعون بدعاية المرابين أنها وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي. إن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مترابطان تمامًا، وإن الإنسان في كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن في كل نشاط يقوم به في حياته، ومحاسب عليه في آخرته، فليس هناك نظام أخلاقي وحده، ونظام عملي وحده، وإنما هما معًا يؤلفان نشاط الإنسان، وكلاهما عبادة يُوجَر عليها إن أحسن، وإثمٌ يؤاخذ عليه إن أساء. إن الاقتصاد الإسلامي الناجح لا يقوم بغير أخلاق، وإن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية.

فاسترداد رأس المال مجردًا عدالة لا يُظلم فيها دائن ولا مدين. فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة، ومنها: وسيلة الجهد الفردي، ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة -وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه، ومقاسمته الربح والخسارة-، ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق -بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح- وتناول الأرباح حلالًا من هذا الوجه. ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة ثابتة -على أن تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ولا تعطيها بالفائدة الثابتة- ثم مقاسمة المودعين الربح أو الخسارة -إذا فرض ووقعت- على نظام معين. وللمصارف أن تتناول قدرًا معينًا من الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال.

ووسائل أخرى كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها، وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر وتجنب المورد العفن التزن الآسن^(١).

(١) هذه الصورة، أعني الصورة الثانية من صور الربط الحكيم بين الدين ومهمة النهضة والبناء وإعمار=

والتعامل بالربا مؤذِنٌ بالعقوبة وخراب الأرض وحرمان خيراتها: ﴿فَبُظْلِمَ
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ
كَثِيرًا ۖ﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

فقد «حرَّم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعون عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها لكونها طيبة»^(١)، هذا على معنى الحرمان الشرعي، وقد تفيد معنى كلمة ﴿حَرَّمْنَا﴾ أي: منعنا منعًا كونيًا، فلم تُخرج الأرض خيراتها بسبب ظلمهم وتعاملهم بالربا.

والذي تقتضيه السنن الكونية والشرعية أن جائحة وباء (كورونا) التي وقعت في أيامنا هذه وما زالت آثارها إلى اليوم، فعطلت منافع البشر، وأخذت أرواحهم، وضربت الاقتصاد العالمي وما زالت تعصف به، قد تكون من أسباب استطالة هذا العالم الأرضي في محاربة الله تعالى بالربا في كل صغيرة وكبيرة، بل أصبح الربا هو الأصل، والتعامل بغيره هو الاستثناء!

وبهذا العرض السريع لمثالين من صور ربط القرآن الكريم شرائع الدين بإصلاح الأرض والمجتمع يتضح بجلاء كيف أن القرآن الكريم جعل الدين وشرائعه مرتكزًا كبيرًا وهو يعرض عوامل نهضة المجتمعات وإعمار الأرض وإصلاحها.

= الأرض، مستفادة بشكل كبير من كتاب: ظلال القرآن (١/٣١٧) وما بعدها، بتصرف كبير، فقد أدخلت عليها وأضفت وحذفت وأعدت الترتيب وبعض الصياغة بما يتوافق مع المقصد.
(١) تفسير السعدي (ص ٢١٣).

وختامًا يجدر التنبيه على أن شرائع الإسلام قد نسخت كل الشرائع، ودينه قد بدد كل الأديان، كما أن هذا القرآن قد هيمن على كل الكتب السابقة:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾

[المائدة: ٤٨].

فلا قابلية لتطبيق هذه الشرائع إلا أن تكون من شرائع القرآن، ولا فاعلية لها إلا أن تكون منبثقة منه، وهذا بديهي وثابت وقطعي وواضح من تناول القرآن الكريم لهذه القضية، بما لا يحتاج التطويل فيه.

و- مرتكز الحاجة الإنسانية:

• مفهوم الحاجة الإنسانية:

الحاجة لغةً: مصدر للفعل (احتاج)، وهي الافتقار للشيء، وفي المقاييس: الحاء والواو والجيم أصل واحد، وهو الاضطرار إلى الشيء، فالحاجة واحدة الحاجات... ويقال أحوج الرجل: احتاج، ويقال أيضاً: حاج يحُوج، بمعنى: احتاج^(١).

ومعنى الحاجة في الاصطلاح، وهو ما يعبر عنها بالحاجيات: ما افتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تُراعَ دخل على المكلفين -على الجملة- الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة^(٢).

هذا تعبير الأصوليين، فمفهوم الحاجة يختلف من مجال إلى مجال ومن حقل إلى حقل، وفي الجملة: هي ما يفتقر إليه الإنسان ويُضطر إليه، ويسعى في طلبه.

ثم إن هذه الحاجات قد يحتاجها كل أحد، وتفتقر حياته لوجودها، وقد يحتاجها مجموع الناس، لا باعتبار أفرادهم. والاحتياجات من حيث طبيعتها غير متناهية، ومن حيث ذاتها فهي مختلفة بناء على عوامل الزمان والمكان والحال.

أما الزمانية: فهو بالنظر إلى المسار الزمني، فما كان قبل عدة سنوات احتياجاً قد لا يكون اليوم كذلك، والعكس، ولا يمكن تحديد المسار الزمني

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١١٤).

(٢) الموافقات (٢/ ٢١).



بوقت معين، بل قد يكون عشرات السنين، وقد يكون لحظات.
وأما المكانية: فهو بالنظر إلى الظرف المكاني، فما يمكن تصنيفه في بقعة ما بأنه احتياج، قد لا يكون كذلك في بقعة أخرى، رغم اتحاد المسار أو الظرف الزمني.

وأما الحال: فهو بالنظر إلى حالة كل إنسان على حدة، أو كل مجتمع على حدة، فما يمكن أن يصنفه هذا الشخص أو المجتمع على أنه احتياج، قد لا يكون كذلك عند شخص أو مجتمع آخر.

لكن ثمة احتياجات أساسية لا تتغير، فمسارها الزماني والمكاني والحالي واحد، وهي ما اصطلح على تسميتها بالاحتياجات الإنسانية الأساسية.
وتعد نظرية (ماسلو)، هي أشهر نظرية في تحديد هرم الاحتياجات الإنسانية الأساسية، وقد جعلها وفق التسلسل التالي^(١):

١ - احتياجات فيسيولوجية: ويُقصد بها الحاجات الأساسية لحياة الإنسان أو لبقائه كإنسان فحسب، وهي أهم الاحتياجات على الإطلاق، وهي نقطة الانطلاق لبقية الاحتياجات، ومنها الأكل والشرب والهواء، وغيرها مما يستحيل بقاء الإنسان بدونها، وهي تختلف من حيث الكم والكيف من إنسان لآخر ومجتمع لآخر.

٢ - احتياجات الأمن: وتعتمد في تحقيقها على إشباع الاحتياج الأول، وهي الاحتياجات الفسيولوجية، والاحتياج للأمن متنوع ومتعدد: أمن نفسي، وأمن فكري، وأمن جسدي. وهي من حيث إشباعها تختلف كذلك من إنسان لآخر، ومجتمع لآخر.

(١) هرم (ماسلو) للحاجات (Maslow's hierarchy of needs) هي نظرية نفسية قَدَّمَهَا العالم (أبراهام ماسلو) في ورقته البحثية «نظرية الدافع البشري» عام ١٩٤٣م، في دورية «المراجعة النفسية» العلمية. وقد بلور ذلك كله في كتابه: التحفيز والشخصية أو الدافع والبشرية، أبراهام ماسلو، ١٩٥٣م.

٣- احتياجات اجتماعية: وهي احتياجات الانتماء وبناء العلاقة البشرية بمختلف أنواعها، وبحسب هرم (ماسلو) فلا يمكن إشباع هذه الاحتياجات ما لم تُشَبَّع احتياجات الأمن.

٤- احتياجات التقدير: وهي احتياجات منصبية لكل فرد على حدة، وهي من حيث التقسيم لا تختلف عن سابقتها، فتختلف باختلاف الشخص والمجتمع، حيث يسعى الفرد للإحساس بالثقة والاحترام والتقدير من قبل الآخرين.

٥- احتياجات تحقيق الذات: حيث يسعى الفرد لتحقيق ذاته باستخدام مهاراته وقدراته، ومن أمثلته: حب الظهور، والحرية، والاستقلالية. ومع أن النظرية قد قوبلت بانتقادات كبيرة، خصوصاً من حيث منطلقها الهرمي، ومن حيث تصورهما للانتقال الحتمي للاحتياج التالي فور إشباع الاحتياج السابق، وكذا عدم تحديدها لمستوى الإشباع في كل هرم، إلا أنها تبقى نظرية صالحة في حدها الأدنى.

لكنها أغفلت الجانب الروحي في الإنسان، وهو جانب بالغ الأهمية، بل إنه يتدخل بشكل مباشر في إشباع الاحتياجات السابقة وإن بنسب متفاوتة. وعلى كل فسوف نناقش أهم أساسيات الاحتياجات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، وكيف جعلها مرتكزاً ومنطلقاً لبناء عوامل بقاء الإنسان وإصلاح الأرض، وإعمارها.

• أسلوب القرآن في عرض مرتكز الحاجات الإنسانية:

يعرض القرآن الكريم الحاجات الأساسية للإنسان بصور عديدة، من أبرزها صورة الامتنان والمقارنة، وجعلها منطلقاً ومرتكزاً إما لقضية التوحيد، أو لقضية الإصلاح والنهضة العامة الشاملة.

وسنعرض هنا أهم تلك الاحتياجات التي عرّج عليها القرآن، وهي:

١ - الحاجة إلى الطعام، وما يتعلق به.

٢ - الحاجة إلى الأمن، وما يتعلق به.

٣ - الحاجة إلى العلاقة الاجتماعية.

٤ - الحاجة الروحية (العبادة).

وهي قريبة من تسلسل هرم ماسلو سالف الذكر، لكننا اقتصرنا على الثلاث الأولى من هرمه، والرابعة (الحاجة الروحية) تغطي بقية ما ذكره، فالعبادة تشمل ذلك كله، فهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة^(١).

وبدءاً، فقد غطّت سورة قريش ذكر هذه الاحتياجات كلها، ونهت على أهميتها في سياق الامتنان وبيان فضل الله ورحمته، قال تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ۚ ۱﴾ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ ۲﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ ۳﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۚ﴾ [قريش: ١-٤].

- ففي الحاجة إلى الطعام: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ ۚ﴾.

- وفي الحاجة إلى الأمن: ﴿وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۚ﴾.

- وفي الحاجة إلى العلاقة الاجتماعية: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ۚ﴾.

- وفي الحاجة الروحية: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ﴾^(٢).

بيد أن القرآن الكريم قد تناولها متفرقة أيضاً في مواطن عديدة، وبأساليب مختلفة، كما سنرى.

والقرآن قد دعا، بل أمر بإشباع الحاجات الإنسانية الأساسية وغيرها،

(١) مجموع الفتاوى (١٤٩/١٠).

(٢) أفدت هذه اللفظة من مقالة قصيرة منشورة على شبكة الإنترنت، بعنوان: تصنيف الحاجات الإنسانية في ضوء سورة قريش، د. محمد محمود بن أحمد محبوب: وهو خبير لغوي موريتاني.

وسنأخذ أمثلة على ذلك من تناول القرآن للحاجيات الأربع السابقة.

١ - الحاجة إلى الطعام وما يتعلق به:

سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ كُلِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِيَتَنَاوَلَ مِنْهَا حَتَّى يَشْبَعَ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وذلل له كل ما في الأرض ليسعى فيها ابتغاء منفعه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] أي: جعلها سهلة تستقرون عليها. والذلول: المنقاد الذي يذل لك، وهو اللين والانقياد. أي: لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة. وفيه إشارة إلى التمكن من الزرع والغرس وشق العيون والأنهار وحفر الآبار، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمر بإباحة، وفيه إظهار الامتنان^(١).

وفي الطعام والشراب على الخصوص قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وكلوا واشربوا: مطلق يتناول الأوقات والأحوال ويتناول جميع الأطعمة والمشروبات، فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحل في كل الأوقات وفي كل الأطعمة والمشروبات إلا ما خصه الدليل... لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة^(٢).

ولذلك جعل كل ما في الأرض حلالاً مباحاً: ﴿يَنَاطِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ أُمَّةٌ فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

واشترط أن يكون حلالاً طيباً: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُم مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَأَمَّا الْفَوَاحِشُ الَّتِي أُحِلَّ لَهَا فَمِنْ دُونِهَا فَكَبِيرٌ﴾ [المائدة: ٤].

ومنع ما فيه مضرة أو خبث: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْفَوَاحِشَ﴾ [المائدة: ٤].

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢١٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٠).

الْخَبِيثَ ﴿[الأعراف: ١٥٧].

وقد حصرت بعض الآيات أنواع تلك الممنوعات والجهة التي مُنعت وحُرِّمت لأجلها، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فذكرت الآيات أنواعاً من الممنوعات المُحرَّمات، وهي:
الخنزير: وهو الحيوان المعروف، والحُرمة فيه لاستقذاره من جهة، ولكونه شعاراً لأهل الباطل.

والميتة: وهو الحيوان الذي مات حتف أنفه من غير ذكاة، والمنع فيه من جهة الإضرار.

وما أهل لغير الله به: وهو الحيوان الذي ذبح وذكر عليه اسمٌ غير اسم الله تبارك وتعالى، كأسماء الأصنام والطواغيت، والمنع فيه من أجل التوحيد.

ويدخل في ذلك ذبائح المشركين من لا دين له والملحدين والمجوس والمرتدين، وسائر الكفار من غير الكتابيين؛ لأنها مما أهل لغير الله به.

أما ذبائح أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، فالأصل فيها الحل، وقد نص القرآن على إباحتها وحلها: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

والممنخقة: وهي الحيوان الذي يموت بالخنق، بفعله أو بفعل غيره، والمنع فيه من أجل الإضرار.

والموقوذة: وهي الحيوان الذي يموت نتيجة الضرب بحديدة أو حجر أو غير ذلك مما يقتل بثقله، والمنع فيه من جهة الإضرار.

والمتردية: وهي الحيوان الذي يسقط من مكان عالٍ أو يقع في حفرة أو نحوهما فيموت، والمنع فيه من جهة الإضرار.

والنطيحة: وهي الحيوان الذي يموت بسبب النطح، والمنع فيه من جهة الإضرار.

وما أكل السَّبُع: وهو الحيوان الذي افترسه سُبُع أو طير جارح غير معد للصيد، والمنع فيه بسبب الإضرار، ولتشوُّف الحيوان الصائد لحقه.

وما ذُبِح على النصب: النصب: حجارة حول الكعبة كان المشركون يذبحون عندها، ومثله: ما تُقَرَّب به لغير الله ﷻ، والمنع فيه من أجل التوحيد.

والدم المسفوح: وهو الدم المُراق من الحيوان نتيجة ذبحه، والمنع فيه من جهة الإضرار والاستقذار.

والمستقذرات: وهي أنواع، ويدخل منعها تحت قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَإِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]: كالفأرة، والجردان، والحشرات التي

تعافها النفوس وما في حكمها، والمنع فيه من جهة الاستقذار، وقد يكون من جهة الإضرار أيضًا.

المُضِرّات: كالعقرب والأفاعي والزواحف السامة والكلاب العاقرة، وما في حكمها، والمنع فيها ما جهة الإضرار.

والمُسكِرات: ويدخل فيها الخُمرة كما نصت الآية، وكل مُسكِر، والمنع فيه من جهة الإضرار^(١).

(١) يُنظر في تفاصيل المحرّمات من الأطعمة والأغذية السابقة: تفسير ابن كثير (٣/ ١٤-٣٥٢)، =

وأنت ترى كيف أنه أباح كل شيء للإنسان، ثم منعه ما يضره، ذلك أنه يريد بقاء الإنسان ونمائه واستمراريته؛ ليعمر الأرض، ويقوم بمهمات الاستخلاف فيها. وإنما حرّم ما فيه ضرر لكونه يفسد الإنسان ويفسد نسله وطباعه، وقد تحدث القرآن عن أن الإنسان لو لزم طريق التوحيد، وأحسن العمل فيما استخلف له لفتح الله عليه بركات السماء والأرض: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

بل نصّ على الأكل بخصوصه فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]. لكن القرآن، وهو يبيح كل شيء للإنسان -إلا أصنافاً معدودة من أجل الإنسان أيضاً- قد حذره من الفساد في الأكل والشرب كذلك! نعم، يعرض الحاجات الأساسية للإنسان، ويدعو لإشباعها، لكنه كذلك يمنع الفساد فيها وإفساد المجتمع بسببها، مستغلين كونها من الحاجيات الأساسية!

لقد منع القرآن أهم وسيلة للإفساد في هذه الحاجة الأساسية، وهي الإسراف: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]: فأحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً، فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سد الجوع وسكّن الظمأ، فمندوب إليه عقلاً وشرعاً؛ لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس، وقدر الشُّبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطُعمان، وفي قلة الأكل منافع كثيرة، منها: أن يكون الرجل أصح جسماً، وأجود حفظاً، وأزكى فهماً، وأقل نوماً، وأخف نفساً، وفي كثرة الأكل كُظٌّ^(١) المعدة، ويتولد منه الأمراض

⁼ والذبايح والطرق الشرعية في إنجاز الذكاة، مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي، جدة، ٢ / ١٩٦٣ م.
(١) الكُظُّ: ما يعترى الإنسان عن الامتلاء من الطعام. ينظر: الصحاح (٣ / ١١٧٨).

المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل^(١). والإسراف كما هو مضر بالمسرف نفسه، فهو كذلك مضر بالمجتمع؛ لأنه يورث الأحقاد، ويولد النظرة الاستعلائية من جهة المسرفين، والدونية من جهة المجتمع، وهو الأمر الذي يورث في المجتمع أخلاقيات غير صالحة. والخلاصة: أن القرآن دعا لإشباع الحاجة الإنسانية من الطعام والشراب وما يتعلق بهما مما به قيام حياة الإنسان، لكنه في الوقت ذاته شدد في أن تكون من الحلال الطيب، وحذر من الإسراف فيه حتى لو كانت حلالاً طيباً! وفي انخرام هذه الأمور مفسد كبيرة على النفس والمجتمع، كما تقدم. وهذه الاحترازات والتحذيرات في هذه الحاجة الإنسانية الأساسية أغفلتها نظرية (ماسلو)، وهي من الانتقادات عليها.

٢ - الحاجة إلى الأمن، وما يتعلق به :

الأمن في القرآن الكريم قضية محورية، تناولها بصور عديدة، وفي مستويات متعددة.

والأمن ضد الخوف، وهو: عدم توقع مكروه في الزمان الآتي، وبتعريف أدق: هو ما به يطمئن الناس على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويتجه تفكيرهم إلى ما يرفع شأن مجتمعهم وينهض بأمتهم^(٢). والأمن للفرد وللمجتمع وللدولة من أهم ما تقوم عليه الحياة وتستقر شؤونها.

والقرآن الكريم تناول قضية الأمن بمفهومها الواسع، ودعا لإشباع هذه الحاجة، فتحدث عن الأمن النفسي، والأمن السياسي، والأمن العسكري، والأمن الجسدي، والأمن المجتمعي، وسوف نتناول ذلك بنوع تفصيل في

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٩١).

(٢) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٧١).

الفصل القادم إن شاء الله؛ إذ الأمن مع كونه حاجة أساسية إنسانية ارتكز عليها القرآن في بيان عوامل البناء والإعمار هو كذلك من أهم عوامل النهضة والبناء. فلا يمكن أن تتحرك عجلة البناء في أي أمة، ولا يمكن أن تستمر - في حال كانت قد وصلت لذلك - بدون الأمن.

فالأمن قسيم الإيمان في عملية الإصلاح والبناء الشاملة. والقرآن يدعو ابتداءً للتأمل في هذه القسمة، فالذي يستحق الأمن هو الذي حقق الإيمان: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿[الأنعام: ٨١-٨٢]: فالأحق بالأمن التام هو المتصف بالإيمان، الذي لم يقترب الظلم، وأعلى الظلم الشرك بالله ومنافاة التوحيد ومحاربته.

والقرآن بعدئذ يدعو للأمن النفسي وإشباعه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فلا يمكن للقلوب المضطربة أن تأمن، وإذا أرادت ذلك فالطريق هو الإيمان وذكر الخالق القاهر الكبير.

ويدعو القرآن للأمن في أداء العبادات، بل ويجعل الأمن شرطاً لأدائها، فأمر بالمحافظة على أوقات وأركان الصلاة، إلا إن لم يتحقق الأمن: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٣٨-٢٣٩].

وكذا في الحج: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ

تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿البقرة: ١٩٦﴾:

فإذا أمتتم: أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره^(١).

والفقهاء ينصون على الأمن في جميع العبادات وغيرها، وهو من القدرة والوسع التي هي شرط التكليف.

فالأمن مقصود به سلامة النفس والمال والعرض والدين والعقل، وهي الضروريات التي لا بد منها لقيام مصالح الدين والدنيا، وقد اتفق الفقهاء على أن أمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه شرط في التكليف بالعبادات؛ لأن المحافظة على النفوس والأعضاء للقيام بمصالح الدنيا والآخرة أولى من تعريضها للضرر بسبب العبادة^(٢).

وينص القرآن على أن الخوف وعدم الأمن من أكبر العوائق في طريق الإيمان والتوحيد واتباع طريق المرسلين: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فلا جرم إذن أن يدعو القرآن للإعداد في طريق استعادة الأمن، وبناء القوة الرادعة لمن يسعى لإفلاق السكينة العامة في المجتمع: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

بل إن الأمن هو واحد من غايات الاستخلاف في الأرض، ومطمع من

(١) تفسير السعدي (ص ٩٠).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٧٢).

مطامعها الكبيرة، ولا يمكن أن يكون نماءً وصلاًح وإعماراً بدونه، وهذا ما نَبَّه عليه القرآن الكريم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ولذلك كان الأمن هو الخطوة الأولى في طريق الرخاء المجتمعي، وهذا ما جعل إبراهيم عليه السلام يقدمه على سواه في دعواته الخالدة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. وهذا من الأمن الاقتصادي، فكأن الثمرات والرزق لا يمكن أن تحل في بلد ليس فيه أمنٌ، وهذا واقع مخبر عنه في تاريخ الأمم، ومشاهد نراه بأعيننا: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. فالأمن في هذه الآية: السلامة من تسلط العدو، والاطمئنان: الدعة وهدوء البال. وقدم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه، كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق.

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾: يفيد أن تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش. والرزق: الأقوات. والرغد: الوافر الهنيء^(١).

فيأتيها أرزاقها من أماكن كثيرة، ولا يمكن أن يكون ذلك بلا أمنٍ، ولذا نبه عليه في ابتداء الآية، وجعل عدمه عدماً لكل ذلك كما في ختام الآية.

(١) التحرير والتنوير (٣٠٦/١٤).

٣- الحاجة إلى العلاقة الاجتماعية :

من معاني اشتقاق اسم الإنسان: أنه من الأنس نقيض الوحشة، لأن بعضهم يأنس إلى بعض، ولذلك قيل: وما سُمِّي الإنسان إِلَّا لأنَّسه^(١).

وعلاقة الإنسان بجنسه غريزة لا يمكن تجاوزها من حيث الأصل، كما لا يمكن أن تُبنى المجتمعات ولا أن يتصل نسل الإنسان ولا يمتد إلا بهذه العلاقة.

وهذه العلاقة تأخذ أشكالاً كثيرة، كعلاقة الصحبة، والأبوة، والبنوة، والزوجية، والجيرة.. وغيرها من أنواع العلاقات.

وتمتد تلك العلاقة لِتَكُونُ الأسرة نواة المجتمع، ومن ثمَّ المجتمع بأسره. والقرآن الكريم حث على إشباع هذا الاحتياج الأساسي في الإنسان بجميع صورته وأشكاله.

وقبل التطرق لشيء من ذلك أحب أن ألفت إلى أن القرآن قد لَمَّح في آية الاستخلاف العظيمة في قصة بدء الخليقة إلى أن الإنسان يفتقر ويضطر إلى العلاقة الاجتماعية ببعضه، وذلك:

حين جعله خليفة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ومن شروط الاستخلاف الاستمرار، والاستمرار لا يمكن أن يكون إلا بالتناسل، والتناسل لا يمكن أن يكون إلا بالتزاوج، والتزاوج واحد من صور وأشكال العلاقة الاجتماعية.

وحين خلق معه زوجه مباشرة: وذلك قبل دخول الجنة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وهذا ملمح في شدة وحشة الإنسان مفردًا.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب (٦/٢).

لنعود إذن إلى صور وأشكال العلاقات الإنسانية التي اهتم القرآن بإشباعها كحاجة إنسانية أساسية، فمن ذلك:

﴿علاقة الزوجية: وقد عرضها القرآن بطرق كثيرة، إما على سبيل الامتنان أو على سبيل بيان قدرة الله تعالى على تكوين ذلك، أو غيرها من الطرق.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن وتشاكلكن وتشاكلونهن ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والسكون إليها، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: يُعْمَلُونَ أَفْكَارَهُمْ وَيَتَدَبَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ^(١).

ولهذه العلاقة حقوق وواجبات ومسؤوليات فصّل فيها القرآن والسنة النبوية، حتى إنه فصّل تفصيلاً دقيقاً جداً لا تكاد تجد مثله، فناقش ما قبل العلاقة وأثناءها ثم ما بعد علاقة الزوجية إن انقطعت، وأثار كل سبب، إلى غير ذلك. والمقصود هنا هو بيان اهتمام القرآن بإشباع هذه العلاقة فقط.

﴿علاقة الأبوة والبنوة: وهي علاقة متينة جداً، فأما علاقة الأبوة فقد جعلها القرآن في البيان عقب بيان حقوق التوحيد العظيم!

(١) تفسير السعدي (ص ٦٣٩).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]: أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾، وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ومن البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما، فإن ذلك من الكبائر، وعقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما، والأم أعظم من حيث حسن العلاقة والبر. وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾: خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى برّه؛ لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فالزَمَ في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزَمَه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليهما منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر.

وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستئصال عادةً، ويحصل الملل ويكثر الضجر، فيظهر غضبه على أبويه وتتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكره ما يظهره بنفسه المتردد من الضجر.

وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، والأُف: ما يكون فيه أدنى تبرم. والنَّهْر: الزجر والغلظة. والقول الكريم: ما كان ليناً لطيفاً، مثل: يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يسميهما أو يكتنيهما، ففي مناداة الأبوين بأسمائهما جفوة، لا تناسب هذه العلاقة الحانية.



ثم نقلت الآيات باهتمام أبلغ بهذه العلاقة: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]: فهذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتدلل لهما، والذل: هو اللين. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظره، فلا يحُد إليهما بصره؛ فإن تلك هي نظرة الغاضب.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]: فأمر تعالى عباده بالترحم على الآباء والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفقًا بك، إذ ولياك صغيرًا جاهلاً محتاجًا فأثراك على أنفسهما، وأسهرًا ليلهما، وجاعًا وأشبعاك، وتعريًا وكسواك، فلا تجزهما إن بلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، إلا أن تليّ منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم.

وخص التربية بالذكر في قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ ليتذكر الإنسان شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما^(١).

والمقصود أن القرآن تناول هذه العلاقة باستفاضة كمية وكيفية، وهي من أقوى العلاقات البشرية فطرةً وشرعًا، فالفطرة البشرية تنزع إليها، والشرع شدد في أهميتها ومراعاتها، ومن أهم دواعي ذلك أن لا يشوب هذه العلاقة فظاظة وغلظة تُزهد في ترك التزاوج حتى لا يستضعف الأبناء الآباء حال ضعفهم وكبرهم، فيهدد بسبب ذلك النسل البشري.

ولذلك فقد راعى القرآن هذه العلاقة واهتم بها حتى لو كان الأبوان على خلاف كبير مع الأبناء في أصل مضمون الاستخلاف، وهو التوحيد، لكن ذلك لا يعني تجاوز هذه العلاقة الكبيرة، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي

(١) بيان هذه الآيات العظيمة مأخوذ من تفسير القرطبي (٧/ ١٩١)، مع التصرف.

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ [لقمان: ١٥].

ولم يقل: وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم، فعقهما. بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف^(١).

إن تفكك هذه العلاقة يعني تفكك المجتمع، بل تفكك الجنس الإنساني كله، وهذا ما جعل هذه العلاقة فطرية في الأساس، وإنما جاءت الشرائع لتدعيمها.

🕌 علاقات اجتماعية أخرى: عرض القرآن لمجموعة من العلاقات الاجتماعية الأخرى التي دعا لإشباعها والاهتمام بها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

ففي هذه الآية مجموعة من العلاقات، بعد تعيين قضية التوحيد، وهي القضية الكبرى التي تتفرع منها كل قضية جزئية.

وفي هذا التسلسل البديع في الآية بيان أهمية ترابط جميع هذه العلاقات: فعلاقة التوحيد، علاقة العبودية، أهم العلاقات لأنها بالله ﷻ، لكن من تحقيق التوحيد الخالص بناء العلاقات المتزنة مع مخلوقاته بناءً على شرعه وما أوضحه ويّنه.

ولذلك، فإنه بعد ما أمر - سبحانه - بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقد مرّ

(١) تفسير السعدي (ص ٦٤٨).



معنا الكلام حول هذه العلاقة قبل قليل.

ثم: ﴿وَبِذَى الْقُرْبَى﴾ [النساء: ٣٦] إحساناً أيضاً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع رحمه بقوله أو فعله.

وهذه الجملة من أعم ما أطلقه القرآن الكريم في العلاقات المبنية على القرابة النسبية للإنسان.

أما ﴿الْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ [النساء: ٣٦] فقد مرَّ الحديث عنهم، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم والإحسان إليهم وحسن صحبتهم وبرّهم وجبر خواطرهم وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم.

وأما ﴿الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء: ٣٦] أي: الجار القريب فله حقان: حق الجوار وحق القرابة، وقد نشأ له الحقان من علاقتين: علاقة القرابة وعلاقة الجوار، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العُرف.

وأما ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] فهو: الذي ليس له قرابة، فنشأ له هذا الحق من جهة علاقة الجوار فقط. وكلما كان الجار أقرب باباً كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل؛ فهذا من دوام هذه العلاقة.

ومما أطلق القرآن من العلاقات أيضاً: ﴿الصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]: فقد يكون المقصود به الرفيق في السفر، أو الزوجة، أو الصاحب مطلقاً، ولعله أولى؛ فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة.

فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره،

وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد.

وأما ﴿أَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦] فقد تقدم أنه الغريب، وسواء احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين - لشدة حاجته وكونه في غير وطنه - بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وبإكرامه وتأنيسه^(١).

وأما ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]: فالمقصود من العبيد من الآدميين، والقرآن والإسلام وإن كانا دعيا لفكك العبيد وتحريرهم وتشوفاً لذلك، فإنهما لم يغفلا العلاقة ما دامت سارية، واهتما بأن تكون مبنية على حسن القصد والبر والإحسان.

وقد يكون معنى الآية الوصية بما ملكت الأيمان من البهائم والحيوانات، وهذا من أعظم ما يكون في اهتمام القرآن حتى بعلاقة الإنسان مع غيره، لتكون مبنية على الرفق والرحمة، في مقابل ما ينتفع به الإنسان من هذا الحيوان حيًّا وميتًا.

وعلى كلٍّ فمنشأ القرآن الكريم للاهتمام بهذه العلاقات مبني على ثلاثة أمور:

- القرابة، وما لها من حقوق وما عليها من واجبات، وما مضى من العلاقات دليل ذلك.

- التسخير، وذلك واضح من قول الله ﷻ: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّحْرُف: ٣٢] أي: يسخر الأغنياء للفقراء، والعكس، فيكون بعضهم سببًا لمعاش بعض.

- العلاقة الروحية الدينية، ومنشأها الصحبة الإيمانية والأخوة الدينية،

(١) يُنظر في بيان هذه الآية: تفسير السعدي (ص ١٨٨)، وقد أفدت منه بتصريف.

والقرآن حافل بالتأسيس لهذه العلاقة والإشادة بها، ومن أبلغ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرَات: ١٠]: فجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الأخوة؛ مبالغة في تقرير هذا الحكم، وهو مفيدٌ أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر^(١).

ثم إنه -القرآن- يبنى على هذه العلاقات الإنسانية مصفوفة من الواجبات والحقوق الحياتية التي ينطلق منها ويرتكز عليها في بناء عوامل النهضة والبناء وإعمار الأرض والسعي في إصلاحها، فمن ذلك:

أولاً: جعل القرآن الكريم هذه العلاقات سبباً للتكافل الاجتماعي، وقد مرّ معنا فيما استعرضنا من الآيات السابقة الدعوة للبر والإحسان باليتامى والمساكين والفقراء وغيرهم.

ثانياً: جعل القرآن العظيم هذه العلاقات سبباً في التناصر والتعاقد المفضي لإصلاح الأرض وعدم إفسادها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣].

فالعلاقة الإيمانية بعضها يشد بعضاً، وينصر بعضاً ويؤوي بعضاً، وإلا يفعلوا ذلك فإن الكفار يفعلونه، والنتيجة أن تكون فتنة في الأرض وفساد كبير! أما إن قاموا بذلك، أي بناء العلاقات الإيمانية القوية، في مقابلة تكتل الكافرين، فإنه يكون العكس، أي الإصلاح في الأرض.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/٢٤٣).

ثالثًا: جعل القرآن المجيد هذه العلاقات كذلك سببًا في التواصي بالإصلاح والإنفاق وإقامة الشعائر الدينية، وفيها جميعًا صلاح المجتمعات، ولذلك قال عن علاقات المفسدين بعضهم ببعض: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال عن علاقة المصلحين بعضهم ببعض: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذا كثير في القرآن الكريم، فهو يعرض الفريقين كتكتلين، يتخادم كل فريق في مقاصده وأهدافه ووسائله.

رابعًا: جعل القرآن العزيز هذه العلاقات سببًا للمودة والرحمة والعطف والإحسان، كما هو الحال في علاقة الأبناء بالآباء، والأزواج بالزوجات، والأغنياء بالفقراء، والمؤمنون مع بعضهم، وقد استعرضنا بعض الآيات الدالة على ذلك، وهذا كله من أهم وسائل إعمار الأرض، فالرحمة والتعاطف متى انتشرت قيمها في مجتمع تحركت فيه عجلة التنمية.

خامسًا: جعل القرآن الحكيم هذا العلاقات سببًا في بقاء نسل الإنسان واستخلافه، ومن ذلك علاقة الزوجية التي بها يبقى نسل الإنسان، وكذا علاقة المناسبة والمصاهرة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

وبقاء النسل من أعظم الإصلاح للأرض، ومحاولة العبث بهذه القضية من أعظم الفساد في الأرض، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

سادساً: جعل القرآن الحفيظ هذه العلاقات سبباً لكثير من الأحكام الشرعية، كأحكام المواريث، والوصايا، وأحكام الزوجية والطلاق، والولاء والبراء، والإنفاق والإمساك، وغيرها من الأحكام، وبإقامة الشرائع يصلح حال الأرض وتعمُر، وبالنكوص عنها تزول كثير من الخيرات، ويتدرج الفساد حتى يطغى على الأرض، وقد أشار القرآن إلى ذلك كثيراً، ومن ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

سابعاً: وقد جعل القرآن العلي هذه العلاقات سبباً لحفظ كثير من الحقوق الشرعية والدينية، ومن ذلك الإشهاد وحفظ الوصية ونقلها، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وكذا حفظ مال اليتيم والقيام عليه، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

وهذا يساعد على بقاء الحقوق لأهلها واستيفائها، فيضيّق خناق الشقاق والمنازعات وإفساد ذات البين، وفي ذلك ما فيه من تهئية أجواء المجتمع

للبناء والإعمار ومستوجبات النهضة.

ثامناً: جعل القرآن المبين هذه العلاقات سبباً في التواصي بالحق والصبر عليه، وبه يكون الفوز والصلاح والإصلاح، وبخلافه يكون الخسران والفساد، وهذا هو مضمون سورة العصر، التي هي على وجازتها من أعظم سور القرآن؛ لما تضمنته من المضامين العظيمة: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

والخلاصة: أن القرآن الكريم حث على إشباع الحاجة الأساسية للإنسان في جانب العلاقات، ونظمها، وجعلها منطلقاً ومركزاً لبناء الإنسان لحياته، وإعمار أرضه، والقيام بحق الاستخلاف الذي تحمّله.

٤ - الحاجة الروحية (العبادة)؛

عرض القرآن الكريم هذه الحاجة الأساسية للإنسان بصور وأشكال عديدة، من أهمها:

﴿بَيَانُ أَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى الْاِحْتِيَاجِ لِلْعِبَادَةِ، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿عَرَضُ أَمْثَلَةٍ وَصُورٍ مِنْ مِمَارَسَةِ الْإِنْسَانِ لِهَذَا الْاِحْتِيَاجِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿بَيَانُ أَنَّ وَاحِداً مِنْ أَسْبَابِ الشُّرْكِ وَمَجَانِبَةِ التَّوْحِيدِ، هُوَ تَشَوُّفُ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ لِلْعِبَادَةِ، وَقَدْ عَرَضَ الْقُرْآنُ ذَلِكَ بِاسْتِفَاضَةٍ، مِنْهَا: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا

إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فهم يريدون إلهاً يعبدونه، ويرونه ماثلاً أمامهم، حين رأوا غيرهم يصنع ذلك، وهذه الآية قد دلت على تشوُّف الإنسان للعبادة من جهتين: من جهة فعل القوم الذين يعكفون على أصنام لهم يعبدونها، ومن جهة حرص قوم موسى ﷺ أن يكون لهم ما يعبدونه كما يفعل أولئك القوم!

ومن ذلك عَرَضُ القرآن لأسباب الوقوع في الشرك ومنافاة التوحيد، وهو أن المشركين أرادوا أن يتوصلوا بعبادة هذه الآلهة إلى التقرب من الإله العظيم الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ومن أعظم صور عرض القرآن لحاجة الإنسان للعبادة بيانه أن مقصد خلق الإنسان هو إقامة عبادة الله ﷻ، بمفهومها الواسع: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]^(١).

واحتياج العبادة ولزوم طريقها الصحيح هو الهداية العظمى للإنسان، ولذلك يكرر المسلم الدعوة بها في كل يوم عشرات المرات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الفاتحة: ٥-٦]؛ ابتغاء أن يكون عبداً صالحاً في هذه الأرض.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/٥٦).

لا جرم إذن أن يكون الاحتياج للعبادة هو أهم الاحتياجات الإنسانية؛ لأنه الحكمة من خلقه، ولأن في تحقيق العبادة الصحيحة بمفهومها الواسع توفر جميع الاحتياجات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه: دعاء الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: فهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب^(١).

ولأهمية هذا الاحتياج الفطري في الإنسان، والحكمة الإلهية من خلقه واستخلافه، أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، وأقام الحساب والجزاء، وجعل الحياة الدنيا دار العمل والسعي، والدار الآخرة للجزاء والحساب. وشرع له أصنافاً من الشعائر يمارسها في عبادته، بل وجعل كل حياته عبادة متى ما قرر ذلك باختياره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فهو التجرد الكامل لله، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة: بالصلاة والاعتكاف، والذبح والخضوع، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالممات وما وراءه.

إنها تسبيحة التوحيد المطلق، والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات، وتخلصها الله وحده: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين... في إسلام كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يُعْبَدُها الله، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢٠).

في الواقع^(١).

وإذا كانت العبادة بهذا المفهوم الواسع الذي لا يخرج منه شيء في مناحي الحياة كلها، كان لنا أن نستنتج استنتاجين:

الأول: أن احتياج الإنسان للعبادة أهم من احتياجاته الأساسية الأخرى؛ لأنه بالقيام بحق العبادة بشكل سليم وصحيح تأتية بقية الاحتياجات، كما أسلفنا ذلك مستدلين بقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

الثاني: أن العبادة الحقيقية من حيث أصلها مطلب فطري وشرعي تدعو لإعمار الأرض وبنائها، فإعمار الأرض ودوام صلاحها عبادة في الأصل! إن العبادة بمفهومها الواسع الشامل هي العمل الدؤوب المستمر، وهي معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وهي التطبيق الكامل لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وهي الطريق إلى التمكين، وهي هدفه في الوقت ذاته: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فلا يمكن أن يتم تمكين كامل وشامل وواسع بلا تحقيق العبادة الواسعة

(١) ينظر: ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٠).

والشاملة في مناحي الحياة، ولا يمكن أن يستمر التمكين ما لم يكن محافظاً على إقامة العبادة ومستمرّاً فيها.

والخلاصة: أن القرآن الكريم حين تحدث عن الاحتياجات الأساسية للإنسان اتخذ عدة أساليب، منها:

الأول: عرض تلك الاحتياجات في سياقات مختلفة.

الثاني: دعا لإشباع تلك الاحتياجات.

الثالث: شدد على أن تكون طريقة إشباع تلك الاحتياجات منضبطة بمعاييره.

الرابع: جعل الدعوة لإشباع تلك الاحتياجات الأساسية مرتكزاً لدعوته الأساسية لإعمار الأرض والسعي في تحصيل عوامل البناء والنهضة.

الفصل الثالث

عوامل النهضة في القرآن الكريم

- أ- العوامل المدنية للنهضة في القرآن الكريم.
- ب- العوامل السياسية للنهضة في القرآن الكريم.
- ج- العوامل الاقتصادية للنهضة في القرآن الكريم.
- د- العوامل العلمية للنهضة في القرآن الكريم.
- هـ- العوامل العسكرية للنهضة في القرآن الكريم.
- و- العوامل الاجتماعية للنهضة في القرآن الكريم.
- ز- العوامل الروحية للنهضة في القرآن الكريم.
- ح- العوامل الأخلاقية للنهضة في القرآن الكريم.

الفصل الثالث

عوامل النهضة في القرآن الكريم

أ- العوامل المدنية للنهضة في القرآن الكريم:

• الاهتمام بالنسل وتحفيز المجتمع على الإنتاج البشري:

النَّسْلُ في اللغة: الولد، وفي المقاييس: النون والسين واللام أصل صحيح يدل على سَلَّ شيء وانسِلاله. والنسل: الولد؛ لأنه ينسَل من والدته، والنسل من اللبن: ما يخرج منه، وتناسلوا: ولد بعضهم من بعض^(١).

والمقصود هنا نسل الإنسان، أي: ولده، فالإنسان هو الخليفة على هذه الأرض، وهذا يعني أنه لا بد وأن يبقى على هذه الأرض، ويتكاثر ويتناسل، ليقوم بواجب الخلافة التي تحمّلها.

ولذلك كان الحفاظ على نسل الإنسان مقصداً قرآنياً، وهو كذلك مقصد من مقاصد دين الإسلام العظيم، فقد جاء القرآن والإسلام لحفظ ضروريات بقاء الحياة وعمارتها، «ومجموع الضروريات خمسة، وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملة»^(٢).

وقد أوصى القرآن الكريم بمجموعة كبيرة من الوصايا في سبيل بيان أهمية المحافظة على النسل البشري والتحفيز على استمراريته، وطرح هذه الوصايا بصور متنوعة، وسوف نستعرض بعضها هنا بشيء من البيان، فمن ذلك:

الصورة الأولى:

النهي الجازم عن إهلاك النسل، وعدُّ ذلك من الإفساد في الأرض،

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٤٢٠)، و (٢/ ٣٤٧).

(٢) الموافقات (٢/ ٢٠).

وعلاوة على الإعراض عن تدابير الله تعالى وشرعه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

وهذه الآية أصل في وجوب المحافظة على النسل وجوباً شرعياً؛ فإن إهلاكه فساد، وهو من عمل المفسدين، والله لا يحب الفساد.

وهي مكملّة لبيان مراد الله في الأرض كما دلت عليه آية الاستخلاف ومحاورة الملائكة، «فقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾» [البقرة: ٣٠] دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها، وإلا لما كان للاستفهام المشوب بالتعجب موقع، وهم علموا مراد الله ذلك من تلقيهم عنه سبحانه، أو من مقتضى حقيقة الخلافة، أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقائها إلى أمد، وقد دلت آيات كثيرة على أن إصلاح العالم مقصد للشارع؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، وهذه الآية التي نحن بصدددها: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]»^(١).

وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك، والآية في سياقها دلت على مجموعة من الأمور، منها:

الأول: أن المحافظة على النسل أمر شرعي أمر الله تعالى به، ومقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، وواحد من محاور القرآن الكريم ومقاصده.

الثاني: أن إهلاك النسل من أوضح وأكبر مظاهر الإفساد في الأرض،

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٣).



ولذلك عَقَّبَ به بعد ذكر الإفساد فيها.

الثالث: أن المفسدين في الأرض بإهلاك النسل قد يستخدمون لغة ناعمة وودودة، في سبيل تنفيذ مخططاتهم، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤]، ومن هذا ما قد نسمعه من دعوات تحديد النسل أو حتى تنظيمه، وقد يُعْجَبُ بها الكثيرون دون التنبه لمراميها.

الرابع: أن الساعين في إهلاك النسل من أشد الخصوم وألدهم: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، و«ألد الخصام: الشديد الخصومة... والمعنى أشد المخاصمين خصومة، أي هو ذو جدال، إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة، وباطنه باطل»^(١).

الخامس: أن الإفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل جاء عقب التولي: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وفي معنى التولي في الآية قولان: أحدهما: معناه: وإذا انصرف من عندك سعى في الأرض بالفساد، والثاني: إذا تولى، أي: إذا صار واليًا فعل ما يفعله ولادة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل: يُظْهِرُ الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل^(٢).

وكلا المعنيين واقع، فالفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل نتيجة متوقعة للإعراض عن شرع الله ﷻ ودينه وترك منهج القرآن، وهي كذلك نتيجة للسلطة الفاسدة التي تمارس الظلم والطغيان، ووسائل الفريقين كثيرة وظاهرة. السادس: قوله: ﴿سَعَى﴾ أي: اجتهد في إيقاع القتال، وأصل السعي هو

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٣/ ١٦).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٥/ ٣٤٧).

المشي بسرعة، ولكنه مستعار هنا لإيقاع الفتنة والتخريب بين الناس^(١).

السابع: قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: ظرف لمكان فساد، وعمم الأرض مع أنه قد يفسد في بقعة صغيرة منها؛ لأن الفساد مهما وقع صغيراً فإنه يؤثر في جميع الأرض، وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

الثامن: قوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]: إما أن يكون إهلاك الحرث والنسل قسيماً للفساد، أو أن يكون الفساد في الأرض مجملاً، وإهلاك الحرث والنسل تفصيلاً للفساد المجمل.

التاسع: قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾: قيل أن الحرث يقع على كل ما يُحْرَثُ ويُزْرَع من أصناف النبات، وقيل أن الحرث هو شق الأرض، ويُقال لما يشق به: مَحْرَث، وقيل أن المراد بالحرث: النسوان، لقوله تعالى: ﴿نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقيل أن المراد بالحرث: الرجال، فقد فسروا الحرث بشق الأرض، إذ الرجال هم الذين يشقون أرض التوليد^(٢).

وعلى كل الاحتمالات، فإنه سواء كان المراد الزروع والثمار أو النسوان أو الرجال، فكله يؤدي إلى نتيجة واحدة، وهي إفساد الأرض، وكل واحدة منفردة من هذه تؤدي بالضرورة للأخرى، فإهلاك الزروع والثمار والإفساد فيها يوصل بالضرورة لإهلاك الرجال والنساء، وإهلاك النساء يوصل بالضرورة لإهلاك الزروع والثمار والرجال، وإهلاك الرجال يوصل بالضرورة لإهلاك الزروع والثمار والنساء.

العاشر: وأما قوله: ﴿وَالنَّسْلَ﴾: فهو إهلاك الولد، وسواء كان على عمومته، أي ولد، فيدخل فيه ولد الإنسان والحيوان، أو خاصاً بولد الإنسان، فكل المعنيين محتمل، ونسل الإنسان داخل دخولاً أولياً فيه، والسعي في إهلاك

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر: المرجع السابق.

نسل الإنسان يعني السعي في إهلاك الأرض كلها؛ فهو المستخلف على القيام بشؤون الأرض.

ويدخل في عموم إهلاك النسل كل بني الإنسان، بلا قيد؛ فكل إهلاك للإنسان بصفته إنساناً فهو سعي في الفساد العظيم.

ويخرج من ذلك إهلاك الإنسان بموجب القصاص؛ لأنه من إصلاح الأرض، أو مَنْ دخل تحت طائل حكم شرعي يحتم قتله، أو الكافر المحارب؛ فهذا كله وإن كان إهلاكاً، لكنه لأمر الإصلاح لا الإفساد.

الحادي عشر: على جميع الوجوه السابقة فالمراد ببيان أن ذلك الفساد فساد عظيم، لا أعظم منه؛ لأن المراد منها إما إهلاك النبات والحيوان، أو إهلاك الحيوان بأصله وفرعه، وعلى الوجهين فلا فساد أعظم منه^(١).

الثاني عشر: قوله: ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]: من الألفاظ الفصيحة جداً الدالة - مع اختصارها - على المبالغة الكثيرة^(٢). من حيث الكم والكيف، فيدخل فيها من حيث الكم كل حرث وزرع ونابت، ومن حيث الكيف أن مجرد قصد إهلاك هذه الأمور يُعد فساداً في الأرض كلها.

الثالث عشر: أن الآية دلت على غرض الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، لكنها لم تدل على حتمية وقوع ذلك، فيبقى أن الحق والباطل في صراع، وأن الإصلاح والإفساد في نزاع، فكما أن المفسد يريد إهلاك الحرث والنسل، فالمصلح يتبغي نماء الحرث واستمرار النسل، ففيها إشارة إلى حتمية التدافع.

الرابع عشر: الختم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] دل على أمرين: الأول: أن إهلاك الحرث والنسل فساد كبير. والثاني: أن الله ﷻ لا يحب هذا الفساد، ولا يرضاه رضاً شرعياً، فهو يكرهه، ويأمر بكرهه والسعي لمحاربة مظاهره.

(١) ينظر: تفسير الرازي (٥/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر المرجع السابق (٥/ ٣٤٨).

الصورة الثانية :

النهي عن الرّهبة، وهي رفض نكاح النساء والتزواج، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]: دلت هذه الآية على أن الرّهبة غير مكتوبة من الله عليهم^(١)، بل أمر الله بالتزواج لبقاء نسل الإنسان واستمراريته، وترجمة لهذه الآية الكريمة بين النبي ﷺ أن الرّهبة ليست منهج القرآن الكريم، ولا هي من صفات المصلحين، فقد ورد أنه: «جاء ثلاثة رهط إلى ثبوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها^(٢)، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأنفأكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأزفد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٣).

بل منع النبي ﷺ التبتل وردّه، وهو الانقطاع عن النساء وترك الأزواج، ونهى عن الاختصاص، وهو قطع الخصيتين اللتين بهما قوام النسل أو تعطيلهما عن عملهما^(٤).

وأبعد من ذلك حث على الزواج، في تطبيق كامل لأوامر القرآن ومقاصده في تكثير النسل واستمراريته، فقال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ^(٥) فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ

(١) يُنظر في ذلك: تفسير الطبري (٤٢٨/٢٢)، وتفسير القرطبي (٢٦٣/١٧).

(٢) تقالوها: عدوها قليلة.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، (٥٠٧٤)، (٥٠٧٥)، ومسلم (١٤٠٢).

(٥) الباءة: هو الجماع، فتقديره من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤنة وهي مؤن النكاح فليتزواج ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنة فعله بالصوم ليقطع شهوته ويقطع شر منته كما يقطع =

بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ^(١).

وكان رسول الله ﷺ يأمر بالبائة، وينهى عن التبتل نهياً شديداً، ويقول: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ؛ إِنِّي مُكَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

والمقصود أن القرآن لم يقبل التبتل أو الرهينة، بل دعا للتزواج وتكثير النسل، وطبق النبي ﷺ ذلك واقعاً، ودعا أمته لتطبيقه.

لقد جاءت تعليمات القرآن مواكبة للغريزة الإنسانية الجنسية، وكذا لحبه للتكاثر، وممانعة لإفساد هذه الصفة، بل عملت على ترشيدها وتصويبها.

وحين حادت النصارى عن دين المسيح ﷺ، انتكس رجال الدين عن هذه الفطرة الإنسانية، فمنعت طائفة منهم الزواج رهينةً، لكنهم وقعوا في عدة نكسات، وانتشرت فيهم الرذيلة، ومازلنا نسمع أخبار فضائح مئات الرهبان بقضايا التحرش بالأطفال في أكثر الكنائس، وفي بلدان متعددة^(٣). حتى عادت بعض الكنائس إلى إتاحة الزواج لقساوستها.

ورغم اعترافهم بأنها ليست عقيدة تلقفوها، بل حالة تاريخية استمرؤوها^(٤) -ومع تقدم الحضارة الأوروبية ونهضتها في عدة مجالات- إلا أنهم ما زالوا في هذا الجانب يؤمنون بأن الزواج للقيس معيب، وأنه ينبغي أن يبقى بلا زواج!

= الوجاء. والوجاء: هو رض الخصيتين والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة ويقطع شر المني كما يفعله الوجاء. ينظر: صحيح مسلم، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي (١٠١٨/٢)، تحت حديث رقم (١٤٠٠).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦١٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٤/ ٢٥٨) وقال: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن.

(٣) ينظر: تقرير موثق حول هذه القضايا، منشور على موقع الجزيرة على الإنترنت، بعنوان: بالأرقام والدول.. فضائح التحرش بالأطفال تلاحق الرهبان: <https://cutt.us/K7ux4>

(٤) ناقشت هذه القضية تاريخياً وعقدياً وآثارها، ساندرابيل، المحاضرة في علم الانثروبولوجي في جامعة درهام، في كتابها: الرهينة والثقافة والمجتمع.

لذلك نُصر على القول بأن النهضة الأوروبية جزئية غير كلية، ولم ولن تكون شمولية.

الصورة الثالثة :

النهى عن قتل النسل ووأده، تحت أي مبرر أو ذريعة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والإملاق: الفقر، أي: لا تتدوا -من الموءودة- بناتكم خشية الفقر؛ فإني رازقكم وإياهم، وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، كما هو ظاهر الآية... لأن الوأد يرفع الموجود والنسل^(١).

وكون الفقر علة لقتل الأولاد يقع على وجهين: أن يكون حاصلاً بالفعل، وهو المراد في هذه الآية، وهو الذي تقتضيه (من) التعليية، أو أن يكون متوقع الحصول كما قال تعالى في آية (سورة الإسراء): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ لأنهم كانوا يئدون بناتهم إما للعجز عن القيام بهن وإما لتوقع ذلك. وقوله: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ جملة معترضة مستأنفة؛ علة للنهي عن قتلهم، وإبطالاً لمعذرتهم؛ لأن الفقر قد جعلوه عذراً لقتل الأولاد، ومع كون الفقر لا يصلح أن يكون داعياً لقتل النفس، فقد بين الله أنه لما خلق الأولاد فقد قَدَّرَ رزقهم، فمن حماقة أن يظن الأب أن عجزه عن رزقهم يخوله قتلهم، وكان الأجدر به أن يكتسب لهم.

وذكر الله رزقهم مع رزق آبائهم، وقدم رزق الآباء للإشارة إلى أنه كما رزق الآباء، فلم يموتوا جوعاً، كذلك يرزق الأبناء، على أن الفقر إنما اعترى الآباء فلم يُقتل لأجله الأبناء؟!^(٢).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٣٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٥٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وهذه الآية كالأية السابقة من حيث الإجمال، وقد اتفقت معها في النهي عن قتل النسل، والفارق بينها وبين الآية السابقة التي في سورة الأنعام من وجهين:

الأول: أنه قيل هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ وقيل في آية سورة الأنعام: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، فآية الأنعام تفيد حصول ما خافوه من فقر، وآية الإسراء تفيد توقعهم وخشيتهم من وقوع الفقر، وقد مرَّ بيان ذلك.

الثاني: فمن أجل هذا الاعتبار في الفرق للوجه الأول، قيل في آية الأنعام: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد؛ لأن الإملاق الدافع للوَأَد المحكي به في آية الأنعام هو إملاق الآباء فقدم الإخبار بأن الله هو رازقهم وكَمَّل بأنه رازق بناتهم.

وأما الإملاق المحكي في هذه الآية -آية سورة الإسراء- فهو الإملاق المخشي وقوعه، والأكثر أنه توقع إملاق البنات، فلذلك قدم الإعلام بأن الله رازق الأبناء، وكَمَّل بأنه رازق آبائهم: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وهذا من نكت القرآن^(١).

ثم بينت الآية أن الفساد بقتل النسل كان من أعظم الأخطاء وأكبرها: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾: فهذه الجملة تأكيد للنهي وتحذير من الوقوع في المنهي.

وأكد بـ ﴿إِنَّ﴾ لتحقيقه؛ ردًّا على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أن وأد البنات من السداد، ويقولون: دفن البنات من المكرمات!

(١) ينظر: المرجع السابق (١٥/ ٨٨).

وأكد أيضًا بفعل ﴿كَانَ﴾ للإشعار بأن كونه إثمًا أمرٌ استقر.

وقوله: ﴿خِطَاءً﴾: قرئت بثلاث قراءات:

الأولى: ﴿خِطَاءً﴾ -بكسر الخاء وسكون الطاء-، مصدر (خِطِئَ)، إذا أصاب إثمًا، ولا يكون الإثم إلا عن عمد، أي أن قتل النسل والإفساد فيه محض إثم عمد.

الثانية: ﴿خَطَاءً﴾ -بفتح الخاء وفتح الطاء-، والخطأ ضد الصواب، أي أن قتلهم محض خطأ ليس فيه ما يعذر عليه فاعله.

الثالثة: ﴿خِطَاءً﴾ -بكسر الخاء وفتح الطاء وألف بعد الطاء بعده همزة ممدودًا-، وهو (فِعَال) من (خِطِئَ) إذا أجرم، وهو لغة في (خِطْءَ)، وكأن (الفِعَال) فيها للمبالغة^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

والموءودة: المدفونة حية، وكذلك كانت العرب تفعل ببناتها، كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه، فعاب الله ذلك عليهم^(٢).

وصنيع العرب هذا يذكرنا بما تفعله الحضارة الأوروبية والغربية في عصرنا هذا، فهم يهتمون بتغذية الكلاب على الخصوص، والحيوان بشكل عام، ثم إنهم يفسدون في الأرض بقتل النسل؛ بسنّهم القوانين التي تجيز عمليات الإجهاض، وأصبح هذا عامًّا فيهم، بل يحاولون منذ قرنٍ فرضه على بلاد المسلمين أيضًا.

أما ما الذي حمل العرب حينها على وأد البنات؟ فهو الخوف من لحوق

(١) الأولى: قراءة الجمهور، والثانية: قراءة ابن ذكوان، والثالثة: قراءة ابن كثير. ينظر: المنح الإلهية في جمع القراءات السبع (٢٧٩/٥)، والتحرير والتنوير (١٨٨/١٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٤٧/٢٤).



العار بهم من أجلهم، أو الخوف من الإملاق، وهو الفقر، كما تقدم^(١).
وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]: وهذا من سفههم وضلالهم، فقد زَيْنَ لكثير من المشركين والمفسدين في الأرض شركاءهم -أي: رؤسائهم وشياطينهم- زينوا لهم قتل أولادهم، وهو: الوأد، كما تقدم، فيدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين الذين يريدون أن يُرْذَوْهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاءهم يزينونها لهم حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة^(٢).
وخلاصة ما دلت عليه الآيات الكريمات السابقة:
أولاً: أن قتل النسل بأي وسيلة جريمة محرمة، حرّمها الله ﷻ في كتابه بعدة آيات.

ثانياً: أن الحامل لقتل النسل قديماً كان ثلاثة أمور:

الأول: الوقوع في الفقر.

الثاني: خشية الوقوع في الفقر.

الثالث: خوف لحوق العار.

وقد ردّ القرآن على ثلاثة المزاعم هذه، فالله تعالى هو الرزاق، والرزق قضية خاصة به تعالى، وقد رزق الآباء من غير شيء، والشأن مثله في الأبناء.
وأما خوف العار فهو من تزوين المجرمين الكبار لهم، من الإنس والجن،

(١) ينظر: تفسير الرازي (٣١/٦٦).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص ٢٧٤).

ثم إن حسن التربية وبث الإيمان في الأبناء كفيل بإنباتهم نباتًا حسنًا بعيدًا عن جوالب العار.

ثالثًا: الملاحظ أن وأد النسل في عصرنا هذا قد اتخذ شكلًا آخر، وهو الإجهاض الذي انتشر في بلاد أوروبا والغرب عمومًا، حتى أجازته أنظمتهم وقوانينهم، بل وصل الأمر إلى جعله حقًا عبر منظمة الأمم المتحدة. وهذا يجرنا إلى الحديث عن الإجهاض، وهو الوأد العصري، والفساد والإهلاك للحرث والنسل في هذا الزمان.

والإجهاض لغةً: من جَهَضَ، والجيم والهاء والضاد أصل واحد، وهو زوال الشيء عن مكانه بسرعة، يقال: أجهضنا فلانًا عن الشيء، إذا نحيناه عنه وغلبناه عليه. وأجهضتِ الناقة إذا ألقت ولدها، فهي مُجهضٌ^(١).

واصطلاحًا: لا يخرج استخدام مصطلح الإجهاض عن معناه اللغوي، فهو إلقاء المرأة ولدها من بطنها، وكثيرًا ما يعبرون عن الإجهاض بمرادفاته كالإسقاط والإلقاء والطرح^(٢)، وبالإجهاض ينفصل الجنين عن أمه ميتًا^(٣).

وقد اتفقت كلمة فقهاء الإسلام على تحريم وتجريم الإجهاض بعد تخلُّق الجنين في بطن أمه ونفخ الروح فيه، أي بعد أن يكون عمره في بطن أمه (١٢٠) يومًا، لحديث: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ»^(٤).

فلا يُعلم خلاف بين الفقهاء في تحريم الإجهاض بعد نفخ الروح، فقد

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢/ ٥٦).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

نصوا على أنه إذا نفخت في الجنين الروح حرّم الإجهاض إجماعاً، وقالوا: إنه قتلٌ له، بلا خلاف^(١).

أما قبل نفخ الروح فقد اختلفت كلمة الفقهاء في حكم الإجهاض، وجمهور الفقهاء على تحريمه^(٢).

لذلك، فإن غالب البلاد الإسلامية والعربية مطبقة على تحريم الإجهاض، في أي مرحلة عمرية كان الجنين^(٣).

أما الدول الغربية: فكانت الدنمارك أول دولة تبيح الإجهاض مطلقاً سنة ١٩٣٣م، وتبعها سويسرا سنة ١٩٤٢م، ثم اليابان سنة ١٩٤٨م.

ثم تشيكوسلوفاكيا والمجر سنة ١٩٥٠م، ثم يوغسلافيا سنة ١٩٥١م، وكذلك بلغاريا وأيسلندا واليونان، ثم الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٥٥م^(٤).

ثم انفرط العقد، ولا ننكر بقاء بعض دول حضارة الغرب على تحريم هذه الجريمة بقاءً على الفطرة الإنسانية السوية.

ولا تخرج أسباب إباحة الإجهاض في هذا العصر عن تلك التي جعلها الجاهليون سبباً لوأد أولادهم، فيعللون الإجهاض غالباً بالجوانب الاقتصادية، وهو الإملاق بالتعبير القرآني، أو خشية الإملاق.

رابعاً: مما دلت عليه الآيات السابقات في تحريم إهلاك الحرث والنسل، أنها وضعت معالجة عقدية لأهم أسباب إهلاك النسل، وهو الفقر أو الخشية منه، وذلك أنها -الآيات- لفتت إلى أن الفقر مرتبط بقضية الرزق، وهذه القضية إلهية صرفاً؛ فهو الرزاق، رزق الآباء ولا يعجزه رزق الأبناء.

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٥٧/٢).

(٢) ينظر المرجع السابق (٥٨/٢) وما بعدها.

(٣) ينظر: الإجهاض في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، د. محمد وفاريسي (ص: ٢٤٠).

(٤) ينظر: المرجع السابق، وجرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال، د. رؤوف عبيد (ص: ٢٣٥).

خامسًا: دلت الآيات، خصوصًا آية سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، على أن عملية إهلاك النسل يسبقها تزيين وترويج، وهذا ما نلاحظه من دعاية إعلامية هائلة في هذا العصر لتزيين الإجهاض وإهلاك النسل، إما بداعي الجوانب الاقتصادية، أو الاهتمام بجمال المرأة، أو بداعي الحرية الشخصية والجسدية للمرأة!

سادسًا: قد أشارت الآية السابقة أيضًا إلى نتيجة هذا الإهلاك للنسل: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]: فالنتيجة هي الردى والهلاك.

سابعًا: كما أوضحنا أن السير في هذا الطريق خلط ولبس للدين، وليس قويمًا ولا مقبولًا مهما حاولوا تغليفه بذلك: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ثامنًا: من دلالات هذه الآيات الكريمة تشنيعها الكبير على مرتكب هذه الجريمة، جريمة إهلاك النسل، وذلك يتضح من معاني قراءات لفظة ﴿خِطَاءًا﴾ في آية سورة الإسراء، مع اجتماعه مع لفظة ﴿كَبِيرًا﴾ التي تدل مع ما في الآية من المؤكدات على اتساع جرم هذا الخطأ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وقد تحدثنا عن ذلك قريبًا.

تاسعًا: أما النتيجة الحتمية لقتل النسل ووأده فهي الخسران والخراب؛ الخاص والعام، الكوني والشرعي، وهذا ما قرره القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]: فبين ما لزمهم -بسبب قتل أولادهم- وهو الخسران، والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال، وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها

سبب تام في حصول الدم، وهي:

الأول: الخسران؛ وذلك لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد فإذا سعى في إبطاله فقد خسر خسراناً عظيماً، ويستحق على ذلك الإبطال الدَّم العظيم في الدنيا والعقاب العظيم في الآخرة.

أما الدم في الدنيا؛ فلأن الناس يقولون قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه وليس في الدنيا دَمٌ أشد منه.

وأما العقاب في الآخرة؛ فلأن قرابة الولادة أعظم موجبات المحبة، فمع حصولها إذا أقدم على إلحاق أعظم المضار به كان ذلك أعظم أنواع الذنوب، فكان موجِباً لأعظم أنواع العقاب.

الثاني: السفاهة: وهي عبارة عن الخفة المذمومة؛ وذلك لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر، والفقر وإن كان ضرراً إلا أن القتل أعظم منه ضرراً، وأيضاً فهذا القتل ناجز وذلك الفقر موهوم، فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذراً من ضرر قليل موهوم لا شك أنه سفاهة.

الثالث: قوله: ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]: فالمقصود أن هذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم، ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح.

الرابع: تحريم ما أحل الله لهم: وهو أيضاً من أعظم أنواع حماقة، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات، ويستوجب بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العذاب والعقاب.

الخامس: الافتراء على الله: ومعلوم أن الجراءة على الله والافتراء عليه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر.

السادس: الضلال عن الرشd في مصالح الدين ومنافع الدنيا.

السابع: أنهم ما كانوا مهتدين: والفائدة فيه أنه قد يضل الإنسان عن الحق

إلا أنه يعود إلى الاهتداء، فبيّن تعالى أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط.

ثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبع الموجبة لأعظم أنواع الذم، وذلك نهاية المبالغة^(١).

عاشراً: ونختم به، فالآية نصّت على أن قتل النسل جريمة أكبر من جريمة القتل الأخرى، وذلك لأن الآية كانت ضمن آيات تحدثت أيضاً عن جريمة القتل المعروفة، فآية سورة الأنعام جاءت ضمن آيات الوصايا، وفيها تحريم قتل النسل، وتحريم قتل الغير، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقِي تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي سورة الإسراء ذكر بعد جريمة قتل الأبناء والنسل، جريمة قتل الغير، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقِي تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

ثم قال بعدها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وهذا للتنبيه على بشاعة جريمة قتل الأبناء وإهلاك النسل، وفيه نكتة أخرى وهي التنبيه على أن قتل النسل يشمل جريمتين: الأولى: قتل نفسٍ محرمة.

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٣/ ١٦١).

والثانية: الظن السيئ بالله، وهذه جريمة اعتقادية، فإنهم إنما أرادوا قتل النسل خشية الفقر، فظنوا بالله ظنَّ السوء، واعتقدوا فيه عقيدة فاسدة.

الصورة الرابعة:

النهي عن ارتكاب الفواحش بجميع أشكالها وصورها. والفحش والفحشاء والفاحشة: القبيح من القول والفعل، وجمعها: الفواحش، وقد تكرر ذكر الفحش والفاحشة والفاحش في القرآن والسنة، وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنى، ويسمى الزنى فاحشة^(١).

والفاحشة -إذا ما أخذنا مدلولها الأشهر، وهو الزنى- تهدم مفهوم الأسرة التي هي قوام المجتمع، فينحسر النسل؛ إذ لا يُعقل أن يكون السفاح والزنى مكونين للنسل، وهل يُهَرَّب إلى هذه الفواحش إلا غوايةً عن نظام الأسرة؟! ولذلك فقد حارب القرآن جميع صور الفاحشة، سواء كانت مقدمات للزنى أو الزنى نفسه أو جريمة اللواط، وذلك في القرآن كثير، فمن ذلك:

أولاً: نهى القرآن عن التبرج وإبداء الزينة لغير من يجوز الإبداء له: والتبرج هو إظهار الزينة وما يستدعى به شهوة الرجل، والمقصود إظهار الزينة للناس الأجانب، وهو المذموم، فأما للزوج فلا^(٢)، ومن الآيات الدالة على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

(١) ينظر: لسان العرب (٦/ ٣٢٥)، والنهاية في غريب الحديث (٣/ ٤١٥).

(٢) ينظر: لسان العرب (٢/ ٢١٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِينَ غَيْرُ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فهذه الآيات الكريمات تمنع التبرج وإبداء الزينة، وآية سورة النور أوضحت مَنْ يجوز له أن يطّلع على زينة المرأة، وتفصيل القرآن وإسهابه في هذه القضية مهم جدًّا؛ فهي أول طرق حفظ المجتمع أو فساد، ومن ثم حفظ النسل أو إهلاكه وفساده.

ثانيًا: تحريم النظرة المحرمة؛ فالنظر بريد الزنى: اهتم القرآن بهذه القضية أيضًا، فحرّم النظر إلى المرأة، ولم يكتفِ بذلك، بل حرّم نظر المرأة إلى الرجل كذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ٣٠ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

ثالثًا: تحريم خضوع المرأة بالصوت مع الأجانب عنها: قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]: أي لا تُلنّ القول، فأمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يُظهر في القلب علاقة بما يُظهر عليه من اللين، مثل كلام المُريبات والمُومسات، فنهاهن عن مثل هذا؛ حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض، وهو تشوّف الفجور والفسق والفساد^(١).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٧).

رابعاً: تحريم اتخاذ الأخدان: وهو الزنى في السر بخدين واحد، والخدن هو الصديق^(١)، وقد كانت العرب في الجاهلية لا تعيب اتخاذ الأخدان كعيبها الزنى المعلن، وجاء الإسلام فهدم الزنى المعلن والمبطن فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

هذا بالنسبة للمرأة، أما بالنسبة للرجل فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

فتحريم المخادنة على الرجل والمرأة سواء، وهذه الفاحشة منتشرة في عصرنا هذا في بلاد الغرب وأوروبا، وقد اتخذت أشكالاً كثيرة منها: ما يُعرف اليوم في الدول الغربية وبعض الدول المسلمة بالعشيق (Boy friend) والعشيقة (Girl friend) أو الخليل والخليلة، والإسلام هدم ذلك كله وجعله قرين الزنى المعلن المشتهر^(٢).

خامساً: النهي عن الزنى ذاته: وهو الفاحشة، والآيات في تحريمه كثيرة، وتحريمه واحد من أهم أهداف رسالة القرآن والإسلام، والمقصود من تحريمه حفظ النسل والنسب، فتقوم على ذلك كثير من المصالح الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

(١) ينظر: المرجع السابق (١٤٣/٥).

(٢) ينظر: وسائل القرآن الكريم للحفاظ على النسل وتكثيره، سيد أحمد هاشمي، ومحمد جمالي، مجلة قرآنیکا، مجلة عالمية لبحوث القرآن الكريم، العدد: عدد خاص (١٧)، ٢٠١٥م، (ص ١٣٧).

وقد عُطف هذا النهي عن الزنى في هذه الآية الكريمة على النهي عن وأد البنات في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١]؛ إيماءً إلى أنهم كانوا يعدون من أَعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأن في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يُعرف للنسل مرجع يأوي إليه وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

والقرب المنهي عنه في الآية هو أقل الملابس، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنى.

والزنى في اصطلاح الإسلام: مجامعة الرجل امرأة غير زوجة له. وعناية الإسلام بتحريم الزنى؛ لأن فيه إضاعة النسب وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنى بغير متزوجة، وإفساد الأبرار على أوليائهن، وتعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن تزوجها، وهو خلل عظيم في المجتمع، أما إن كان الزنى بمتزوجة فإن فيه إفساد النساء على أزواجهن، وطلاق زوجها إياها، وما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل.

فالزنى مَنَّةٌ لإضاعة الأنساب ومَظَنَّةٌ للتقاتل والتهاجر فكان جديراً بتغليظ التحريم قصداً وتوسلاً.

ومن تأمل ونظرَ جزمَ بما يشتمل عليه الزنى من المفاسد، ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية؛ فقبَّحه ثابت لذاته، ولكن العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلما أيقظهم التحريم لم يبق للناس عذر^(١).

ويجدر التنبيه إلى أن هذه الآية في سورة الإسراء، وسورة الإسراء مكية

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٩١ / ١٥).

النزول^(١)، وهذا يدل على عناية الإسلام بهذه القضية مبكرًا.

سادسًا: النهي عن اللواط: واللواط من الجرائم الكبيرة، ولم تكن تعرفه العرب لسلامة فطرتهم في هذا الجانب، ولذلك قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا^(٢).

ولم تكن هذه الجريمة معروفة في البشرية قبل قوم لوط، ولذلك قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

وقد سمّاها الله تعالى فاحشة، لفحشها الكبير، وتنانيتها الكبيرة، «وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضًا»^(٣)، وهو ما يسمى بالسحاق.

واللواط -وكذلك السحاق- نوع من أنواع الشذوذ، وانحراف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ لأن الله ﷻ جعل الإنسان يميل بطبيعته إلى الجنس المخالف في علاقته الجنسية، أما أن يميل إلى الجنس المماثل، فلا شك في أنه انحراف عن الفطرة السليمة، وشذوذ في العلاقة الجنسية، وسبيل إلى انقراض النسل البشري؛ لأن الرجال لو اقتصروا على الرجال، والنساء بالنساء، ستؤدي هذه الظاهرة إلى غياب الزواج الطبيعي عن حياة الناس، وبالتالي غياب الإنجاب، فإذا غاب الإنجاب، سيسير النسل البشري نحو الانقراض^(٤).

سابعًا: النهي عن إشاعة الفاحشة، حتى وإن كان من يشيعها لا يمارسها:

(١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (١/ ٣٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) ينظر: وسائل القرآن الكريم للحفاظ على النسل وتكثيره، مجلة قرآنيكا العالمية لبحوث القرآن، (ص ١٣٧).

ولذلك شرع الله تعالى عقوبةً للقاذف، وهو الذي يرمي محصناً بجريمة الزنى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فهذا وعيدٌ على محبة شيوع الفاحشة في المجتمع كله، وجعل الوعيد على المحبة لشيوع الفاحشة في المؤمنين تنبيهاً على أن محبة ذلك تستحق العقوبة؛ لأن محبة ذلك دالة على خبث النية نحو المؤمنين، ومن شأن تلك الطوية أن لا يلبث صاحبها إلا يسيراً حتى يصدر عنه ما هو محببٌ له أو يُسرَّ بصدور ذلك من غيره، فالمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحب وقوعه.

ومعنى: أن تشيع الفاحشة: أن يشيع خبرها؛ لأن الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث كالفُشُوِّ، وهو: اشتهاه التحدث بها، وشاع إطلاق الفاحشة على الزنى، كما تقدم.

ومن أدب هذه الآية: أن شأن المؤمن أن لا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه، فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء، كذلك يجب عليه أن لا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين.

ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو بالكذب مفسدة أخلاقية؛ فإن مما يُزع الناس عن المفاصد تهيبهم وقوعها، وتجهمهم وكرهتهم سوء سمعتها، وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها، حتى تُنسى وتنمحي صورها من النفوس.

فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر وخَفَ وقع خبرها على الأسماع، فذب بذلك إلى النفوس التهاون بوقوعها وخفة وقعها على الأسماع، فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تُقدم على اقترافها، وبمقدار تكرر وقوعها وتكرر الحديث عنها تصير متداولة.

هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من لحاق الأذى والضّر بالناس ضرّاً متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب.

ولهذا ذيل هذا الأدب الجليل بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩] أي: يعلم ما في ذلك من المفساد فيعظكم لتجنبوها، وأنتم لا تعلمون فتحسبون التحدث بذلك لا يترتب عليه ضرر^(١).

الصورة الخامسة:

الأمر بوسائل شرعية تعين على حفظ النسل وتكثيره، ومنها:

أولاً: الأمر بإقامة الصلاة وتلاوة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فإقامة الصلاة وإقامة القرآن تلاوة وتدبراً وعملاً تقي من الفحشاء والمنكر، واجتناب الفحشاء من أعظم الحفاظ على النسل كما تقدم.

ولعل هذا هو السر في جعل إبراهيم عليه السلام الدعوة بإقامة الصلاة بعد دعوته بشكر الله على ما وهبه من الولد، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

فإنهم بإقامتها يتكاثرون ويكثر ولدهم ونسلهم ويبقى، إلى ما في إقامتها من إقامة للتوحيد، والتوحيد من أعظم ما يصلح حال الناس ومعاشهم ونسلهم، كما تقدم.

ثانياً: الأمر بإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٨ / ١٨٥).

وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلٍ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾
[التوبة: ١٠٣].

فالزكاة والصدقة عموماً تطهر من كل فحش - وقد تقدم عمل التطهر من الفحش في جانب حفظ النسل - وتزكي، والتزكية النماء، والنماء شاملٌ لكل جوانب حياة الإنسان، ومنه نماء النسل وتكثيره.

ثالثاً: الأمر بالاستغفار: والاستغفار طلب المغفرة، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ أَستَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وعلاقة الاستغفار بتكثير النسل واضحة؛ فالاستغفار يمحو الذنوب، ويجعل صلة العبد بالله تعالى دائمة الذكر، ويُجَلِّلُ المستغفر مهابة ربه، فيترك الذنوب ومنها الفحشاء والمنكر، فإذا ما استقام الناس على ترك الذنوب بارك الله لهم في كل شيء، ومنها البنين والنسل، كما نصت الآية.

الصورة السادسة:

تحريم التبني: والتبني هو ادعاء بُنوة أحدٍ من الناس ليس من صُلبه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]: وقد نزلت هذه الآية في إبطال التبني، أي: إبطال ترتيب آثار البُنوة الحقيقية - من الإرث، وتحريم القرابة، وتحريم الصهر - عن المُتَبَنَّى، وكانوا في الجاهلية يجعلون للمُتَبَنَّى أحكام البُنوة كلها^(١).

(١) المرجع السابق (٢٥٨/٢١).

فقد يستغني المتبني عن الزواج طلباً للولد والنسل بادعاء بنوة فلان، فيقلص نسل الإنسان شيئاً فشيئاً بقدر العزوف عن طلب الولد بالزواج، أو بالزواج لكن مع استخدام وسائل تمنع الحمل، فلذلك منع القرآن التبني وحسم أمره.

الصورة السابعة:

إباحة التعدد إلى أربع نساء، قال تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

وقد شرع الله تعدد النساء للقادر العادل لمصالح جمّة، منها: أن في ذلك وسيلة إلى تكثير عدد الأمة بازدياد المواليد فيها.

ومنها: أن ذلك يعين على كفالة النساء اللاتي هن أكثر من الرجال في كل أمة؛ لأن الأنوثة في المواليد أكثر من الذكورة عادة، ولأن الرجال يعرض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشدائد ما لا يعرض للنساء، ولأن النساء أطول أعماراً من الرجال غالباً، بما فطرهن الله عليه.

ومنها: أن الشريعة قد حرمت الزنى وضيقت في تحريمه لما يجبر إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونظام العائلات، فناسب أن توسع على الناس في تعدد النساء لمن كان من الرجال ميّالاً للتعدد مجبواً عليه. ومنها قصد الابتعاد عن الطلاق إلا لضرورة.

ولم يكن في الشرائع السالفة ولا في الجاهلية حدٌّ للزوجات، ولم يثبت أن جاء عيسى ﷺ بتحديد للتزوج، والإسلام هو الذي جاء بالتحديد، فأما أصل التحديد فحكّمته ظاهرة من حيث إن العدل لا يستطيعه كل أحد، وإذا لم يتم تعدد الزوجات على قاعدة العدل بينهن اختل نظام العائلة، وحدثت

الفتن فيها، ونشأ عقوق الزوجات أزواجهن، وعقوق الأبناء آباءهم بأذاهم في زوجاتهم وفي أبنائهم، فلا جرم أن كان الأذى في التعدد لمصلحة يجب أن تكون مضبوطة غير عائدة على الأصل بالإبطال.

وأما الانتهاء في التعدد إلى الأربع فقد حاول كثير من العلماء توجيهه فلم يبلغوا إلى غاية مرضية، وأحسب أن حكمته ناظرة إلى نسبة عدد النساء من الرجال في غالب الأحوال، وباعتبار المعدّل في التعدد، فليس كل رجل يتزوج أربعاً، فباعتبار المعدّل يتضح أن امرأتين لكل رجل؛ يدلنا ذلك على أن النساء ضعف الرجال. وقد أشار إلى هذا ما جاء في الحديث أنه: «يَكْثُرُ النِّسَاءُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَكُونَ لِحَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيْمُ الْوَاحِدُ»^(١) (٢).

والهجمة التي نشهدها في عصرنا هذا حول مسألة إباحة الشريعة الإسلامية لتعدد الزوجات، هجمة غبية ومستغربة!

غبية؛ لأنها لم تدرك الحكم الواضحة للتعدد، وخاصة في هذا العصر الذي سهل فيه عمل الإحصاءات التي توضح أهمية هذا الحكم الإسلامي وحكمته في ظل الصراعات التي أكلت الرجال، وزاد معها عدد النساء بشكل مهول. ومستغربة؛ لأنها في الوقت الذي تهاجم التعدد محافظة -زعمت- على شعور المرأة، أباحت الخدينات للرجل، وجعلت ذلك من حقوقه، بل أباحت حتى المخادنة للنساء بإطلاق!

الصورة الثامنة:

فرض الحدود الشرعية على مرتكب فاحشة الزنى؛ حتى لا يتشر هذا المرض فيعزف الناس عن التزاوج الحلال الذي يكون منه النسل، قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) التحرير والتنوير (٤/٢٢٦).

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]: هذا في حق الزناة غير المحصنين، وثبت في السنة الكريمة الرجم على الزناة المحصنين^(١).

والرجم أو الجلد هو السبيل المقصود في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّلَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِائَةً وَنَفْيٌ سَنَةً، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدٌ مِائَةً، وَالرَّجْمُ»^(٢).

وحدُّ رجم الزاني المحصن مما يُشنع به على شريعة الإسلام، حتى انهزم بعض المسلمين لهذا التشنيع، بل وصل الحال إلى انهزام بعض علماء المسلمين، فذهبوا لردّه والتشكيك فيه!

وتشنيعهم وتشكيكهم من ناحيتين:

الأولى: أنه حدٌ بشع، والحق أن واضع الحدود هو الله ﷻ، وهو أدرى بمصلحة عباده وبما يزرهم عن ارتكاب الجرائم؛ ليصلح حالهم في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤].

والنظر ينبغي أن يكون إلى العقوبة وإلى سببها، فسببها هو جريمة الزنى، والمفاسد التي تترتب عليها كبيرة وخطيرة، فكان لا بد من عقوبة زاجرة.

الثانية: أنه لم يرد حدُّ رجم الزاني في القرآن الكريم، والجواب عليه من

وجهين:

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٦)، ومسلم (١٦٩٠)، وغيرها من الأحاديث في الصحيحين وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الوجه الأول: أن القرآن الكريم قد نصَّ على وجوب الأخذ بأحكام السُّنة التي جاء بها النبي ﷺ، فهذا منها، والأخذ بها أخذ بالقرآن الكريم، وورودها في السُّنة يعني ورودها في القرآن ضمناً؛ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فهذا من البيان الذي بيّن به الرسول ﷺ كتاب ربه.

الوجه الثاني: اعلم أن رجم الزانين المحصنين دلت عليه آيتان من كتاب الله:

إحدهما: نُسخَت تلاوتها، وبقي حكمها.

والثانية: باقية التلاوة والحكم.

أما التي نُسخَت تلاوتها، وبقي حكمها: فهي قوله تعالى: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، وكون الرجم ثابتاً بالقرآن ثابتٌ في الصحيح من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى أَنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبْلُ، أَوْ الْإِعْتِرَافُ»^(١).

وفيه أن الرجم نزل في القرآن في آية من كتاب الله، وكونها لم تُقرأ في المصحف يدل على نسخ تلاوتها مع بقاء حكمها، كما هو ثابت في الحديث المذكور.

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

والآية القرآنية عند نزولها تكون لها أحكام متعددة، كالتعبد بتلاوتها، وكالعمل بما تضمنته من الأحكام الشرعية، والقراءة بها في الصلاة، ونحو ذلك من الأحكام. وإذا أراد الله أن ينسخها بحكمته فتارةً ينسخ جميع أحكامها من تلاوة وتعبد وعمل بما فيها من الأحكام، وتارةً ينسخ بعض أحكامها دون بعض، كنسخ تلاوتها والتعبد بها، مع بقاء ما تضمنته من الأحكام الشرعية، وكنسخ حكمها دون تلاوتها والتعبد بها.

وآية الرجم المقصود منها إثبات حُكمها، لا التعبد بها ولا تلاوتها، فأنزلت وقرأها الناس، وفهموا منها حُكم الرجم، فلما تقرر ذلك في نفوسهم نسخ الله تلاوتها والتعبد بها، وأبقى حُكمها الذي هو المقصود، فالرجم كان ثابتاً في القرآن.

وأما الآية التي هي باقية التلاوة والحُكم، فهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]: على القول بأنها نزلت في رجم اليهوديين الزانين بعد الإحصان، وقد رجمهما النبي ﷺ، وقصة رجمه لهما مشهورة ثابتة في الصحيح، وعليه فقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عما في التوراة من حُكم الرجم.

وذمَّ المعْرِض عن الرجم في هذه الآية يدل على أنه ثابت في شرعنا، فدلَّت الآية -على هذا القول- على أن الرجم ثابت في شرعنا، وهي باقية التلاوة. وقد أجمع العلماء على أن الرجم لا يكون إلا على مَنْ زنى وهو محصن. ومعنى الإحصان: أن يكون قد جامع في عمره ولو مرة واحدة في نكاح صحيح، وهو بالغ عاقل حر، والرجل والمرأة في هذا سواء.

وأجمع أهل العلم على أن مَنْ زنى وهو محصن يُرجم، ولم نعلم أحداً من

أهل القبلة خالف في رجم الزاني المحصن ذكرًا كان أو أنثى^{(١)(٢)}.
 أما فاحشة اللواط، فقال الله تعالى عن عقوبة فاعلها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
 جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].
 لذلك ذهب بعض الفقهاء إلى أن اللائط يُلقى من شاهق، ويُتبع بالحجارة
 كما فعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يُرجم سواء كان محصنًا أو غير محصن،
 قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلٍ لُّوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ
 بِهِ»^(٣).

وقال آخرون: هو كالزاني، فإن كان محصنًا رُجم، وإن لم يكن محصنًا
 جُلد مائة جلدة^(٤).

وهذه الحدود والعقوبات الزاجرة واحدة من أهم وسائل حفظ النسل كما
 تقدم، ولتكون الأسرة -التي هي نواة تكاثر النسل واستمراريته- وتبقى.

الصورة التاسعة:

جعل النسل من وسائل عبادة الله وإقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا
 إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]: فاللام في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا﴾ متعلقة بـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾،

(١) إلا ما حكاه القاضي عياض وغيره عن الخوارج وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه، فإنهم لم يقولوا
 بالرجم. وبطلان مذهب من ذكر من الخوارج وبعض المعتزلة واضح من النصوص الصحيحة
 الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ وأصحابه بعده. ينظر: أضواء البيان (١٤/٦).

(٢) الوجه الثاني برؤيته مختصر بتصرف من أضواء البيان (٧/٦).

(٣) أخرجه: أبو داود برقم (٤٤٦٢)، والترمذي برقم (١٤٥٦)، وابن ماجه برقم (٢٥٦١) من حديث
 عبد الله بن عباس ؓ، كما أخرجه الحاكم في المستدرک (٨٠٤٧) وصححه ووافقه الذهبي، وذكره
 البغوي في: مصابيح السنة (٢/ ٥٤٤) وحسنه.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦).

أي: أسكنت قومًا من ذريتي، وهم إسماعيل ﷺ وأولاده، بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة^(١).

ومثله: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۖ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

فإنهم طلبوا الولد واستمرار النسل لاستمرار عبادة الله ﷻ وإقامة الصلاة ووراثته العلم والحكمة ونشرها والعمل بمقتضاها.

الصورة العاشرة:

جعل الولد والنسل من زينة الدنيا؛ ترغيبًا في تكاثره واستمراره، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ۚ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فالبنون والنسل مما يُتَزَيَّن به في الدنيا، شريطة أن لا تشغل عن الباقيات الصالحات^(٢).

والخلاصة: أن القرآن الكريم اهتم بشكل بالغ بالنسل -من حيث تكوينه، ثم المحافظة عليه، ثم تكثيره، ثم استمراريته- بصور كثيرة وطرائق عديدة؛

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٩/١٠٤).

(٢) يُنظر في معنى الباقيات الصالحات: تفسير الطبري (١٥/٢٧٣).

وذلك لأهمية بقاء نوع الإنسان في إعمار الأرض وإقامة شرع الله تعالى.

• الاهتمام بالعمل وتحمل المسؤولية:

حثَّ القرآن الكريم على العمل وتحمل المسؤولية والسعي في الأرض لإصلاحها وتعبيدها.

وقد وردت ألفاظ ومصطلحات: «العمل» و«الفعل» و«السعي» و«المسؤولية» باشتقاقاتها في القرآن الكريم عشرات المرات بل مئات، وذلك يوضح أهمية هذه القضية. فمن ذلك أنه:

أولاً: أمر بالمشي والسعي في الأرض، وأخبر أن الله جعل الأرض مذلّة للسعي فيها وإثارتها واستخراج مكنوناتها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [المُلْك: ١٥]: فذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهياها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار. فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات^(١)، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

ثانياً: أمر بالانتشار في الأرض سعيًا في العمل وابتغاء فضل الله تعالى ورزقه، قال تعالى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] أي: إذا فعلتم الصلاة وأديتموها وفرغتم منها فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر

(١) تفسير ابن كثير (١٧٩/٨).

معاشكم، وابتغوا من فضل الله، أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب^(١).

ثالثاً: أمر بالهجرة والتحول؛ ففيها فتح آفاق جديدة على الإنسان في معاشه ودينه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

فالمُراعِم: التحول من أرض إلى أرض.

والسَّعة: الرزق، والتحول من القلة إلى الغنى^(٢).

رابعاً: حثٌّ على الاكتساب، ومن ثم الإنفاق منه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: والكسب: طلب الرزق، وأصله الجمع، يُقال: كَسَبَ يَكْسِبُ كَسْباً، وتكسَّب واكتسب^(٣).

والمقصود: أن الله لما أمرهم بالإنفاق أمرهم به مما سعوا في اكتسابه، فهذا يدل على أن الاكتساب مأمور به كذلك؛ لإعفاف النفس عن ذلِّ سؤال الغير، وللإنفاق منه، ولأن في الاكتساب استصلاح للأرض وسعي في إثارتها.

خامساً: حثٌّ على الأكل مما عملته الأيدي مما سخره الله ﷻ في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَايَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [٣٣] وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

هذا على أن (مَا) في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ موصولة معطوفة على ﴿ثَمَرِهِ﴾، أي: لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِ مَا أَخْرَجْنَاهُ وَمِنْ ثَمَرِ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، فيكون

(١) فتح القدير (٥/ ٢٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩١).

(٣) ينظر: لسان العرب (١/ ٧١٦).

إدماجاً للإرشاد إلى إقامة الجنات بالخدمة والسقي والتعهد ليكون ذلك أوفر لأغلالها. ويجوز أن تكون (مَا) نافية والضمير عائد إلى ما ذكر من الحب والنخيل والأعناب، والمعنى: ليأكلوا من كل ذلك مع أنهم لم يخلقوه^(١)، والمعنى الأول ألصق بمقصودنا هنا، والمعنى الثاني أبلغ من حيث الامتنان وسياق الآيات، لكن قد يُقال: إن تسخير الله تعالى الأرض لهم ليعملوا فيها بأيديهم ويأكلوا مما عملوا هو كذلك من عظيم الامتنان عليهم.

سادساً: ذَكَرَ امتنان الله تعالى أن علّم عبده داود عليه السلام عملاً من الأعمال النافعة يقوم بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أُوتِ بِمَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنْ أَعْمَلْ سَبِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

و﴿سَبِغَاتٍ﴾: هي الدروع.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾: هذا إرشاد من الله لنبيه داود ﷺ في تعليمه صنعة الدروع، أن لا يُدق المسمار فيغلق الحلقة، ولا يغلظه فيفصمها، وأن يجعله بقدر^(٢).

﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾: أي ما يصلح حالكم، أو اعملوا في الأمور والأشياء الصالحات فقط، على ما سيأتي إن شاء الله.

وذكر هذا الامتنان والتعليم في القرآن الكريم إنما هو للاقتداء، والسير على ما ساروا عليه في العمل.

سابعاً: أمر بالعمل، وجعل الرقابة فيه مشتركة، فالله تعالى يرى، ورسوله ﷺ يرى، والمؤمنون يرون، وذلك ليستشعر العامل عظم الرقابة فيحسن في عمله،

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٤٩٨).

والعمل شامل ما يصلح شأن المعاش والمعاد - كما سيأتي -، قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]

فقله: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: زيادة في التحضيض، وفيه تحذير من التقصير؛ لأن كون عملهم بمرأى من الله مما يبعث على جعله يُرضي الله تعالى. وذلك تذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات. وعطف ﴿وَرَسُولُهُ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ عن الله، وهو الذي يتولى معاملتهم على حسب أعمالهم في حينه، قبل وفاته ﷺ.

وعطف ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أيضاً؛ لأنهم شهداء الله في أرضه، ولأن هؤلاء إن عملوا مثل عمل المؤمنين كانوا بمحل الكرامة منهم، وإلا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار، وذلك مما يحذره كل أحد هو من قوم يرمقونه شزراً ويرونه قد جاء نكراً^(١).

ثامناً: خفف القرآن الكريم من مجال العبادة ليفسح المجال للعمل والبناء والسعي، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ إِلَيَّ وَنِصْفَهُ، وَثُلَاثُهُ وَطَآئِفُهُ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَن لَّنْ نُّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/١١).

وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿المزمل: ٢٠﴾.

فذكر الله تعالى الحكمة في تخفيف ونسخ مطلع هذه الآية، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فتقدير هذه الآية كأنه قيل: لِمَ نسخ الله ذلك؟ فقال: لأنه علم كذا وكذا. والمعنى لتعذر القيام على المرضى، والضاربين في الأرض للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله^(١).

وهذه حكمة أخرى لنسخ تحديد الوقت في قيام الليل، وهي مراعاة أحوال طرأت على المسلمين من ضروب ما تدعو إليه حالة الجماعة الإسلامية، وذكر من ذلك ثلاثة أضرب هي أصول الأعذار:

الأول: أعذار اختلال الصحة، وقد شملها قوله: ﴿أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ﴾.

الثاني: الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش من تجارة وصناعة وحرارة وغير ذلك، وقد أشار إليها قوله: ﴿وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾: وفضل الله هو الرزق.

الثالث: أعمال لمصالح الأمة، وأشار إليها قوله: ﴿وَعَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ودخل في ذلك حراسة الثغور والرباط بها، وتدريب الجيوش، وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام من إيفاد الوفود وبعث السفراء.

وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة وسفر التجار^(٢)، حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، مما يعني أن الله ما

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٦٩٥).

(٢) التجار: جمع تاجر. شمس العلوم (٢/ ٧٢٧).

ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلا تنويهاً بهما؛ لأن في غيرهما من الأعذار ما هو أشبه بالمرض، ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر.

فقد رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين محتسباً فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء. وقرأ: ﴿وَأَخْرُوجُ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنه: «ما خلق الله مودة بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحلي أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض»^(٢). ومعنى ﴿يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: يسرون في الأرض.

وحقيقة الضرب: قرع جسم بجسم آخر، وسُمي السير في الأرض ضرباً في الأرض لتضمنين فعل يضربون معنى يسرون، فإن السير ضرب للأرض بالرجلين لكنه تُنَوِّسِي منه معنى الضرب وأريد المشي فلذلك عُدِّي بحرف (في) لأن الأرض ظرف للسير كما قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والابتغاء من فضل الله: طلب الرزق، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: التجارة في مدة الحج، فقوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ مراد بالضرب في الأرض فيه: السفر للتجارة؛ لأن السير في الأسفار يكون في الليل كثيراً ويكون في النهار فيحتاج المسافر للنوم في النهار^(٣).

(١) أخرجه الثعلبي (٣٢٦٩) من رواية فرقد السبخي عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفاً، وفرقد ضعيف. ينظر: الكشف والبيان (٢٧/٥٢٧).

(٢) أخرجه الثعلبي (٣٢٧٠) من رواية القاسم بن عبد الله عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به، وإسناده ضعيف. ينظر: الكشف والبيان (٢٧/٥٢٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/٢٨٥).

والعمل والسعي وتحمل المسؤولية هو في الأساس عبادة؛ قال تعالى:
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

فكل الحياة بكل سعي وجهد فيها إنما هو عبادة الله ﷻ، متى تحقق القصدُ
وصلح العمل.

وهذا يقودنا إلى شرطي العمل الذي دعا القرآن إليه، ولكن قبل ذلك لا بد
من بيان أن القرآن الكريم حين يذكر العمل فإنه يريد الإطلاق، وهو كل عمل
صالح، فيدخل فيه كل قول أو فعل موافق لشرع الله تعالى فيه صلاح الإنسان
في الدنيا والآخرة.

لذلك كان لا بد أن يتحقق شرطان في أي عملٍ ليكون هو المعني بالذكر
في القرآن الكريم:

الأول: أن يكون القصد فيه هو الله ﷻ وابتغاء رضاه.

الثاني: أن يكون العمل صالحًا، وهو الموافق لشرع الله تعالى، والصلاح
المقصود هنا هو المعنى الواسع الشامل لكل خير.

وقد جمع القرآن الشرطين في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]: فهو يدعو
إلى العمل الذي يقرب منه، وينيل ثوابه، ويدفع عقابه، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ كَانَ
يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: وهو الموافق لشرع الله من واجب
ومستحب، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ بل يكون خالصًا لوجه الله تعالى.
فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة -وهو العمل الصالح- هو الذي
ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وآخره، وقد فاتته
القرب من مولاه ونيل رضاه^(١).

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص ٤٨٩).

ولا يمكن الاكتفاء بشرط واحدٍ لتحقيق النفع الكامل من العمل، نعم قد ينتفع مَنْ لا يُحسن القصد لله تعالى، لكنه نفع جزئي مؤقت، وقد ينتفع مَنْ لا يكون عمله صالحًا لكنه نفع جزئي مؤقت، أما النفع الكلي الدائم فلا يمكن أن يكون إلا لمن جمع الشرطين.

ولما كان الشرط الأول، وهو حسن القصد لله ﷻ، يُفترض أن يكون مصاحبًا للعامل المسلم حال عمله، فإن القرآن قد اهتم كثيرًا بالإشارة إلى الشرط الثاني، وهو حتمية أن يكون العمل صالحًا، وربطه بعدة معانٍ، ولفت إلى الهدف من العمل الصالح، لِيَحْمَسَ العامل ويَطْمَعَهُ، فمن ذلك:

١- وعدهم بالفرح وحسن المآب والمرجع، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]: فربط العمل الصالح أولاً بالإيمان، ثم وعد العاملين عملاً صالحاً بطوبى، وطوبى: هي الفرحة أو السرور أو الخير أو الحُسن أو الجنة أو شجر في الجنة، على اختلاف أقوال المفسرين في معناها^(١).

وحسن مآب، هو حُسن المرجع، وهو عام لكل مرجع في الدنيا والآخرة، فإن مَنْ عمل صالحاً رجع بالنفع على نفسه وغيره في دنياه وآخرته.

٢- وعدهم بعدم ضياع أعمالهم وجهدهم وسعيهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فأعلمهم أن عملهم مرعي عند ربهم، غير مضيع ولا مفقود. والإضاعة: جعل الشيء ضائعاً. وحقيقة الإضاعة: تلف الشيء من مَطْنَةٍ وجوده.

وتُطلق الإضاعة مجازاً على انعدام الانتفاع بشيء موجود فكأنه قد ضاع

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٥٦).

وتلف، قال تعالى: ﴿أَنْتَى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].
 كما تُطْلَقُ على منع التمكين من شيء والانتفاع به؛ تشبيهاً للممنوع بالضائع
 في اليأس من التمكن منه كما في هذه الآية ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ
 عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أي: إنا لا نحرم من أحسن عملاً أجر عمله. ومنه قوله
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

والأجر هو ثمرة العمل، والله تعالى لا يضيع ثمرة عمل عامل، وثمرة
 العمل في الدنيا هي النماء والزيادة والخير.

٣- وعدهم بالحياة الطيبة؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ
 أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ففي هذه الآية يقرر القرآن مجموعة من القواعد:
 أولاً: أن الجنسين: الذكر والأنثى، متساويان في قاعدة العمل والجزاء،
 وفي صلتهم بالله، وفي جزائهما عند الله. ومع أن لفظ (مِنْ) حين يطلق يشمل
 الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل: ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾؛ لزيادة تقرير هذه
 الحقيقة، وذلك في -سورة النحل- السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية
 في الأنثى وضيق المجتمع بها، واستياء مَنْ يُبَشِّرُ بمولدها وتواريه من القوم
 حزناً وغماً وخجلاً وعاراً!

ثانياً: أن العمل الصالح لا بد له من قاعدة أصيلة يركز عليها -كما أسلفنا-
 وهي: قاعدة الإيمان بالله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير
 هذه الرابطة لا يتجمع شتات، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم
 عاصف.

والعقيدة هي المحور الذي تُشَدُّ إليه الخيوط جميعاً، وإلا فهي أنكاث،

فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير، لا عارضاً مزعزماً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل.

ثالثاً: أن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه. وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب. وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة. وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله.

رابعاً: أن الحياة الطيبة في الدنيا لا تُنْقِصُ من الأجر الحسن في الآخرة. خامساً: أن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات، فما أكرمهم من جزاء! (١).

٤ - وعدهم بالاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، والأمن عليها؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وهذا منطقي؛ فمن سعى وجد جزاء سعيه، وبالعمل يتحقق الاستخلاف الذي هو وظيفة الإنسان الأولى، وهي خلافة الله على الأرض.

(١) ينظر: ظلال القرآن (٤/ ٢١٩٣).

ثم إن العمل يحقق التمكين، ومتى تمكن القاعدون الراضون بالدون المستسلمون للكسل والدعة؟!

وبالعمل يتحقق الأمن، فهي حلقة متكاملة، تبدأ بالحركة والسعي والبناء، لتكوين منظومة شاملة، الأمن أهم حلقة فيها، لكنه لا يكون إلا بسعي وجدّ. وبالعمل تتكون العلاقات، وتتألف القلوب، وينتشر الود بين المجتمع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]: وإذا كان لهم في القلوب ودٌ تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل^(١).

٥- وعدهم بالربح وبعدم الخسارة: فالعمل بداية النجاح، النجاح العام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣].

فشرط عدم الخسارة بالإيمان والعمل الصالح. فالعمل الصالح شرط أساس في عدم الخسارة! والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب. فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح.

هذا هو الإيمان الإسلامي، لا يمكن أن يظل خامدًا لا يتحرك، كامنًا لا يتبدّى في صورة حية خارج ذات المؤمن، فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها، فهو ينبعث منها انبعاثًا طبيعيًا، وإلا فهو غير موجود.

(١) تفسير السعدي (ص ٥٠١).

ومن هنا تكمن قيمة الإيمان، إنه حركة عمل وبناء وتعمير يتجه إلى الله، إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منة قوة بناء كبرى في صميم الحياة. وهذا مفهومٌ ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني.

وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود، صادرة عن تدبير، متجهة إلى غاية.

وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود، الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله^(١). إن الربح الحق الشامل لا يمكن أن يتحقق إلا بالإيمان، وهو ما عبرنا عنه بحسن القصد، وهو الشرط الأول، والعمل الصالح، صلاحاً شاملاً، وهو الشرط الثاني.

وننظر اليوم من خلال ما يرسمه القرآن الكريم لحياة الفئة الراحبة الناجية من الخسران، فيُهلونا أن نرى الخُسر يحق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء.

يُهلونا هذا الضياع الذي تعانیه البشرية في الدنيا قبل الآخرة. يُهلونا أن نرى إعراض البشرية - ذلك الإعراض البائس - عن الخير الذي أفاضه الله عليها، مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض.

هذا والمسلمون قد ابتعدوا عن هذا الخير، وأعرضوا عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم، وعن الطريق الوحيد

(١) ظلال القرآن (٦/ ٣٩٦٧).

الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع.

وحتى البقاع التي انبعث منها هذا الخير أول مرة ها هي تترك الراية التي رفعها لها الله، راية الإيمان؛ لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيراً قط في تاريخها كله، ولم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء، حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله، لا شريك له، المسماة باسم الله لا شريك له، الموسومة بميسم الله لا شريك له، الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل^(١).

إن أول استعادة لمسار تلك الرفعة والمنزلة هو الإيمان والعمل، العمل الصالح، بمفهوم الصلاح الشامل شمول القرآن والإسلام وشرائعه. والخلاصة: أن قضية العمل في القرآن الكريم قضية محورية ومهمة، تناولها القرآن في نصوص كثيرة من خلال قاعدته العامة، وهي أن حياة الإنسان كلها يجب أن تكون معبّدة لله وحده، ومن ثم فالأعمال جميعها يجب أن تكون لله ومن أجله، ومن ثم فإنه يجب أن يكون العمل صالحاً حتى يكون مقبولاً لديه: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وحتى لا يكون خسراناً وتعباً لا فائدة منه ولا طائل قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ^(١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

فهؤلاء عملوا، ولكن كان عملهم خسارة وهدرًا، ولذلك عبّر عنه هنا بالخسارة؛ لأنه لم يحقق شرطي العمل: حُسن القصد، وهو الإيمان، وأن يكون صالحاً.

(١) المرجع السابق (٦/٣٩٦٨).

وإذا كان ذلك كذلك، فإن القرآن يقرر أن مجرد السكون بلا عمل صالح هو خسارة كذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣].

فالرايحون هم الذين آمنوا وعملوا صالحًا، والخاسرون هم دون ذلك، وهم: إما لم يؤمنوا ولم يعملوا صالحًا، أو لم يؤمنوا ولم يعملوا شيئًا، أو آمنوا لكنهم لم يعملوا صالحًا، أو عملوا صالحًا لكنهم غير مؤمنين. القرآن إذن يدعو للعمل، والحركة والبناء والسعي، للجِدِّ والاجتهاد، لإثارة الأرض والمشى في مناكبها.

إن علاقة العمل بالنهضة والإعمار علاقة شرطية، فلا يمكن أن تكون نهضة بلا عمل، وحين تخلد الأمة إلى الأرض، إلى الكسل، إلى الترف المثبط، فهي أبعد ما يكون عن النهضة والحضارة.

والخلاصة: أن القرآن الكريم وهو يقرر عوامل النهضة والبناء، يهتم بماكينة هذه العوامل، وهو العنصر البشري، كما يهتم بتوجيه طاقته للعمل وتحمل المسؤولية الاستخلافية في إعمار الأرض.

ب- العوامل السياسية للنهضة في القرآن الكريم:

• مبدأ الشورى:

الشورى لغةً: من شور، وشارَ العسل يشوره شورًا إذا استخرجه، ويقال: فلان حسن الشَّوْرَة: أي حسن اللباس، والشَّوْرَة: السَّمَن، واسْتَشَارَتِ الإبل: لبست سِمَنًا وحُسْنًا، وشَوَّرَ إليه بيده أي أشار، وأشارَ عليه بالرَّأي وأشار يُشير إذا ما وجَّه الرَّأي^(١).

أما اصطلاحًا: فتعني تقليب الآراء المختلفة ووجهات النظر المطروحة في قضية من القضايا، واختبارها من أصحاب العقول والأفهام حتى يتوصل إلى الصواب منها أو إلى أصوبها وأحسنها ليعمل به لكي تتحقق أحسن النتائج^(٢). وقيل: هي تبادل الآراء في أمر من الأمور لمعرفة أصوبها وأصلحها لأجل اعتماده والعمل به^(٣).

كما عُرفت بأنها: استنباط المرء رأيًا فيما يعرض له من الأمور والمشكلات^(٤). فيدخل في هذا التعريف كل مشكلة وعارض مهما صغر وقل شأنه. وقيل: هي إبداء الرأي في عمل يريد أن يعملهُ مَنْ يشاور^(٥). وعُرفت الشورى أيضًا بأنها: استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في أمر من الأمور العامة المتعلقة بها؛ بهدف التوصل فيها إلى الرأي الأقرب إلى الصواب الموافق لأحكام الشرع؛ تمهيدًا لاتخاذ القرار المناسب في موضوعه^(٦).

(١) ينظر: لسان العرب (٤/٤٣٤).

(٢) النظام السياسي في الإسلام، د. محمد عبد القادر (ص ٧٩).

(٣) مناهج الشريعة الإسلامية، أحمد محيي الدين العجوز (٢/١٢٨).

(٤) حقوق الإنسان في السنة النبوية، حسين بن محمد المهدي (ص ٤٨٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢/٤٣٨).

(٦) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. هاني سليمان الطعيمات (ص ٢٥٥).

والتعاريف السابقة وغيرها متقاربة، فهي تدور حول طلب الرأي والإشارة به في الأمور التي تعرض للفرد أو الأمة. والشورى من مبادئ القرآن وقيمته الكبيرة التي ذكرها في عدة مواضع، صراحةً وإشارةً.

وستتناول هنا مبدأ الشورى في عدة محاور، والمقصود تجلية ونقاش أهم مدلولاته في بناء النهضة الشاملة من خلال القرآن الكريم، وإلا فإن مفهوم الشورى من المفاهيم الواسعة جدًا، ولا يمكن أن نحيطها في هذه الدراسة المحصورة.

المحور الأول: دلالة آية الاستخلاف على الشورى

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهي الآية العظيمة المباركة التي ما زلنا نتفياً ظلالها في هذا الكتاب، ولعلها تكون من أعظم الآيات في تكريم الإنسان وبيان وجوه تكريمه، فقد ذكر بعض العلماء عند تفسيرها أنها أشارت إلى مبدأ الشورى، وأن قول الله هذا وجهه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كاستشارة لهم تكريمًا لهم، فيكون تعليمًا في قالب تكريم مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ في صورة سؤال وجواب، وليس الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي من حكمة خلق آدم، كذا ذكر المفسرون.

إن هاته الاستشارة جعلت لتكون حقيقة مقارنة في الوجود لخلق أول البشر؛ حتى تكون ناموسًا أشربته نفوس ذريته؛ لأن مقارنة شيء من الأحوال

والمعاني لتكوين شيء ما تؤثر تآلفاً بين ذلك الكائن وبين المقارن.
ولعل هذا الاقتران يقوم في المعاني التي لا توجد إلا تبعاً لذواتٍ مقامٍ أمرٍ
التكوين في الذوات.

فكما أن أمره إذا أراد شيئاً، أي إنشاء ذات، أن يقول له كن فيكون، كذلك
أمره إذا أراد اقتران معنى بذات أو جنس أن يقدر حصول مبدأ ذلك المعنى
عند تكوين أصل ذلك الجنس أو عند تكوين الذات، ألا ترى أنه تعالى لما
أراد أن يكون قبول العلم من خصائص الإنسان علم آدم الأسماء عندما خلقه.
وهذا هو وجه مشروعية تسمية الله تعالى عند الشروع في الأفعال ليكون اقتران
ابتدائها بلفظ اسمه تعالى مُفِيضاً للبركة على جميع أجزاء ذلك الفعل، ولهذا
أيضاً طلبت منا الشريعة تخير أكمل الحالات وأفضل الأوقات للشروع في
فضائل الأعمال ومهمات المطالب^(١).

المحور الثاني: آيات الشورى في القرآن الكريم

ذُكرت الشورى في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم نصّاً، سنتناولها ونذكر
كلام أئمة التفسير فيها، ثم ننتقل منها لمناقشة مقتضاها.

الآية الأولى: قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٠).

أما الآية الأولى: فتحدث عن التشاور في فِطام الأطفال الرُّضع، أي: فإن اتفقا -والدا الطفل- على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورًا في ذلك، وأجمعًا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك.

فيؤخذ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحه ويصلحهما^(١).

فإذا كان هذا الإلزام بالشورى والتشاور في أمر فِطام الطفل، فهي في الأمور الكبيرة الحكم والنظر في مصالح الأمة وإدارة المجتمع ألزم وأكد.

وأما الآية الثانية: فهي أمر صريح للنبي ﷺ ولأئمة من بعده بالعمل بمبدأ الشورى، كطريقة مثلى لاستجلاء الحِكم، واستنطاق الفهوم، وجبر القلوب، وسوقها إلى الرغبة في المشاركة النافعة، وتحمل المسؤولية والتبعة، وظاهر الأمر أن المراد المشاورة الحقيقية التي يُقصد منها الاستعانة برأي المستشارين؛ بدليل قوله تعالى عقبه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فضمير الجميع في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] عائد على المسلمين خاصة، أي شاور الذين أسلموا من بين من لنت لهم، أي لا يصدك خطل رأيهم فيما بدا منهم يوم أحدٍ عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنما كان ما حصل فلتة منهم، وعشرة قد أقلتْهم منها.

وقد دلت الآية على أن الشورى مأمور بها الرسول ﷺ فيما عُبر عنه بـ ﴿الْأَمْرِ﴾، وهو مهمات الأمة ومصالحها في الحرب وغيرها.

وقد أمر الله بها هنا ومدحها في ذكر الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٣٥).

شُورَى بَيْنَهُمْ [الشورى: ٣٨]، واشترطها في أمر العائلة فقال: **﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾** [البقرة: ٢٣٣]، فشرع بهاته الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلها: وهي مصالح العائلة، ومصالح القبيلة أو البلد، ومصالح الأمة^(١).

وأما الآية الثالثة: فهي مدح للمجتمع المؤمن الذي يُعْمَلُ الشورى في شؤونه، **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾** [الشورى: ٣٨] أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوافقهم وتواددهم وتحاببهم وكمال عقولهم، إنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً - فإنها من الأمور المشتركة - والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية^(٢).

وإقحام الشورى بين إقامة الصلاة والإنفاق في الآية دليلٌ على جلاله أمر الشورى، وأنها من عظيم أمور الإسلام ومبادئه، فهي قسيمة الصلاة والإنفاق، فالصلاة والشورى والإنفاق من أعظم مقومات المجتمع المسلم وأهم عوامل استقراره في شتى مناحي الحياة.

المحور الثالث: حكم الشورى

اختلفت أنظار الفقهاء في حكم الشورى، بناء على اختلافهم في فهم مدلولات الآيات، خصوصاً الآية الثانية: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** [آل عمران: ١٥٩]:

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ١٤٧).

(٢) تفسير السعدي (ص ٧٥٩).

- فذهبت طائفة إلى وجوب الشورى^(١): واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]: وظاهر الأمر في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ يقتضي الوجوب. والأمر للنبي ﷺ بالمشاورة أمر لأمته؛ لتقتدي به ولا تراها منقصة، كما مدحهم سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال ابن خويز منداد^(٢): واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها^(٣).

قال ابن عطية^(٤): والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب وهذا مما لا اختلاف فيه^(٥).

- وذهبت طائفة إلى استحباب الشورى^(٦): واستدلوا بأن المعنى الذي من أجله أمر النبي ﷺ أن يشار أصحابه في مكائد الحروب وعند لقاء العدو، هو تطيب لنفوسهم، ورفع لأقذارهم، وتألفهم على دينهم، وإن كان الله قد أغناه عن رأيهم بوحيه.

(١) وينسب هذا القول للنووي، وابن عطية، وابن خويز منداد، والرازي، وهو مذهب المالكية كما أشار له ابن عاشور المالكي، ينظر: الموسوعة الكويتية (٢٦/ ٢٧٩)، والتحرير والتنوير (٤/ ١٨).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن خويز منداد، فقيه مالكي، وأصولي كبير، عاش في القرن الرابع الهجري، وتوفي عام ٣٩٠هـ. ينظر: الديباج المذهب (١/ ٤٣)، وتاريخ الإسلام (٢٧/ ٢١٧).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٤٩)، ومواهب الجليل (٣/ ٣٩٥).

(٤) هو: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، الفقيه، المفسر الكبير، توفي عام ٥٤٦هـ - ينظر: الديباج المذهب (٢/ ٥٧).

(٥) تفسير ابن عطية (١/ ٥٣٤).

(٦) وينسب هذا القول لقتادة، وابن إسحاق، والربيع، وهو مذهب الشافعي، ينظر: الموسوعة الكويتية (٢٦/ ٢٨٠)، وتفسير الرازي (٩/ ٤١٠).

ولقد كانت سادات العرب إذا لم يُشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم ليعرفوا إكرامه لهم فتذهب أضغانهم، فالأمر في الآية محمول على الندب.

والذي يترجح: أن الشورى واجبة، وفريضة إسلامية؛ لأدلة كثيرة، منها:
أولاً: نص الآية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهو فعل أمرٍ يقتضي الوجوب، ولا صارف له عن حقيقته.
ثانياً: الأمر في الآية موجّه للنبي ﷺ، وهو المؤيّد بالوحي، فالشورى في حق أمته ألزم.

ثالثاً: أمر الله تعالى بالتشاور في مسألة فطام الطفل الرضيع، فقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].
فإذا كانت المشاورة في أمر فطام طفل واجبة، فالحال أنها في أمور الأمة الكبيرة أوجب.

رابعاً: امتدح الله تعالى المؤمنين بفعلهم الشورى بين واجبي الصلاة والإنفاق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وهذا يُشعر بوجوب الشورى كما هو حال الصلاة والإنفاق.
خامساً: لما في ترك الشورى من التنازع والخلاف الذي تذهب معه قوة المسلمين وريحهم، ويحل الفشل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْفَشْلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

سادساً: غير جائز أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطيب نفوسهم ورفع أقدارهم ولتقتدي الأمة به في مثله؛ لأنه لو كان معلوماً عندهم أنهم إذا استفرغوا مجهودهم في استنباط ما شُورُوا فيه وصواب الرأي فيما سئلوا عنه،

ثم لم يكن ذلك معمولاً عليه ولا متلقًى منه بالقبول بوجه، لم يكن في ذلك تطيب نفوسهم ولا رفع لأقدارهم بل فيه إيحاشهم في إعلامهم بأن آراءهم غير مقبولة ولا معمول عليها، فهذا تأويل ساقط لا معنى له^(١).

سابعاً: كثير ممن يتولى أمور المسلمين ليس أعلمهم ولا من أعلمهم، فإذا ما ترك الشورى حكم الناس بالجهل، فوقع الفساد في الأمة والحييف. ثامناً: يشهد واقع المسلمين أنه حين غابت فريضة الشورى في أمورهم حلّ الطغيان والاستبداد، فخربت مصالح المسلمين، واستولى عليها الجهل وتخطف البغي والفساد كثيراً من مناحي الحياة.

والعمل بمقتضى الشورى يعصم من ذلك كله، وفيه بركة العمل بطاعة الله تعالى في ذلك، وهذا سر استهلال آية ذهاب الريح والفشل بطاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والشورى من جملة طاعة الله تعالى وطاعة رسوله. كما فيها الدخول تحت ما أثنى الله تعالى على عباده به، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

فهى من عداد ما أثنى الله به عليهم، ومن جملة ما استجابوا لله تعالى به. والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة؛ فقد فطره على محبة الصلاح وتطلب النجاح في المساعي، ولذلك قرن الله تعالى خلق أصل البشر بالتشاور كما مر^(٢).

(١) أحكام القرآن، الجصاص الحنفى (٢/ ٥٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ١٥٠).

ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر؛ فقد استشار فرعون في شأن موسى ﷺ فيما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]. واستشارت بلقيس في شأن سليمان ﷺ فيما حكى الله عنها بقوله: ﴿قَالَتْ يَأْئِيهَا الْمَلِكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]. وإنما يُلْهِى الناس عن الشورى حبُّ الاستبداد، وكرهية سماع ما يخالف الهوى، وذلك من انحراف الطباع وليس من أصل الفطرة، ولذلك يُهْرَع المستبد إلى الشورى عند المضائق^(١).

والمشورة محمودة عند غاية العلماء، والاستبداد مذموم عند جماعة الحكماء، ولا نعلم أحداً رضي الاستبداد وحمده إلا رجلاً مفتوناً مخادعاً لمن يطلب عنده لذته، أو رجلاً فاتكاً يحاول حين الغفلة، ويرتصد الفرصة، وكلا الرجلين فاسق^(٢).

المحور الرابع: مجال الشورى

في الآيات السابقة ذكر الله تعالى المشورة في فِطام الطفل الرضيع، وذكر الأمر بالشورى في ﴿الْأَمْرِ﴾، و(أل) في ﴿الْأَمْرِ﴾ للجنس، والمراد بـ ﴿الْأَمْرِ﴾ هنا: الأمر المهم الذي يؤتمر له، وهو مهمات الأمة ومصالحها في الحرب وغيرها، وذلك في غير أمر التشريع؛ لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه^(٣).

والمقصود أن الشورى مأمور بها على وجه العموم، فيدخل في ذلك كل أمر ذي بال من أمور الأمة، فتدخل الشورى في:

(١) المرجع السابق.

(٢) بهجة المجالس (ص ٩٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ١٤٧).



- اختيار الحاكم للولاية الكبرى فما دونها.

- شؤون الحكم فيما بعد ذلك، ومنها شؤون الحرب والسلام، وقضايا الاقتصاد والبناء والإعمار والإسكان والعسكرية، وكل شؤون الدولة.

والدليل على ذلك الإطلاق الذي في الآية الكريمة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: كل أمرٍ ذي بال، فـ(أل) للجنس كما تقدم.

والمدح الذي نزل على فعلهم الشورى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، هو تشاورهم في أي أمر من أمورهم.

وقد كانت سياسة رسول الله ﷺ هي الترجمة الحية لهذا المبدأ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(١).

وحين خرج يوم بدر، وقف رضي الله عنه يستشير الصحابة ويقول: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»^(٢). وقد تكرر منه ذلك في أكثر من موطن وحدث^(٣). حتى إنه رضي الله عنه كان يستشير في أموره الخاصة^(٤)، حتى إن الشورى أصبحت سمة بارزة في حياة النبي ﷺ طيلة حياته بين مجتمع الصحابة، يؤسس ويعلم ويرشد لهذا المبدأ العظيم^(٥).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢٣١) وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧٢٠)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٧٢)، قال ابن حجر في فتح الباري (٣/٥٩٣): رجاله ثقات، إلا أنه منقطع.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١١/٢٢٠)، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٣/١٦٢).

(٣) كما في قصة استشارته ﷺ في حادثة الإفك، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٥٧) ومسلم (١٣٣٣)، وفي يوم الحديبية كما أخرجه أحمد (١٩٢٣١) والنسائي (٨٥٢٨) وصححه ابن حبان (٤٨٧٢).

(٤) كما في تبعات حادثة الإفك، استشار أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه. أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٦٩).

(٥) وانظر أيضًا في طلبه ﷺ المشورة في أحوال متفرقة: ما أخرجه البخاري معلقًا (٧٣٦٩)، وأخرجه النسائي (٧٦٠٠) وأحمد (٢٤٨٤)، والحاكم (٢٦٠٣)، وما أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وما أخرجه =

المحور الخامس: إشكالية أحاديث قریش والبطنيين في مواجهة مبدأ

الشورى القرآني

هذه واحدة من القضايا الشائكة في تراث الأمة وتاريخها، والحقيقة أن الحديث فيها متشعب ومتشابك، غير أنني سأختصر قدر الإمكان، فليس الغرض نقاش كل تفاصيل وأدلة هذه القضية؛ فقد تولى الكثير مناقشتها، ولكننا نأخذ القدر الذي يعيننا هنا.

وموضوع أن يكون الإمام العام للمسلمين من قریش هو رأي أكثر أهل العلم، وقد بنوا رأيهم ذلك على عدة أدلة، أهمها: حديث «الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ»^(١)، وما في معناه، كما استدلوا بفعل الصحابة حين ولّوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وهو قرشي، ثم الثلاثة بعده وهم قرشيون، كما استدلوا بتتابع الأمر على ذلك في دولة بني أمية وبني العباس.

وبخلاف الحديث السابق، فإن بقية الأدلة لا معنى لها؛ لضعفها أو عدم صراحتها، وهنا نجمل أهم نقاط وأدلة من ردّوا هذا القول، وجعلوا الحكم والخلافة في عموم المسلمين، ثم نزيد عليها إن شاء الله. ونحن نجد أن من اتفقوا على رد هذا القول على عدة اتجاهات في ذلك:

الاتجاه الأول: تضعيف حديث: «الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ»، وعللوا ذلك بثلاثة أوجه:

الأول: أن سند الحديث ضم بعض المجاهيل، وإنما صُحِّح الحديث لكثرة طرقه، وهذا يكسب الحديث طابع الضعف الذي لا يقوى معه أن يكون أصلاً

= البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٥)، (٩٢٠)، (١٣٤١)، والحاكم في المستدرک (٥٨٥٤)، وما أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١).

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٢٩)، والنسائي (٥٩٤٢)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكره ابن حجر في: التلخيص الحبير (٤/ ٨٠) وحسن إسناده.

من أصول الدين، أما حديث: «الْأَيْمَةُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ» فلم يصح عن رسول الله، ولذا لم يعتمد به أهل السنة وهم جمهور الأمة.

أما حديث: «الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ» فقد اشتهر بين العلماء، ولكن الشهرة لا تعني دائماً الصحة، ومما يشكك في ثبوته: أنه لو كان معروفاً لدى الأنصار ما قال قائلهم يوم السقيفة: «منا أمير ومنكم أمير». وهم ليسوا من قريش، ولو كان معروفاً لدى المهاجرين لردَّ به عليهم أبو بكر، وكفى به حجّة لو صحَّ. ولكنه لجأ إلى ترجيح المهاجرين باعتبارات اجتماعية، كقوله: «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش»^(١)!

وعلى كل حال لم يرد الحديث في الصحيحين ولا أحدهما، وإنما ورد بأسانيد لم يسلم سند فيها من مقال، وإنما صحَّحه من صحَّحه بكثرة طرقه وشواهده^(٢).

إن الأحاديث الخطيرة التي تقرّر مبادئ وأصولاً مهمة للحياة الإسلامية لا يجوز أن يُقبل فيها ما كان ضعيفاً بأصله، وإنما صُحِّح بكثرة طرقه^(٣).

الثاني: أن الحديث وضعه بعضهم نتيجة شدة الصراع السياسي على الحكم بين الأمويين والعباسيين وخصوصهم.

الثالث: أن الحديث احتوى كلمات سياسية حادثة مثل كلمة: «الْأَيْمَةُ»، وهو مصطلح لم يُعرف في عهد النبوة، وإنما وُجد بعد!

(١) أخرج البخاري بمعناه، حديث رقم (٦٨٣٠).

(٢) كما قال محققو مسند أحمد بن حنبل في تخريج الحديث رقم (١٢٣٠٧) عن أنس: «... الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ»: إن إسناده ضعيف لجهالة راويه: بكير بن وهب الجزري. ولكن صحَّحوه بكثرة طرقه الضعيفة!

(٣) لا سيما أن الأئمة المتقدمين مثل: ابن مهدي وابن المديني وابن معين والبخاري وغيرهم، ما كانوا يعتمدون على كثرة الطرق هذه، وإنما اشتهرت بين المتأخرين. ينظر: الباعث الحثيث (ص ٣٣) وما بعدها.

الاتجاه الثاني: اتجه من يذهب إلى تعليل الحكم بعله قد تتغير بتغير كل عصر.

وهذا الرأي يذهب إلى تعليل هذه النصوص، وأن العلة من اختصاص قريش بالخلافة أنهم أهل الشوكة والمنعة، وأن عصبتهم كافية لسوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم، وأنه حيث كانت العصبية كانت الخلافة، واليوم وقد زالت عصبية قريش، بل إن العصبية لم يعد لها مكان في حكم الشعوب وحل محلها رضا الشعوب عن الحكام وتأيدهم لهم وشرعية السلطة، فلا مكان لهذا الشرط^(١).

الاتجاه الثالث: اتجه من يذهب إلى أن هذا الحديث يُقرأ على أنه من أحاديث السياسة المؤقتة لا من باب بيان الحكم التشريعي العام.

الاتجاه الرابع: اتجه من يذهب إلى صعوبة تطبيق هذا الحديث في هذا العصر؛ وذلك لتفرق قريش، وكثرة الأدعاء، فلا يتفاضل الناس في هذا الزمان إلا بالتقوى^(٢).

الاتجاه الخامس: اتجه من يُحكم الواقع المعاش، فلا يشترط القرشية بحكم الواقع الذي فيه خلفاء غير قرشيين^(٣). فحكم الباقلاني والجويني بجواز كون الحاكم تركيًّا سلجوقيًّا لما كان هؤلاء هم الحكام في عصرهم^(٤).

«وهذه الاتجاهات يمكن مناقشتها، وفعلاً قد ناقشها من حصروا الحكم والخلافة في قريش، لكنني أنبه هنا إلى جرأة من يرى أن الأحاديث مصنوعة

(١) وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون كما في مقدمته (١/ ٢٤٤)، ومشى عليه كثير من الكتاب المعاصرين، منهم الدكتور محمد سليم العوا، في كتابه النظام السياسي في الإسلام.

(٢) وهو اتجاه الشيخ محمود شاكر، في كتابه الخلافة والإمامة، المكتب الإسلامي.

(٣) ذهب إلى هذا الباقلاني وغيره، انظر: الموسوعة الكويتية (٦/ ٢١٩).

(٤) يُنظر في بيان هذه الاتجاهات وغيرها: الموسوعة الكويتية (٦/ ٢١٩)، وفتنة السلاية في الإسلام، أحمد بن علي البتيت (ص ٨٤).

سياسيًا؛ فالنظرة إلى الحديث يجب أن تقتصر على صحته ومناقشة سنده، وإلا لأسقطنا ثلثي السُّنة بهذه الأطروحة الفوضوية.

ولا نحتاج لكل ذلك؛ فالحديث ليس من القويّات بمفرده، وأما حديث: «الْإِمَامَةُ فِي قُرَيْشٍ»، فخيرٌ لا إنشاء، ولا يراد به الإنشاء، أي الأمر؛ بدليل عدم استدلال الصحابة به في خلاف السقيفة مع نقل القضية بالتواتر^(١).

فبعد موت رسول الله ﷺ لم يحتاج أحدٌ بهذا الحديث، مما يدل على أنهم لم يفهموه بمثل الفهم الذي طرأ بعد، ولا يجوز أن يقال عرفه بعضهم وجهله بعضهم، كما يقول مَنْ ينتصرون للقول بحصر الخلافة في قريش؛ فإن الحديث ليس عن حكمٍ جزئيٍّ غامضٍ أو مسألة فرعية من مسائل الفقه، بل عن قضية تهم كل شخص وكل بيت مسلم، وهي قضية مَنْ يحكمهم، فلا يمكن أن يكون هذا المعنى بهذا الخفاء وقتًا كانوا أحوج ما يكونون له!

وقد طالبت الأنصار بالخلافة أول الأمر بسقيفة بني ساعدة، بعد موت النبي ﷺ، وهذا مشهور، ولو كانت خاصة بقريش ما طالبوا بها.

وفي صحيح البخاري: قال رسول الله ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيَّةً»^(٢).

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال عند موته: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا ما تخالجنى فيه الشك، أو: ولو استخلفت سالمًا مولى حذيفة فسألني عنه ربي: ما حملك على ذلك؟ لقلت: ربّ سمعت نبيك وهو يقول: «إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ حَقًّا مِنْ قَلْبِهِ»^(٣)، وسالم لم يكن مولى لأبي حذيفة، وإنما هو مولى لامرأة من الأنصار،

(١) المقدمة في فقه العصر، د. فضل بن عبد الله مراد (١/ ١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٢).

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٨٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤٣٠ (١/ ١٧٧). وغيره بألفاظ متعددة.

وهي أعتقته وربّته، ونُسب إلى أبي حذيفة بحلف، فهو من موالي الأنصار. وفي السير: أتى النبي ﷺ بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له: ببحرة ابن فراس: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ يُضَعُّهُ حَيْثُ يَشَاءُ»^(١).

وفوق هذا كله، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، فما معنى أن

تكون الشورى بين المسلمين ثم هي محصورة في قريش؟! هل المقصود بـ ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ بين القرشيين فقط أم جميع المسلمين؟ فإذا كان بين القرشيين فقط، فأين دليل ذلك؟ وسمعا وطاعة لربنا. وإن كان بين المسلمين عامة، فهل المقصود شورى بينهم في أمورهم جميعا أم شورى ليختاروا من قريش؟ إن كان الثاني فأين الدليل؟ وسمعا وطاعة لربنا، وإن كان الأول -وهو الظاهر القرآني- فما بقي إلا أن يُؤَوَّل الحديث فيكون من المُشْكِل الذي يحتاج لبيان.

والعجيب أن مَنْ حصر الحكم في قريش بناءً على نص «الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ» أَوَّلُوا كثيرا من الأحاديث والآثار التي تدل على خلافه! ومن ذلك تأويلهم لحديث القحطاني الذي يسوق الناس بعصاه آخر الزمان^(٢)، وهذا دليل على أن الخلافة يجوز أن تكون في غير قريش، فقالوا: بل هو دليل على تغير الزمان وفساده؛ إذ يلي أمور الناس غير قرشي^(٣)!

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٤)، ورواه غيره.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٣٣).

(٣) ينظر: فتح الباري (١٣/ ١١٦).

وفي البخاري: أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان: «يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ مِنْ قَحْطَانَ»^(١).

وفي المسند: أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي حِمِيرٍ فَفَزَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ فَجَعَلَهُ فِي قُرَيْشٍ، وَسَيَّعَ وَدَّاهُ فِي هَمْ»^(٢): أي: كان في حمير وسيعود إليهم، وإنما قَطَّعه الإمام أحمد كتابةً لمعنى لا يخفى، كما قال الحافظ ابن حجر، فلعل تقطيع الحروف للتأكيد، وهو أسلوب عربي.

وقد عللوا ذلك بما إذا لم تقم قریش بحق الدين^(٣) فإنه يتنقل عنهم، وهذا بعيد؛ لأنه لا دليل عليه، ولأنه لو صح أن تخلو قریش من صالح يقوم بأمر الدين لكان مطعناً؛ إذ كيف يُعَلَّقَ مثل هذا الحكم - وهو الولاية العظمى على المسلمين - بطائفة يخلو منها صالح للقيام بأعباء الدين؟!

وقد ظلت الأمة أكثر من ستة قرون بلا خليفة قرشي، ثم من بعدها تفرقت بلا خلافة، ولو كان الأمر كما زعموا لما خلت هذه الأزمان كلها ممن يجدد معالم الدين في هذا الأمر، وهو أمر غاية في الأهمية، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(٤).

وبهذا يُعلم أن أحاديث الأئمة في قریش إما ضعيفة فتسقط، أو صحيحة تُؤَوَّلُ بمعنى الإخبار لا الإنشاء، وتُردُّ إلى محكم التنزيل الذي جعل الأمر شورى بين المسلمين، وإلى أحاديث النبي ﷺ التي نصت على خلاف ذلك،

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٦٨٢٧)، قال عبد الله بن الإمام أحمد: وكذا كان في كتاب أبي مقطعاً وحيث حدثنا به تكلم على الاستواء. وذكره الهيثمي في: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٩٣ / ٥) وقال: رواه أحمد، والطبراني باختصار الحروف، ورجالهم ثقات.

(٣) فتح الباري (١١٦ / ١٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٩٣)، وصححه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٢٠٣)، والألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨ / ٢).

وإلى فهم الصحابة للنصوص حال تشاورهم في أمور الخلافة.
قال المقبل^(١) بعد ذكر حادثة السقيفة واحتجاج أبي بكر الصديق عليهم بأن
الناس لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش: «وهذا اعتبار منه محض،
ولا شك في أنه اعتبار صالح؛ نظرًا إلى تلك الحادثة، والنبي ﷺ أرسل إلى
جميع الخلق»، ثم قال معلقًا على حديث «الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ»: «روايته بحسب
المعنى كثيرة، والظاهر فيه الخبر؛ ألا ترى أن في بعضها: «لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ
فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ»^(٢)، وفي بعضها: «النَّاسُ تَبَعَ لِقُرَيْشٍ فِي الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ»^(٣)، ولا يأمر النبي ﷺ باتباع الشر، وقد تكلف الناس الاستدلال بتلك
الأحاديث على أن الإمارة في قريش، وأنها محصورة عليهم، وكان يلزمهم أن
القضاء محصور في الأزدي، والأذان في الحبشة»^(٤).

فهذا في قضية أن تكون محصورة في عموم قريش، أما دعوى حصرها في
البطنيين، وهو مذهب الزيدية^(٥)، أو في الاثني عشر إمامًا، وهو مذهب الإمامية
الاثني عشرية^(٦)، فهو أوهى من ذلك كله.

غير أنني أنبهك هنا إلى أن الزيدية بَنَتْ هذا القول على محنة التفاخر
بالنسب، فاحتجوا بحصر الخلافة في قريش، ثم قالوا: وأفضل قريشٍ وأنسبها

(١) هو: صالح بن مهدي بن علي بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن أسعد بن منصور المقبل ثم الصنعاني ثم المكي، ولد في سنة ١٠٤٧هـ، من علماء اليمن الكبار، انتقل إلى مكة، واستقر بها حتى مات في سنة ١١٠٨هـ. ينظر: البدر الطالع (١/٢٨٨).

(٢) أخرجه: البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠) من حديث عبد الله بن عمر ؓ.

(٣) أخرجه مسلم (١٨١٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) الأبحاث المسددة، صالح بن المهدي المقبل (ص ٣٤٨).

(٥) فرقة شيعية تنتسب إلى زيد بن علي، وترى إمامته وخلافته. ينظر: الفرق بين الفرق (ص ١٦).

(٦) طائفة شيعية مغالية، تدعي إمامة اثني عشر من أولاد علي بن أبي طالب، وأن الأخير منهم مختبئ منذ مئات السنين. ينظر: الفرق بين الفرق (ص ١٧).

بنو هاشم، فالخلافة حق لهم من دون قريش والناس أجمعين، «والمراد بالبطنين ذرية فاطمة من الحسن والحسين عليه السلام، وهو مذهب نابع من نظرية الحصر في قريش، ومتفرع عنها، فالقرشية أصل، ونظرية البطنين فرع.

فاتحجوا بأن المسلمين أجمعوا ما عدا الخوارج^(١) وبعض الفقهاء - كما سبق - على أن منصب الخلافة لا يصلح إلا في بطن من بطون قريش، ولا شك أن بطن بني هاشم خير بطون قريش، والحسن والحسين ونسلهما خير بني هاشم، فهم أولى بها، وساقوا من الأدلة العقلية والنقلية والاحتجاجات ما يناسب المنصب الإلهي المعين من الله، المنصوص عليه كالنبوة في حق علي والحسن والحسين، كما زعموا!»

وأنت تلاحظ أنهم بموضوع النسب هذا قد امتحنوا الناس في دينهم وديناهم، وأصبح كأنه كالشهادتين، يُقَدَّم ولا يُتَقَدَّم!

المحور السادس: حتمية مبدأ الشورى

الشورى في الحكم وإدارة الدولة بجميع تفاصيلها واحدة من مفاخر الإسلام، وهو أول من أقرّه كنمطٍ جديد لم تكن البشرية قد اهتمت إليه، وقد طُبّق فعلاً في الحقبة الراشدة - كما تقدم وتناولناه - ثم خُرم هذا المبدأ وأُقصي من حياة المسلمين تحت ذرائع عديدة وواهية، لكن هذا الذي حدث!

ولن تستقر الأمة في هذا المجال وتخرج من الصراعات والدوامة التي هي فيها حتى تحقق هذا المبدأ، وتجعله نمطها.

إن الشورى هي الأمر الخالد للقرآن الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وبهذا النص الجازم يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم، حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه.

(١) طائفة ظهرت في أواخر عهد الصحابة، وكثرت بعض الصحابة. ينظر: الفرق بين الفرق (ص ١٣-٥٤).

وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه.

أما شكل الشورى والوسيلة التي تتحقق بها فهذه أمور قابلة للتحويل والتطوير وفق أوضاع الأمة وملازمات حياتها، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى - لا مظهرها - فهي من الإسلام.

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة؛ فقد كان من جرائها -ظاهرياً في غزوة أحد^(١)- وقوع خلل في وحدة الصف المسلم!

حيث اختلفت الآراء؛ فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة، وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين^(٢).

وكان من جراء هذا الاختلاف ذلك الخلل في وحدة الصف، إذ عاد عبد الله ابن أبيّ ابن سلول^(٣) بثلاث الجيش والعدو على الأبواب، وهو حدث ضخم وخلل مخيف.

كذلك بدا أن الخطة التي نُفذت لم تكن -في ظاهرها- أسلم الخطط من الناحية العسكرية؛ إذ إنها كانت مخالفة «للسوابق» في الدفاع عن المدينة -كما قال عبد الله بن أبيّ - وقد اتبع المسلمون عكسها في غزوة الأحزاب التالية^(٤)، فبقوا فعلاً في المدينة وأقاموا الخندق ولم يخرجوا للقاء العدو، منتفعين بالدرس الذي تلقوه في أحد.

(١) وقعت غزوة أحد في شوال من السنة الثالثة للهجرة. ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣).

(٣) هو: عبد الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، المشهور بابن سلول، رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة. كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر. ينظر: الأعلام/ للزركلي (٤/ ٦٥).

(٤) وقعت غزوة الأحزاب في شوال، السنة الخامسة للهجرة. ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٤).

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج، فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التي رآها والتي يعرف مدى صدقها، وقد تأولها قتيلاً من أهل بيته وقتلى من صحابته وتأول المدينة درعاً حصيناً^(١).

وكان من حقه ﷺ أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى، ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات؛ لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الأمة أكبر من الخسائر الوقتية.

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة، أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أخرج الظروف، وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة ويربها ويعدها لقيادة البشرية، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تُربى بالشورى، وأن تدرب على حمل التبعة، وأن تخطئ -مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة- لتعرف كيف تصحح خطأها وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها، فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة.

واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر في حياة الأمة ليس فيه شيء من الكسب لها إذا كانت نتيجه أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية، إنها في هذه الحالة تتقي خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية، ولكنها تخسر نفسها وتخسر وجودها وتخسر تربيتها وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية، كالطفل الذي يُمنع من مزاولة المشي -مثلاً- لتوفير العثرات والخطبات أو توفير الحذاء!

(١) واقعة الرؤيا أخرجها البخاري (٤٠٨١)، ومسلم (٢٢٧٢).

كان الإسلام ينشئ أمة ويربها ويُعدها للقيادة الراشدة، فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدًا ويرفع عنها الوصاية في حركات حياتها العملية الواقعية كي تدرب عليها في حياة الرسول ﷺ وبإشرافه.

ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريبًا عمليًا واقعيًا في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائيًا، وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويُحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة، لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون لكان وجود محمد ﷺ ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى، وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبته في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة.

ولكن وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ووجود تلك الملابسات لم يبلغ هذا الحق؛ لأن الله ﷻ يعلم أنه لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ومهما تكن النتائج ومهما تكن الخسائر ومهما يكن انقسام الصف ومهما تكن التضحيات المريرة ومهما تكن الأخطار المحيطة؛ لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة، المدركة لتبعات الرأي والعمل، الواعية لنتائج الرأي والعمل، ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبها استعماله، وليثبت هذا القرار في حياة الأمة المسلمة أيًا كانت الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق، وليسقط الحجة الواهية التي تُثار لإبطال هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة،

ولو كان هو انقسام الصف كما وقع في (أحد) والعدو على الأبواب؛ لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق.

على أن الصورة الحقيقية للنظام الإسلامي لا تكتمل حتى نمضي مع بقية الآية، فنرى أن الشورى لا تنتهي أبداً إلى الأرجحة والتعويق ولا تغني كذلك عن التوكل على الله في نهاية المطاف: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن مهمة الشورى هي تقليب أوجه الرأي واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ، التنفيذ في عزم وحسم وفي توكل على الله يصل الأمر بقدر الله ويدعه لمشيئته ويصوغ العواقب كما يشاء.

وكما ألقى النبي ﷺ درسه النبوي الرباني وهو يُعَلِّمُ الأمة الشورى، ويُعَلِّمُهَا إِبْدَاءَ الرَّأْيِ، واحتمال تبعته بتنفيذه، ولو في أخطر الشؤون وأكبرها، كذلك ألقى عليها درسه الثاني في المضاء بعد الشورى، وفي التوكل على الله وإسلام النفس لقدره - على علم بمجرأه واتجاهه - فأمضى الأمر في الخروج ودخل بيته فلبس درعه ولأَمَّتْهُ^(١)، وهو يعلم إلى أين هو ماضٍ، وما الذي ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات.

وحتى حين أُتِيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ﷺ على ما لا يريد، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى^(٢). حتى حين أُتِيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله،

(١) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح، ولأمة الحرب: أداؤها. ينظر: لسان العرب (١٢/ ٥٣٢).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣).

درس الشورى ثم العزم والمضي، مع التوكل على الله والاستسلام لقدره، وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقلب الرأي من جديد، فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي. إنما هو رأي وشورى، وعزم ومضاء، وتوكل على الله^(١).

والخلاصة: أن الشورى مبدأ قرآني عظيم، ولا مناص في سبيل تحقيق نهضة هذه الأمة واستعادتها لمكانتها في ريادة العالم إلا أن تتجه لتحقيق هذا المبدأ، وما الصراعات الدموية التي تشهدها بلاد المسلمين، وتسلب الأعداء عليها، وضرب بعضهم ببعض إلا نتيجة حتمية لغياب هذا المبدأ العظيم. وادعاء عدم القدرة على السير في طريق الشورى أو عدم استعداد الأمة له زعمٌ واهٍ وباطل، وممارسةٌ للوصاية على هذه الأمة العظيمة بحُجج ضعيفة متهاكة، والقرآن الكريم لا يمكن أن يقرر ما لا يصلح للأمة أو لا تستطيع تطبيقه، ومع ذلك فقد طبقت الأمة هذا المبدأ ومارسته في العهد الراشد، فصلاح لها حال الدنيا، ودانت لها الأمم.

• تحقيق الأمن؛

في الفصل السابق ناقشنا أهمية الأمن كحاجة بشرية، ومرتكزاً من مرتكزات بناء عوامل النهضة في القرآن الكريم، وتحدثنا عن تعريف الأمن لغةً واصطلاحاً، وعن عرض القرآن الكريم للأمن.

ولنستعرض هنا مباشرة أنواع الأمن التي دعا القرآن الكريم لها، ثم أهمية الأمن كعامل قرآني من عوامل النهضة والبناء والإعمار، ثم مقومات الأمن في القرآن الكريم.

(١) نقلنا هذه الجملة الطويلة بتصريفٍ يسير، لجمالها وإحكامها للمقصود، ينظر: ظلال القرآن (١/ ٥٠١).

١ - أنواع الأمن في القرآن الكريم:

اهتم القرآن الكريم - كما أسلفنا - بقضية الأمن، كقضية قرآنية محورية، من حيث إنه حاجة بشرية، ومن حيث جعله معززاً في بناء النهضة الشاملة، فتحدث القرآن عن:

النوع الأول: الأمن العقدي

وهو أهم أنواع الأمن؛ فعليه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١ - ٨٢].

فالأمن هنا هو التوحيد، والموحدون أكثر الناس أمناً، وينبغي أن يكون الأمر كذلك، فمن وحّد الله تعالى حق التوحيد فقد قام بالوظيفة الكبرى والأولى التي خلّق من أجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ورأس العبادة هو التوحيد، وهو شرط العبادة الذي متى فقد اختلت العبادة وأضحت عبثاً لا وزن لها ولا تأثير.

فهؤلاء لهم الأمن المطلق التام، فالإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾: للتنبيه على أن المسند إليه جدير بالمسند.

وقوله: ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾: أشارت اللام إلى أن الأمن مختص بهم وثابت، وهو أبلغ من أن يُقال: آمنون. والمراد الأمن من عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه وما عذبت به الأمم الجاحدة، ومن عذاب الآخرة؛ إذ لم يكن مطلوباً منهم حينئذٍ إلا التوحيد^(١).

ومما يدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣٣).

مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ
لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿النحل: ١١٢﴾: والآية وإن كانت
 في الأمن الاقتصادي بدرجة أخص، إلا أن جميع أنواع الأمن مفتقرة للأمن
 العقدي التوحيدي الإيماني، وما لم يتحقق هذا الأمن بشكل كبير في المجتمع
 والأمة فإنه لا أمن مطلقاً في أي مجال، وما نلاحظه في بلاد أوروبا والغرب
 عموماً ونسمعه دليل ذلك.

فعلى رغم قوة الأجهزة الأمنية والقضائية هناك، وقوة الأمن الاقتصادي
 وغيره من أنواع الأمن، إلا أن الجريمة في أعلى معدلاتها في تلك البلدان،
 وعصابات القتل والاختطاف والجريمة المنظمة والاعتصابات هي الأعلى^(١)!
 إن الأمن العقدي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الغيبي، ذلك المعنى الذي
 يجعل الإنسان يراقب قوة ما لا يراها، لكنه يشعر بقوتها، حتى في الأوقات التي
 يكون فيها في خلوٍ من المراقبة الأمنية أو النظامية.

إنه يخاف الله ويخشاه بالغيب: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ

السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿الأنبياء: ٤٩﴾.

فهذا المفهوم الكبير -الأمن الذاتي- حاضر في بناء النهضة وإعمار
 الأرض في الحضارة الإسلامية، وهي أحد مقومات الأمن كما سيأتي، بخلاف
 الحضارات الأخرى التي لولا رقابة النظام وسلطة الدولة فيها لأكل بعضهم
 بعضاً؛ إذ لا وازع آخر يبعث على الأمن.

ولهذا كان معيار الخوف الذاتي من الرقابة الإلهية بالغيب أحد الاختبارات
 للبشر: ﴿لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وإذا ما تحقق هذا

(١) ينظر: تقرير مؤتمر الأمم المتحدة الثالث عشر لمنع الجريمة والعدالة الجنائية، الدوحة، ١٢-١٩ إبريل ٢٠١٥م (٥)، وما بعدها.

المعيار وانتشر في المجتمع أمن بدرجة كبيرة.

ومن هنا رتب القرآن الجزاء الكبير على هذا المعيار، وهو جزاء غيبي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [المُلْك: ١٢]، لكن يبقى الجزاء الدنيوي واضحاً كذلك، وهو الأمن والطمأنينة في جميع المجالات كما نصت عليه آية سورة النحل وهي تحكي الحالة المعاكسة: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

إن الأمن العقدي ضرورة لأمن المجتمع وإصلاح الأرض واستدامة التنمية والإعمار فيها.

النوع الثاني: الأمن النفسي

وقد اهتم القرآن بهذا النوع من أنواع الأمن، وربطه بأسبابه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]: تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق؛ بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضُر ومن كل شر إلا بما يشاء الله، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء. وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها؛ لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري

في القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنيس، فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه.

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يُحرمون طمأنينة الأُنس إلى الله، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون.

ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لِمَ جاء؟ ولِمَ يذهب؟ ولِمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يُوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود.

ليس أشقى في الحياة ممن يُشَقُّ طريقه فريدًا وحيدًا شاردًا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هادٍ ولا مُعين.

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنًا إلى الله، مطمئنًا إلى حماه، مهما أُوتِيَ من القوة والثبات والصلابة والاعتداد... ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ^(١).

وأما عامل هذا الأَمْنِ النفسي فواضح، إنه ذكر الله ﷻ بمفهومه الواسع، ولذلك اختلفت كلمة المفسرين في تفسير ذكر الله في الآية، فقيل: تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن، وقيل: تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألستهم، وقيل تطمئن بالقرآن، وقيل تطمئن بوعده الله، وقيل: تطمئن بالحلف باسمه تعالى، وقيل: تطمئن بذكر فضله وإنعامه كما تَوَجَّل بذكر عدله وانتقامه وقضائه ^(٢).

(١) ظلال القرآن (٤/ ٢٠٦٠).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٩/ ٣١٥).

وكلها معانٍ متقاربة، والمقصود أن في جميع ذلك، بل في كل تفاصيل الخير التي أتى بها الإسلام والقرآن، الاطمئنان والسلام النفسي إذا ما أُعملت في النفس وأخذت مكانها من العمل والتطبيق.

وإذا ما قارنت ذلك بالخواء الذي يعيشه الإنسان الأوروبي والغربي في حضارته وجدت الفرق شاسعاً وواضحاً، ويترجم ذلك ارتفاع معدلات الهروب إلى المخدرات والانتحار^(١).

ولذلك فإن الحياة الطيبة بمفهومها الشامل هي ما حرص عليها القرآن وهو يبيّن عوامل نهضة الأمة ويقررها في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والحياة الطيبة في هذه الأرض لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال؛ فقد تكون به وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية؛ فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة.

وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله^(٢).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَّآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]: والطوبى: قيل هي الفرح وقرة العين. وقيل: نعم مالهم، وقيل:

(١) يُنظر جدول وإحصاءات معدلات الانتحار في دول أوروبا والغرب، كتاب: الانتحار، إميل دوركايم، ترجمة: حسن عودة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م (ص ١٣) وما بعدها.

(٢) ينظر: ظلال القرآن (٤/ ٢١٩٣).

غبطة لهم. وقيل: خير لهم، وقيل: هي كلمة بمعنى: أصبت خيرًا، وقيل بل بمعنى: حسنى لهم. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها^(١)، وقيل غير ذلك. وكل ذلك يجمعه جامع الحياة الطيبة التي لا يكدرها الضيق النفسي والبؤس الذاتي النابع من العمق بسبب الخواء الروحي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

فرتب على الإعراض عن هدي الله اختلال حاله في الدنيا والآخرة، فالمعيشة في الآية مرادٌ بها مدة المعيشة، أي مدة الحياة.

والضنك: الضيق، يقال: مكان ضنك: أي ضيق. ويستعمل مجازًا في عسر الأمور في الحياة، وهو هنا بمعنى عسر الحال من اضطراب البال وتبلبله، والمعنى: أن مجامع همه ومطامح نظره تكون إلى التحيل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك على الازدياد، خائف على الانتقاص، غير ملتفت إلى الكمالات ولا مأنوس بما يسعى إليه من الفضائل، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكن نفسه غير مطمئنة^(٢).

فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلّاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة^(٣).

وانظر هنا كيف رتب الضيق على الإعراض عن ذكر الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، بينما في آية سورة الرعد رتب الاطمئنان والأمن

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣١).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٣).

والسلامة على ذكر الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقد مرَّ أن ذكر الله المقصود هو بمعناه الواسع الشامل لكل ما يحبه الله ويرضاه من قولٍ وفعلٍ واعتقاد، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]: فنفى عنهم الخوف، وهو ضد الأمن.

وقد تطرق القرآن الكريم لبيان هذا النوع من الأمن بصور متعددة، منها: الصورة الأولى: بيان موجب الرخاء الاقتصادي، وهو الإيمان والتوحيد، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فحين يتخبط الإنسان في ضلاله، ويجحد نعمة ربه ويكفر، يذيقه الجوع والخوف في آنٍ، وكل واحدٍ من هذين بلاء، فكيف إن اجتماعاً؟! فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم^(١). الصورة الثانية: بيان موجب الاستمرارية في الرخاء والنعمة والخير، والزيادة فيه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالمقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه، ولا بد هاهنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عن الاشتغال بالشكر.

أما الشكر فهو: عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص ٤٥١).

النفس على هذه الطريقة.

وأما الزيادة في النعم فهي أقسام: منها النعم الروحانية، ومنها النعم الجسمانية.

أما النعم الروحانية: فهي أن الشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته، فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية.

وأما مزيد النعم الجسمانية: فلأن الاستقراء دل على أن من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر، كان وصول نعم الله إليه أكثر، وبالجملة فالشكر إنما حسن موقعه لأنه اشتغال بمعرفة المعبود، وكل مقام حرّك العبد من عالم الغرور إلى عالم القدس، فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا^(١).
والآيات في القرآن الكريم التي تربط بين الشكر ودوام الرخاء والنعمة كثيرة.

الصورة الثالث: عدم الإسراف والتبذير؛ حفاظاً عليها، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَآئُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

(١) ينظر: تفسير الرازي (٦٦/١٩).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

والإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي، بخلاف التبذير؛ فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي^(١).

والقرآن نهى عن الأمرين؛ لأن النتيجة من حيث الأثر الواقع واحدة. الصورة الرابعة: الصبر ورباطة الجأش عند النقص، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ومعنى الصبر: التحمل مع السعي لتلافي هذا النقص؛ لأن الله تعالى أمر بمقاومة الجوع والنقص في الأموال والثمرات وغيرها.

الصورة الخامسة: التدبير، ويمكن أن يؤخذ هذا المعنى من قصة يوسف عليه السلام وتديره للأموال في فترة القحط الذي أصاب البلاد، ولذلك قال في تفسير الرؤيا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩].

فخزن في السبع الأولى - مع العمل الدؤوب فيها - للسبع الثانية الشداد. الصورة السادسة: استعمال العلماء الأمناء في الاقتصاد وإدارة الأموال في مواقع المسؤولية الاقتصادية، وهذا يؤخذ من قول يوسف عليه السلام للملك: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

الصورة السابعة: السعي والضرب في الأرض لتنمية المال ورفع الحالة

(١) التعريفات (٢٤).

الاقتصادية، وهذا يؤخذ من قول الله تعالى: ﴿وَعَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةُ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤].

فرحلتا الشتاء والصيف كانتا للتجارة والضرب في الأرض لتنمية المال وتوفير الاحتياجات على مدار العام^(١).

الصورة الثامنة: ترك الربا والتعامل به؛ فهو تدمير للاقتصاد، ومحقق للوضع المالي للمجتمع، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

الصورة التاسعة: إخراج الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، والدفع بعجلة التكافل الاجتماعي، فهذه خطوة كبيرة في استردار المال، واستدامة الرخاء الاقتصادي، ومضاعفة الأموال، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوًا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٦٥١).

ومعنى: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]: أي ينمّيها في الدنيا بالبركة ويكثرها^(١).

وأما قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، فالمضاعفة أوسع من حصرها في مضاعفة الأجر، بل تشمل كذلك تكثير المال وتنميته وتكبيره ومضاعفته.

النوع الرابع: الأمن السياسي

وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]: فحثوا على التلطف؛ حتى لا يشعر بهم من يطلبونهم. ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

وقوله تعالى في ذات السياق في قصة إفلات موسى من فرعون وجنوده: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

فهذه إشارات إلى أهمية الأمن، واتخاذ التدابير بشأن ذلك، ويمكن أن تكون آية خروج النبي ﷺ مهاجرًا دليلاً على أهمية الأمن السياسي، فقد اتخذ تدابير عالية، حكى القرآن بعضها: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]: فكان الغار وسيلة من وسائل الأمن المؤقتة.

ومن وسائل الأمن الكتمان وعدم إذاعة الأسرار، أسرار الدولة والمجتمع، وعدم إثارة القلاقل، وأهمية نظر المختصين والخبراء في كل طارئ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٦٢).

وَالْأُولَى الْأَمْرُ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء: ٨٣]: حتى لا يفزع المجتمع ويؤثر على أداء الأجهزة المعنية والمختصة.

النوع الخامس: الأمن الغذائي والمائي

والآيات السابقة في الأمن الاقتصادي دليل عليه، وكذلك قول الله ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]: حتى لا يهدر الغذاء والماء.

ونبه على هذه الإشكالية حتى لا تقع، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]: وغورًا: أي غائرًا ذاهبًا في الأرض لا تناله الدلاء، ولا يمكن استجلابه بالطرق الحديثة لبُعده، أو لملوحته، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

وأجاجًا: أي ملحًا شديد الملوحة، لا يُنتفع به في شرب ولا زرع ولا غيرهما^(١).

كما نبّه على أهم وسائل المحافظة على الغذاء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَهُم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]: والمقصود إقامة شرع الله تعالى، فقد كانت التوراة والإنجيل حينها شرعهم.

النوع السادس: الأمن الوطني، أو أمن الوطن

قال تعالى منبهاً على أهمية هذا الأمن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

(١) المرجع السابق (١٧/ ٢٢١).

وذكر الله تعالى ذلك الأمن المقصود في سورة قريش، ﴿وَعَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

وامتن الله ﷻ بأمن الوطن على عباده؛ تنبيهًا على السعي في ذلك، قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وتنبيهًا على أن الاستقامة على دينه وشرعه أكثر ما يحافظ على أمن الأوطان، قال تعالى وهو يذكر دعواهم الكاذبة في أن اتباع شرعه ودينه سبب الخوف في الأوطان: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

النوع السابع: الأمن المجتمعي

وتبّه عليه القرآن الكريم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]: والمقصود أن تخرج طوائف للقتال، وطوائف أخرى تعمل على تأمين مصالح المجتمع في جميع المجالات، وتبّه على العلم لأهميته، ولأنه بوابة إدراك الأمن في بقية الأمور.

وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، ويأمنوا جانب تلك الحاجة، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم وديارهم، ولو تفرقت الطرق

وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور^(١).

ومن وسائل الأمن المجتمعي الاجتماع، ونبد الفرقة والخلاف المُفْضِي للمنازعة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فإذا تآلفت القلوب واجتمعت أصبحوا كالإخوة فيأمنوا، وهل يخاف الأخ من أخيه؟! من أخيه؟!

ومن الأمن الاجتماعي ترشيد الاحتياجات الجنسية بسبيل الزواج الشرعي؛ حتى لا تنتشر الجريمة فيحدث جرّاءها الاختلاف والافتراق، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. وقال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

وغيرها من الآيات التي نهت على هذا المعنى.

ومن الأمن المجتمعي المحافظة على أخلاقه، والحث على التأدب بها، وقد نبه القرآن على ذلك في آيات كثيرة، منها سورة الحجرات؛ ففيها جملة كبيرة من الآداب المجتمعية كحرمة التجسس والاعتياب والسخرية والافتراق، وغيرها.

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص ٣٥٥).

ومن الأمن الاجتماعي إقامة الحدود الشرعية كحدّ السرقة، وحدّ القتل، وحدّ الزنى، وقطع الطريق، وغيرها، وكل ذلك سطره القرآن الكريم وبينه كواحد من أهم عوامل الأمن في المجتمع. والمقصود بإقامتها ردع العنصر الفاسد الذي يمكن أن يخل بأمن المجتمع، فيحصل بذلك الأمن.

٢- أهمية الأمن كعامل من عوامل النهضة :

إن مفهوم الأمن واسع في القرآن الكريم، وقد نبه عليه وحث على تنميته بجميع أنواعه كواحد من عوامل البناء والنهضة، واليد التي تخاف لا يمكن أن تبني، والمجتمع الذي يتشر فيه الخوف بجميع أنواعه لا يمكن أن يرتقي، ألا ترى أن الفئة المؤمنة الأولى من أصحاب النبي ﷺ لم يستطيعوا البناء وإقامة دولتهم إلا بعد أن آمنوا في المدينة النبوية على أنفسهم وأموالهم وأهلهم وبقية شؤونهم؟

وفي واقعنا المعاصر فإن البلدان والأمم الأكثر أمنًا هي الأكثر بناءً ورخاءً، الأمن النابع من سلطة عادلة لا طاغية.

٣- مقومات الأمن في القرآن الكريم :

جعل القرآن الكريم للأمن عدة مقومات، من أبرزها:

١. الإيمان: ولذلك كثيرًا ما تَبَّه عليه في مواطن ذكر الأمن، كقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٢. العمل الصالح: وقد تَبَّه عليه كثيرًا مع الإيمان، وجمع الله بينهما في مثل

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ٢٢٧﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وحين يُذكر العمل الصالح فالمقصود كل عملٍ ديني أو دنيوي يصلح به حال الإنسان وأرضه وبلده.

وقيد «الصلاح» مهم جدًّا؛ فالجميع يعمل ويكدّ لكن العمل الصالح وحده هو الذي يساهم في توفير الأمن بجميع أنواعه.

فالعقيدة غير الصالحة لا يمكن أن يأمن بها الناس.

والنفسية غير الصالحة لا يمكن أن يأمن معها الناس، بل هي مهدّدة للأمن.

والاقتصاد الذي لا يقوم على الصلاح لا يمكن أن يأمن به الناس، فسقوطه

حتمي، والخوف به قريب.

وهكذا بقية أنواع الأمن لا بدّ أن يُشترط فيها الصلاح.

• مبدأ العدل والمساواة:

العدل لغةً: نقيض الجور، تقول: عدل في رعيته، ويوم معتدل إذا تساوى

حالا حرّه وبرده، ويقال: عدلته حتى اعتدل: أي أقمته حتى استقام واستوى^(١).

واصطلاحًا: هو وضع الشيء في موضعه الذي أمر الله تعالى به، ودل عليه

شرعه.

أما المساواة فهي من التساوي، ومن حيث المعنى فيها اتجاهاً:

الأول: أن معنى المساواة إزالة كل الفوارق بين الناس، فهم سواء، لا يُفرّق

بينهم دين، ولا شرع، ولا قانون، ولا جنس، وسُمّيت بالمساواة المطلقة.

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٧).

الثاني: معناها المماثلة الكاملة بين الأشياء، إلا ما جاء الشرع بنفي التسوية فيه، باعتبار أن الشريعة لها الحق المطلق في التسوية والتفريق^(١)، وهي بهذا المعنى الثاني رديفة لمعنى ومفهوم العدل.

والقرآن الكريم يتناول مفهوم العدل والمساواة -إذا ما استصحبنا المعنى الثاني للمساواة- بصور عديدة، منها:

الصورة الأولى: الأمر بالعدل بين الناس مطلقاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فالعدل مساواة بين الناس -أو بين أفراد أمة- في تعيين الأشياء لمستحقها، وفي تمكين كل ذي حق من حقه، بدون تأخير، فهو مساواة في استحقاق الأشياء وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها، فالأول هو العدل في تعيين الحقوق، والثاني هو العدل في التنفيذ.

وليس العدل في توزيع الأشياء بين الناس سواء بدون استحقاق.

فالعدل وسط بين طرفين، هما: الإفراط في تخويل ذي الحق حقه، أي بإعطائه أكثر من حقه، والتفريط في ذلك، أي بالإجحاف له من حقه، وكلا الطرفين يُسمى جوراً.

والعدل يدخل في جميع المعاملات، وهو حسنٌ في الفطرة؛ لأنه كما يصد المعتدي عن اعتدائه كذلك يصد غيره عن الاعتداء عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وإذ قد كان العدل بهذه الاعتبارات -تجول في تحديده أفهامٌ مخطئة-

(١) ينظر: أثر المساواة في الفكر الإسلامي المعاصر، د. علاء الدين الأمين الزاكي، مجلة البيان، عدد (٢٤٠)، شعبان ١٤٢٨ هـ (ص ٨).

تَعَيَّنَ أَنْ تُسَنَّ الشَّرَائِعَ لَضَبْطِهِ عَلَى حَسَبِ مَدَارِكِ الْمَشْرِعِينَ وَمَصْطَلَحَاتِ الْمَشْرِعِ لَهُمْ، عَلَى أَنَّ مَعْظَمَهَا لَمْ يَسْلَمْ مِنْ تَحْرِيفٍ لِحَقِيقَةِ الْعَدْلِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ؛ فَإِنْ بَعْضُ الْقَوَانِينِ أُسِّسَتْ بِدَافِعَةِ الْغَضَبِ وَالْأَنَانِيَةِ، فَتَضَمَّنَتْ أَخْطَاءَ فَاحِشَةٍ، مِثْلَ الْقَوَانِينِ الَّتِي يُمْلِيهَا الثَّوَارُ بِدَافِعِ الْغَضَبِ عَلَى مَنْ كَانُوا مَتَوَلِّينَ الْأُمُورَ قَبْلَهُمْ، وَبَعْضُ الْقَوَانِينِ الْمَتَفَرِّعَةِ عَنْ تَخِيلَاتٍ وَأَوْهَامٍ، كَقَوَانِينِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْأُمَمِ الْعَرِيقَةِ فِي الْوُثْنَةِ.

وَنَجِدُ الْقَوَانِينِ الَّتِي سَنَّهَا الْحُكَمَاءُ أَمَكْنَ فِي تَحْقِيقِ مَنَافِعِ الْعَدْلِ، كَمَا أَنَّ أَعْلَى الْقَوَانِينِ هِيَ الشَّرَائِعُ الْإِلَهِيَّةُ؛ لِمَنَاسِبَتِهَا لِحَالٍ مِنْ شُرْعَتْ لِأَجْلِهِمْ، وَأَعْظَمُهَا شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ؛ لِابْتِنَائِهَا عَلَى أُسَاسِ الْمَصَالِحِ الْخَالِصَةِ أَوْ الرَّاجِحَةِ، وَإِعْرَاضِهَا عَنْ أَهْوَاءِ الْأُمَمِ وَالْعَوَائِدِ الضَّالَّةِ، فَإِنَّهَا لَا تَعْبَأُ بِالْأَنَانِيَةِ وَالْهَوَى، وَلَا بِعَوَائِدِ الْفَسَادِ، وَلَأنَّهَا لَا تُبْنَى عَلَى مَصَالِحِ قَبِيلَةٍ خَاصَةٍ، أَوْ بَلَدٍ خَاصٍ، بَلْ تُبْنَى عَلَى مَصَالِحِ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ وَتَقْوِيمِهِ وَهَدْيِهِ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ، وَمَنْ أَجَلُ هَذَا لَمْ يَزَلِ الصَّالِحُونَ مِنَ الْقَادَةِ يَدُونُونَ بَيَانَ الْحَقُوقِ حِفْظًا لِلْعَدْلِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ وَخَاصَّةَ الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]: أَيُّ الْعَدْلِ. فَمِنْ هَذِهِ الْحَقُوقِ مَا هُوَ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمِنْهَا مَا اسْتَنْبَطَهُ عُلَمَاءُ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ فَهُوَ مُدْرَجٌ فِيهَا وَمُلْحَقٌ بِهَا^(١).

وَالْمُرَادُ بِالْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْحُكْمِ بِهِ هُوَ: مَا شَرَعَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَةَ الْعَدْلِ لِيَحْكُمَ بِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ أَوَامِرُ حَسَنَةٍ عَادِلَةٍ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]: وَهَذَا مَدَحٌ مِنَ اللَّهِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ؛

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٥/ ٩٤).

لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون^(١).

الصورة الثانية: الأمر بالعدل والقسط، حتى لو على النفس، أو كان في مقابلة الوالد والولد والأقربين؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]: فأمر بالعدل الذي يعم الأحوال كلها، وما يقارنه من الشهادة الصادقة، فإن العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحق هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي، والانحراف عن ذلك ولو قيد أنملة يجبر إلى فساد متسلسل.

وصيغة ﴿قَوَّامِينَ﴾ دالة على الكثرة المراد لازمها، وهو عدم الإخلال بهذا القيام في حال من الأحوال. والقسط هو العدل. والأنفس: جمع نفس، وأصلها أن تُطلق على الذات، أي: قوموا بالعدل على أنفسكم، واشهدوا لله على أنفسكم، ولو كان قضاء القاضي منكم وشهادة الشاهد منكم بما فيه ضرر وكرهة للقاضي والشاهد، وهذا أقصى ما يبالغ عليه في الشدة والأذى؛ لأن أشق شيء على المرء ما يناله من أذى وضرر في ذاته. ثم ذكر بعد ذلك الوالدين والأقربين؛ لأن أفضية القاضي وشهادة الشاهد فيما يلحق ضرراً ومشقة بوالديه وقربته أكثر من قضائه وشهادته فيما يؤول بذلك على نفسه.

وسواء كان المقسط في حقه، أو المشهود له، غنياً أو فقيراً، فلا يكن غناه ولا فقره سبباً للقضاء له أو عليه والشهادة له أو عليه.

(١) تفسير السعدي (ص ١٨٣).

والمقصود من ذلك التحذير من التأثر بأحوال يلتبس فيها الباطل بالحق لما يحفُّ بها من عوارض يُتوهم أن رعيها ضربٌ من إقامة المصالح وحراسة العدالة.

فأبطلت الآيةُ التأثرَ بالمظاهر التي تستجلب النفوس إلى مراعاتها فيتمحض نظرها إليها، وتغضي بسببها عن تمييز الحق من الباطل، وتذهل عنه.

فمن النفوس من يتوهم أن الغنى يربأ بصاحبه عن أخذ حق غيره، يقول في نفسه: هذا في غنية عن أكل حق غيره، وقد أنعم الله عليه بعدم الحاجة.

ومن الناس من يميل إلى الفقير رقة له، فيحسبه مظلوماً، أو يحسب أن القضاء له بمال الغني لا يضر الغني شيئاً، فنهاهم الله عن هذه التأثيرات بكلمة جامعة وهي قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّهُ أُولَىٰ بِيَهُمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

وهذا التردد صالح لكل من أصحاب هذين التوهمين، فالذي يعظم الغني يدحض لأجله حق الفقير، والذي يرق للفقير يدحض لأجله حق الغني، وكلا ذلك باطل، فإن الذي يراعي حال الغني والفقير ويُقدّر إصلاح حال الفريقين هو الله تعالى.

والتقدير: فلا يهتمكم أمرهما عند التقاضي، فالله أولى بالنظر في شأنهما، وإنما عليكم النظر في الحق.

ولذلك فرّع عليه قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]: فجعل الميل نحو الموالى والأقارب من الهوى، والنظر إلى الفقر والغنى من الهوى.

وبعد أن أمر الله تعالى ونهى وحذر، عقب ذلك كله بالتهديد فقال: ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]: وتلووا: مضارع لوى، واللّي: الفتل والثني، وتفرعت من هذا المعنى الحقيقي معانٍ

شاعت فساوت الحقيقة، فيشمل معاني: العدول عن الحق في الحكم، والعدول عن الصدق في الشهادة، أو التثاقل في تمكين المُحِقِّ من حقه وأداء الشهادة لطالبها، أو الميل إلى أحد الخصمين في القضاء والشهادة.

وأما الإعراض: فهو الامتناع من القضاء ومن أداء الشهادة، والمماطلة في الحكم مع ظهور الحق^(١).

الصورة الثالثة: الأمر بالعدل والقسط حتى مع الخصوم والأعداء: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]: أي لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا، وأراد: أن لا تعدلوا فيهم، لكنه حذف للعلم به، والمعنى: لا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أساءوا عليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهذا خطاب عام، ومعناه: أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف.

ثم قال تعالى: ﴿اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: فنهاهم أولاً عن أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل وهو قوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي هو أقرب إلى الاتقاء من معاصي الله تعالى، أو: هو أقرب إلى الاتقاء من عذاب الله. وفيه تنبيه عظيم على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله تعالى، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه^(٢).

(١) الكلام حول هذه الآية ودلالاتها مستفاد بتصرف من: التحرير والتنوير (٢٢٨/٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٣٢٠/١١).

الصورة الرابعة: الأمر العام بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]: فهذا أمرٌ عام للجميع بالعدل عمومًا، أي مع كل أحد، وزيادة على العدل الإحسان، وأصل العدل المساواة في كل شيء من غير زيادة ولا نقصان، فالعدل هو المساواة في المكافأة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، والإحسان أن تقابل الخيرَ بأكثر منه والشرَّ بأن تغفو عنه^(١).

الصورة الخامسة: نبذ القرآن الكريم العنصرية بجميع أشكالها وصورها: يخرم العدلُ النظرةَ العنصرية لطائفة من المجتمع، وتقسيم الناس وتفضيلهم بناءً على مناطقهم أو ألوانهم أو أنسابهم أو سلالاتهم أو لغاتهم أو غير ذلك مما لا يدخل في كسب الناس وسعيهم، هذه النظرة تخرم العدل وتنافيه، وهي ظلم وفحش، يكشف طمأنينة المجتمع والأمة، ويلقي بين الناس الوحشة والتنازع والافتتال، ومن ثمَّ يوجب لفئة حقوقًا وعلى أخرى واجبات، منافية للعدل القرآني الذي قامت عليه السماوات والأرض. والقرآن حربٌ على العنصرية بجميع أشكالها، ولذلك قرر مبادئ عظيمة في هذا الجانب، مؤسسًا لقاعدة العدل الكلي الشامل.

فبيّن أن الله تعالى خلق الإنسان من مادة التراب: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

ولم يستثن أحدًا منهم بعنصر آخر أو إضافة أخرى، وبث في الإنسان الحياة بنفخه الروح فيه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

ولم يخصص أحدًا من بني الإنسان بنفخة أخرى أو إضافية، اللهم إلا ما

(١) ينظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني (٢/ ٢٥٦).

كان من عيسى ابن مريم ﷺ.

وأطلق على الجميع اسم الإنسان، وأسجد الملائكة تشريعاً لأبيهم الأول، وخلق من ضلع آدم زوجه «حواء» وجعل منهما تناسل جنس الإنسان كله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فالمخلوق الثاني «حواء» هو بُضْعَة من آدم، والمخلوق الثالث من بني آدم وما تلاه إنما هم سلسلة من آدم، إلى آخر مخلوق من بني الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذه بديهية يعرفها الجميع ولا يكابر فيها أحد إطلاقاً، لكنهم بعد ذلك يختلفون في فهمها وفهم دالاتها.

وقد مالت البشرية عن هذه الحقيقة الواضحة والمجمّع عليها بينهم، لتُفَضِّل نوعاً من «التربة» على آخر، رغم أن مصدرهما واحد، وهذا شيء عجيب! ولعل مصدر هذه الخطيئة - تفضيل بعض التراب على بعض - هو إبليس نفسه؛ فإنها كانت خطته الأولى وخطيئته، حين زعم أنه أفضل من آدم بعنصره، فقذف هذه الفكرة إلى بني آدم، ابتداءً من هابيل وقابيل، ثم ما تلتهم من أجيال. وعلى كل حال فقد كان إبليس أذكى ممن يفضّل بعض الطين على بعض؛ فإنه لم يدع التفضيل بين جنس واحد (تراب وتراب) بل بين جنسين مختلفين (النار والتراب)، وهو أمر يمكن أن يُناقش ويُعمل فيه الفكر والنظر!

وقد بُعث النبي ﷺ بعد آلاف السنين من تشبع البشر بهذه الفكرة الخاطئة الخطيئة، فأعلن مناهضتها بالقول والعمل، وبنى شريعته بأمر الله تعالى على

مناهضة هذه الفكرة واعتبارها لاغية، وأنكر أشد النكير على الزاعمين وهم التفضيل بناءً على هذا الأساس الباطل، وأسقط كل تفضيل يُبنى على هذه الفكرة الإبليسية.

فأعلن مرارًا وتكرارًا بالحال والمقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمُ عُيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لِيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمٍ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»^(١).

أذهب عنكم عُيَّةَ الجاهلية: أي أثقالها وكبرها وتفاخرها.

أهون من الجعلان: الجعلان: دابة صغيرة سوداء تجمع الخراء وتذخره، وتستمتع بدس أنفها فيه وتحريكه^(٢)!

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمُ عُيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظَمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»^(٣) [الحجرات: ١٣].

الصورة السادسة: تحديد معيار التفاضل بين البشر في القرآن الكريم:

وعطفًا على ما سبق، فإن القرآن الكريم لم ينص إلا على معيارين للتفضيل،

(١) أخرجه: أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر في شرح الحديث والمقصود منه: عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٤/ ٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٢٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه إسناده الألباني في: السلسلة الصحيحة (٦/ ٧١٩).

هما: التقوى والعلم، وهما المعياران اللذان يقومان على العدل والقسط.

المعيار الأول: التقوى

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، وغيرها من الآيات.

وهذه نصوص قاطعة فاصلة، لا يجوز التنكب عنها لفهم غير مستقيم لحديث أو فتوى فقيه وما شابهه، فأى ظلمة هي أن ينص القرآن بصريح العبارة أن الله خلق الخلق بأنسابهم وشعوبهم وقبائلهم -أي خلقهم من تراب- ثم بعد ذكر الخلق مباشرة ذكر سبب التفضيل والكرامة والتقديم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾، ثم نزع مفضلات أخرى!

فإن أهمل هذا النص الذي هو كالشمس وضوحًا وبيانًا ثم ذهبنا نبش مختلف الحديث ومُسَوِّدَاتِ الأفهام فهو الزيف المستطير!

ثم انظر كيف ختم هذا الحكم والقرار بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، فكأنه يقول: الله تعالى الذي خلق الخلق وجعلهم شعوبًا متنوعة، وقبائل متعددة، هو وحده العليم الخبير بمن هو الكريم منهم والشريف الرفيع، فحدده ووضحه بأنه «الأتقى» وليس النسيب أو الحسيب أو الأبيض أو الأحمر؛ لأنهم جميعًا تراب!

فالعليم الخبير ينص على معيار التفضيل، وأنه التقوى، وبعضٌ يصر على أنه هو أعلم وأخبر، فينص على معايير النسب والحسب واللون والجنس! وهذا خذلان وتنكُّب عن واضحات القرآن المبين.

والآية الأخرى أكثر شمولاً؛ فقد نصت على أن المعيار من بين جميع

البريات هو الإيمان والعمل الصالح.

فأدخلت الأجناس كلها وربما المخلوقات جميعاً في الحصر، تحت قوله: ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، وشملت في موجب التفضيل جميع أنواع الأسباب تحت قوله: ﴿ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البينة: ٧]، فهل كان النسب أو السلالة أو العنصر أو اللون داخل في هذا الشمول؟!

المعيار الثاني: العلم

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وغيرها من الآيات التي قدمت العلماء ونصت على تفضيلهم.

وهذه القضية رغم بديهيته إلا أن الحق سبحانه ينبه على أنه لا يتذكرها ويعقلها إلا ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، كما في الآية السابقة، فأصحاب العقول هم من يدركون أسباب التفضيل الحقيقية التي رتبها الله تعالى، أما غيرهم فيفاضلون بين متماثلات، ولا علاقة للأشخاص فيها، وليست من مكتسباتهم.

فكيف يفرقون تفضيلاً بين طين وطين؟! وتراب وتراب؟! وكيف يجعلون مقياس التفضيل أمراً خارجاً عن سعي المخلوق؟! فهل لأن الله خلقك من نطفة فلان تكون مميزاً؟ ونطفة فلان هذا أليست تعود في النهاية إلى نطفة شخص واحد هو آدم، فكيف تتفاضل إذن؟!

وانظر بتفحص كيف جعل ميزان الرفعة في الآية الثانية هو «العلم»

المكتسب، بعد التقوى كذلك، فالرفعة والشرف يكونان للذين آمنوا وأوتوا العلم، للذين حققوا النقاء الروحي والثراء العقلي، فهل وجدت في القرآن الكريم ما يجعل الميزان في التفضيل للنسب والنطف واللون والمنطقة؟! اللهم حاشا.

لقد جعل القرآن الكريم معيار التفضيل هو التقوى والإيمان بالله والعمل الصالح والعلم النافع، فهل كان التفضيل بالنسب والحسب والقبيلة والسلالة داخلاً في معايير القرآن الكريم؟!

هل النسب واللون والعنصر من التقوى؟

هل القبيلة من الإيمان بالله؟

هل السلالة والمنطقة من عمل الصالحات؟

هل الحسب واللون والمنطقة من العلم؟

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تُكتسب هذه الأشياء؟ كيف يمكن أن يُكتسب

النسب والقبيلة والسلالة والحسب؟!

إنها معايير غير صالحة للتفضيل، وهي ضد الفطرة والعقل والعدل، ولا

شك ستكون ضد القرآن والشرع^(١).

والخلاصة: أن القرآن حين قرر العدل والمساواة بين البشر لم يلتفت لشيء

إلا ما يمكن أن يكتسبه ليتفاضلوا به عنده وفيما بينهم، وهو العلم والعمل

الصالح، فقرر ذلك في مواطن كثيرة منه، وناشد ما سوى ذلك.

فلكل واحدة من هذه الصور الست وغيرها دلائل كثيرة من كتاب الله ﷻ،

فقضية العدل قضية قرآنية كبيرة وخطيرة، وهي من مقاصد القرآن الكريم، بل

من أعظم مقاصد رسالة الإسلام.

(١) ينظر: فتنة السلاية في الإسلام، أحمد بن علي البتيت (ص ١٧).

وإذا ما تحقق هذا المفهوم، مفهوم العدل الشامل، سيكون التنافس على العلم والعمل، لا على معيار آخر لا مقدرة للإنسان عليه بل هو يولد معه، وحين ذلك يتجه الجميع للبناء والسعي لإثبات قدراتهم بأعمالهم وعلومهم، ما يُنتج إصلاحًا وحضارةً وازدهارًا.

• تفعيل مبدأ الرقابة:

الرقابة: مصدر رَقَبَ، والراء والقاف والباء أصل واحد مطَّرد، يدل على انتصاب لمراعاة شيء، من ذلك: الرقيب، وهو الحافظ. يقال منه: رَقَبْتُ أَرْقُبُ رِقَبَةً وَرِقْبَانًا. والمَرْقَبُ: المكان العالي يقف عليه الناظر. ومن ذلك اشتقاق الرقبة، لأنها منتصبة، ولأن الناظر لا بد ينتصب عند نظره^(١).

فمعنى الرقابة في اللغة دائر بين الحفظ والانتظار والملاحظة والانتصاب لذلك كله^(٢).

أما في الاصطلاح: فكلُّ يعرفها بحسب موضوعه الذي يقصده، فالرقابة كالأداة التي تصلح لكل عملٍ، فمن تلك التعريفات بحسب المجال: أنها: رؤية كل شيء بمقتضى الخطة التي اختيرت، والأوامر التي أُصدرت، والمبادئ التي أُرسيت^(٣).

أو أنها: مراجعة الإنجاز وفقًا للخطط الموضوعية. أو: عملية قياس النتائج الفعلية ومقارنتها بالمعايير أو الخطط الموضوعية، ومعرفة أسباب الانحراف بين النتائج المتحققة والنتائج المطلوبة، واتخاذ فعلٍ تصحيحي^(٤).

والرقابة وظيفة إدارية، فردية وجماعية، مهمتها متابعة النشاط وفحصه

(١) مقاييس اللغة (٢/٤٢٧).

(٢) ينظر: لسان العرب (١/٤٢٤).

(٣) فلسفة الفكر الإداري والتنظيمي، ثامر المطيري (ص ٢١٢).

(٤) ينظر: الإدارة العامة... الأسس والوظائف.

بموضوعية؛ بهدف التقويم أو التغيير عند اللزوم، وذلك للتأكد من مشروعية العمل وسلامته، أداءً ووسيلةً وغايةً وتنفيذاً؛ انقياداً لقول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢]، واستشعاراً للمسؤولية؛ لقوله ﷺ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^{(١)(٢)}.

والرقابة والمراقبة مبدأ قرآني عظيم، قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]: فحددت الآية الكريمة جهة المراقبة، وهي: الأول: الله ﷻ بنفسه، وملائكته الكرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]. وقال تعالى على لسان عيسى ﷺ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال تعالى عن نفسه وعن ملائكته ومراقبتهم لعمل الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ^(١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨]: فيخبر الله تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٨)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) ينظر: مقدمة في الإدارة الإسلامية، أحمد داود المزجاجي.

الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيُجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يُكتب عنه مما لا يُرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾، أي: الملكان يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات والآخر ﴿عَنِ الشَّمَالِ﴾ يكتب السيئات. وكلُّ من الملكين ﴿قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] بذلك، متهيئ لعمله الذي أُعد له، ملازم له ومترصّد للإنسان.

وتظهر دقة هذا المراقبة من قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ الإنسان ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ خير أو شر، كما هو إطلاق الآية ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، معتد ومتهيئ لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]^(١).

الثاني: الرسل، وهذا خاصٌّ بهم في حال حياتهم فقط، أما بعد الموت فليس لهم رقابة، ولذلك قال عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]: فهو شاهدٌ يراقب في حال حياته فقط، أما بعد أن رفعه الله ﷻ فعادت الرقابة لله وملائكته الكرام.

وقال الله ﷻ لرسولنا الكريم ﷺ: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] أي: مراقب لأعمالكم، يرى صلاحها وفسادها.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٨)، وتفسير السعدي (ص ٨٠٥).

وهذا بحكم نبوة النبي ﷺ من جهة، وأيضاً من كونه قائداً أعلى للبلاد، فهو يراقب أعمال مجتمعه وشعبه لحفظ الأمن، وتقويم الفساد، وتنمية الصلاح.

الثالث: المجتمع، وهو ما عبرت عنه الآية بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فالمؤمنون، وهم المجتمع، عنصر فاعل في مراقبة السَّير والأداء، سواء سَير القائمين على الإدارة والسلطة أو السَّير المجتمعي.

وقد يكون المقصود بالمؤمنين في الآية أي: قيادة المؤمنين، على نظرة أن المراقبة عمل تخصصي بيد الإدارة والسلطة.

وعلى كلٍّ، وبناءً على جهات المراقبة السابقة، فإنه ينبغي أن تكون هناك خمسة أنواع من المراقبة:

أولاً: الرقابة الذاتية

وهذه خاصة بكل فرد في المجتمع، ويعود مجالها لمراقبة الله ﷻ في كل عمل، وهذه دعا لها القرآن الكريم وعمل على تنميتها في أفراد المجتمع، والآيات السابقة تدل على ذلك، ومنها: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]: فتحثهم على مراقبة الله تعالى مراقبةً ذاتيةً تبعثهم على التقوى والعمل الصالح النافع، واستشعار مراقبة الله لكل حركاتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَا فِئْتَمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

فالمسؤولية فردية، لا يتحمل غيرك تبعات عملك، كما لم يعمل هو نيابةً عنك، ومن جهةٍ أخرى فالمعني يراقب الله ويخشاه بالغيب، فيحدوه ذلك

للعمل الصالح الذي ضربت الآية الصلاة مثلاً عليه.

وفي نهاية الآية تقرر أنه كما كانت المسؤولية فردية، فالثمرة من هذه الحثية فردية كذلك، فمن تزكى فهو يزكي نفسه ويصلحها وينميها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

هذا في جانب العمل والثمرة الصالحة، وهو الحال إن كان العمل فاسدًا ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۖ﴾ [الطلاق: ١].

ولما كان الأمر كذلك في كل الشؤون، قرر القرآن الكريم قاعدة المراقبة الذاتية للذات، ليرى صلاحها وفسادها، فينمي جانب الصلاح، ويصلح جانب الفساد، قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].
فقوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾: بمعنى مبصر، شديد المراقبة، أي الإنسان بصير بنفسه. وعُدِّي بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمينه معنى المراقبة، وهو معنى قوله في الآية الأخرى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].
و(هاء) ﴿بَصِيرَةٌ﴾ تكون للمبالغة مثل (هاء) علامة ونسابة، أي الإنسان عليم بصير قوي العلم بنفسه.

ثانيًا: الرقابة التشريعية

وهذه الرقابة في القرآن مأخوذة من تشريعات القرآن للحوادث اليومية، فيضع لها تشريعات تناسبها، وقد كان القرآن الكريم ينزل منجماً بحسب الوقائع^(١)، ولذلك كان يضع لمظاهر الفساد تشريعات تناسبها، وهذا في القرآن الكريم كثيرٌ جدًّا، ويمكننا التمثيل له بمراقبة المجتمع وسيره في طريقة تحريم

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/١٤٩).

الخمير، لما فيه من إفساد للمجتمع.

فقد بدأ القرآن في بيان الفساد الناتج عنه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

والمقصود بالإثم في الآية فعل ما فيه فساد ولا يُرضي الله تعالى^(١)، وقد كانوا لا يرون في الخمير إلا المنفعة والصلاح، ولذلك فإن الإسلام هو أول تشريع يمنع الخمير ويحرمها، فشرب الخمير كان عملاً متصلاً في البشر قديماً لم تحرمه شريعة من الشرائع، وأما ما يذكره بعض علماء الإسلام من أن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد لهم عليه^(٢).

ثم توالى القرآن الكريم حتى أنزل تحريم الخمير صراحةً بعد أطوار، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فمنعه وحرّمه، وأوضح العلة من هذا التشريع الكريم؛ حتى لا تقع العداوة بسبب الخمير ويفسد المجتمع بانتشار البغضاء، التي سببها الخُمرة والإسكار. ويمكن أن يُؤخذ معنى الرقابة القانونية أو التشريعية من قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٤-٧٥] إلى

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٣٤٣).

(٢) قال الشوكاني: قد تأملت التوراة والإنجيل، فلم أجد فيهما إلا إباحة الخمير مطلقاً من غير تقييد بعدم السكر، فلم يتم دعوى اتفاق الملل على التحريم. ينظر: إرشاد الفحول (٢/ ١٣٠)، وتابعه في ذلك الطاهر بن عاشور، ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٣٣٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْهُوَ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

فقد كانت شريعة إبراهيم عليه السلام: أن السارق يُدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر وشريعته، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم^(١).

وعلى كلٍّ، فالرقابة القانونية، تعني تنزيل الشرائع والقوانين على الحوادث، ولا شك أن القوانين والأنظمة والشرائع لهذه الأمة تُؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفيها غاية الصلاح مع غاية منابذة الفساد.

ثالثاً: الرقابة المجتمعية

ولا تعني التجسس وسوء الظن وإنما اليقظة ومراقبة أداء الإدارة والسلطة، وكذا التنبيه لما قد يحدث في المجتمع من منزلقات، ومعالجتها بالاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والقرآن الكريم كثير التنبيه على هذه الرقابة والدعوة إلى تفعيلها. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وحذر من إهمال هذه الرقابة والمتابعة، ومن تداعياتها، قال تعالى: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠١).

يَفْعَلُونَ ﴿المائدة: ٧٨-٧٩﴾: لأن ترك الفساد يستشري سيضر المجتمع بأكمله، الصالح والفاقد، الراضي والكاره؛ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وترجمة هذه الرقابة المجتمعية الفردية بإقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد نوّه بها القرآن الكريم كثيراً، كما في الآية السابقة، وكما قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَمِيدُونَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُرَوْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

وقال في وصف المجتمع المؤمن المتماذك، الذي يسعى للنهضة والبناء والإصلاح الشامل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال في وصف المجتمع المتهالك الآيل للسقوط والفرق: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

فانظر الفارق بين المجتمعين، مجتمع يقوم بالرقابة المجتمعية الذاتية، فيأمر بكل معروف وصالح، وينهى عن كل فساد وإفساد وشر، ولذلك يتكافل بنوه، وتنزل عليهم رحمة الله وعونه.

وأما المجتمع الآخر فهو فاسد، يأمر بالفساد ويسعى فيه، وينهى عن الصلاح والإصلاح، ينمي الشر ويحارب الخير، ولذلك يقل وينعدم التكافل

بين أفرادها، حتى يقبضون أيديهم عن بعضهم في التكافل، ولذلك يعزف عنهم الخير، وتتوارى الرحمة والمعونة.

ومن الرقابة المجتمعية: الرقابة على تنفيذ وإمضاء التشريعات والقوانين؛ ليطمئن المجتمع ويحصل بذلك الزجر للفسدة فيه، ومما يدل على هذه الرقابة قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]: فأمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حد الزنى؛ تحقيقاً لإقامة الحد وحذراً من التساهل فيه، فإن الإخفاء ذريعة للإنساء، فإذا لم يشهده المؤمنون فقد يتساءلون عن عدم إقامته، فإذا تبين لهم إهماله فلا يُعَدَم بينهم مَنْ يقوم بتغيير المنكر من تعطيل الحدود.

وفيه فائدة أخرى، وهي أن من مقاصد الحدود مع عقوبة الجاني أن يرتدع غيره، وبحضور طائفة من المؤمنين يتعظ به الحاضرون ويزدجرون ويشيع الحديث فيه بنقل الحاضر إلى الغائب^(١).

رابعاً: الرقابة الأمنية

وهي وظيفة مشتركة بين إدارة السلطة والمجتمع. أما المجتمع فهو مسؤول عما يعكر صفو الأمن العام، فعلى المجتمع أن يحتاط عن إشاعة ما يفسد ذلك، ولذلك نَبَّه القرآن على هذا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وفي قصة موسى ﷺ نلاحظ كيف أن فرداً من المجتمع اضطلع بمهمته،

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٥١).

وَبَنَى مُوسَى   عَلَى مَكْمَنِ الشَّرِّ الْقَادِمِ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، ولم يكن ليحدث ذلك لولا مراقبته لما يحدث.

وأما إدارة السلطة فعليها توفير كل ما يلزم لمراقبة الحالة الأمنية العامة، ومن ذلك:

- توفير عدة الأمن؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].
فالفساد في المجتمع والمفسدون فيه داخلون تحت عموم: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وإلا فهم داخلون تحت معنى قوله تعالى: ﴿وَعَآخِرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

- وأخذ الحيطة والحذر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]: وهذه الآية كلها أصل في الاهتمام بالجانب الأمني ومراقبته، ومراعاة الأحوال في ذلك، أعني قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَٰلَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]: ففي الآية التنبيه على:

١. إقامة الصلاة بشكل جماعي، فهو أدعى للأمن.

٢. أخذ السلاح.

٣. تقسيم الجماعة، فواحدة تصلي والأخرى تراقب.
٤. أخذ الحذر مع أخذ السلاح، وكرر السلاح تنبيهًا على أهميته، فلا يكفي الحذر من دون عدة وسلاح، ولا السلاح بلا حذر.
٥. عدم الغفلة عن السلاح.
٦. عدم الغفلة عن المتاع، ويمكن أن يدخل تحت ذلك المصالح والمرافق العامة والحساسة.
٧. تكرر أخذ الحذر، حتى مع وجود أعداء.

خامسًا: الرقابة الإعلامية

والقرآن لم يحفل بالرقابة الإعلامية، والأمر ما زال يحتاج لمزيد دراسة للقرآن في هذا الجانب، غير أن القرآن غالبًا في جانب المعالجات لا يُحذّر أن تكون بشكل معلن، لأنه يشوبها كثير من المخاطر، وقد لا تكون الرقابة صحيحة فيشيع الفساد وتحدث البلبلة في أوساط المجتمع. ولذلك فقد:

- حذّر القرآن من إشاعة الأخبار، حتى ولو كانت صادقة حتى تُمَحَّص:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

- وحذّر من تصديقها - في حال انتشرت - حتى يُتَبَيَّن من صدقها: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

- وحذّر من إشاعة أمور الفساد أيًا كانت؛ حتى لا يستمرها المجتمع

ويعتاد طرقها ونشرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

غير أن القرآن قد شجع على المراقبة الإعلامية -إن كانت بقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بطرقٍ لا تؤدي لإثارة منكر أكبر منه، وفي قصة الهدهد مع سليمان ﷺ فوائد وعبر، في ذلك:

- فقد قال الله عن تلك الواقعة: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠-٢١]: فهذه الآيات تبين مدى اهتمام الإدارة والسلطة بتفقد من يوكل إليهم المهام، والذي يبدو أن الهدهد كان مكلفاً بالمراقبة من سليمان ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]: وفيها:

أن الإعلام لا ينبغي أن يثير قضايا قديمة، حتى لو كانت قضايا فساد قد حُسمت، ولا أن ينشئ في الماضي. وأن الإعلام عيَّن على المجتمع كذلك، يرقب ما فيه من مزالق، ويكون بذلك عوناً للإدارة والسلطة.

وأنه يجب أن تكون تلك الأحداث يقيناً لا توهُماً ولا تشهياً.

- ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣-٢٤]: وفي هذه الآية وضَّح المشكلة، ولم يدخل في التفاصيل التي لا علاقة لها بالشأن، كما أن فيها إرشاداً للإعلام بأن يهتم بالقضايا الكبيرة التي تؤثر على نماء ونقاء المجتمع. وبيَّن في الخبر سبب المشكلة وهو تزيين الشيطان؛ لتسهيل معالجتها، وهكذا ينبغي أن يكون الإعلام.

- ثم قال: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

[النمل: ٢٥-٢٦]: وفي هذه الآية قَدَمُ الإعلام المراقب النصيحة الصادقة، والحل المناسب لهذه المشكلة؛ ليكون إعلامًا ناطقًا بالحق حاثًا عليه.

- ثم قال الله تعالى على لسان سليمان ﷺ: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ

كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]: وهذا هو واجب الإدارة والسلطة، فإن آثار

الإعلام شيئًا فلا تأخذ بالصوت المرتفع، بل لا بد من التثبت والتبيين.

والخلاصة أن الرقابة مهمة جدًا لبناء الأمة في طريق نهضتها، ولو تُركت

الأمر كيفما اتفق ما وُضعت الخطط ولا اهتم العاملون.

فالمراقبة تعني تقويم السير، ومعالجة الأخطاء، ووَأد الفساد في بداياته،

وتنمية مساعي الإصلاح.

وخلاصة القول: أن العوامل السياسية للنهضة - والتي قصدنا بها مبدأ

الشورى، وتحقيق الأمن، ومبدأ العدل والمساواة، وتفعيل مبدأ الرقابة - هي

لُبُّ عوامل البناء والنهضة، وإذا تحققت الإرادة السياسية في هذا الجانب

فما سواها أسهل وألين؛ فإن إدارة السلطة متى التزمت بهذه المعايير القرآنية

صلحت نواحي الحياة المجتمعية الأخرى، فالشورى تُنتج الأمن، والأمن يُنتج

العدل، والعدل يحقق الرخاء والتنمية، فمن أَمِنَ سعى وبنى وطوّر وأنتج.

وهل سبب ما حصل ويحصل في هذه الأمة المكلومة إلا بغياب هذه

المبادئ، فانشغلت بنفسها عن عدوها، فأشغلها عدوها بصراعاتها، وأصبحت

تتناهشها الضواري داخليًا وخارجيًا.

ولو فعّلت الأمة هذه المبادئ القرآنية في حياتها وجميع مجالاتها لأفلحت،

وتجربة العهد الراشد خير مثال، ومتى غابت هذه المبادئ أو انتقصت دخلت

الأمة بمقدار النقص في الظلام والضياع.

ج- العوامل الاقتصادية للنهضة في القرآن الكريم:

• مقاصد المال والثروة في القرآن:

قضية المال والثروة في القرآن الكريم من القضايا الكبيرة المقاصدية، وعليها بنى كثيراً من الأحكام والتشريعات، وجعل لها مقاصد كبيرة، منها:
أولاً: أنها قيام للناس، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]: قِيَمًا:
 أي لمعاشكم وصلاح دينكم، والقيام والقوام: ما يقيمك، بمعنى واحد، وهو الذي يقيم شأنه، أي يصلحه^(١).

ثانياً: أن فيها استخلافاً، قال تعالى: ﴿عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]: وفي معنى الاستخلاف في الآية وجهان:

الأول: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، ثم إنه تعالى جعلها تحت يد المكلّف، وتحت تصرفه ليتنفع بها على وفق إذن الشرع، فالمكلّف في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل والنائب والخليفة، فوجب أن يسهل عليكم الإنفاق من تلك الأموال كما يسهل على الرجل النفقة من مال غيره إذا أُذن له فيه.

الثاني: أنه جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم، لأجل أنه نقل أموالهم إليكم على سبيل الإرث، فاعتبروا بحالهم، فإنها كما انتقلت منهم إليكم فستنقل منكم إلى غيركم فلا تبخلوا بها^(٢).

وكلا الوجهين محتمل، والجمع بينهما ممكن؛ فهي أموال الله على

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥ / ٣١).

(٢) تفسير الرازي (٢٩ / ٤٥٠).

الحقيقة، وهي في أيدي خلقه بتسخيره وتقليبه لها بينهم.

ثالثاً: أنها للمتعة والزينة، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فحب هذه الأمور -ومنها المال- تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً^(١).

والمتاع في كلام العرب: كل ما استمتع به من شيء؛ من معاش استمتع به أو رياس أو زينة أو لذة، أو غير ذلك^(٢).

وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]: فهي زينة للحياة ومتاع فيها، وقد يكون المقصد بيان سرعة انقضائها وزوالها، وأنها لا تبقى في يد أحد.

رابعاً: أنها قربة إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخُلُ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

والمعنى: أن ما ينفقونه سبب حصول القربات عند الله تعالى وصلوات الرسول؛ لأن الرسول ﷺ كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم... ثم قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾: وهذا شهادة من الله تعالى للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته من أمواله قربات وصلوات^(٣).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١٩/٢).

(٢) تفسير الطبري (٥٧٨/١).

(٣) تفسير الرازي (١٢٧/١٦).

خامساً: أنها من أدوات التسخير، أي تسخير البشر بعضهم لبعض؛ قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]: أي قسمنا بين الناس معيشتهم فكانوا مسيرين في أمورهم على نحو ما هيأنا لهم من نظام الحياة وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجاً إلى بعض ومسخراً به... وليتعلم بعضهم بعضاً في شؤون حياتهم؛ فإن الإنسان مدني، أي محتاج إلى إعانة بعضه بعضاً، فلام ﴿لِيَتَّخِذَ﴾ هي لام التعليل؛ تعليلاً لفعل قسمنا، أي ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾: أي أسباب معيشتهم ليستعين بعضهم ببعض، فيتعارفوا ويتجمعوا لأجل حاجة بعضهم إلى بعض فتكون من ذلك القبائل والمدن. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ عامًّا في كل بعض من الناس، إذ ما من أحد إلا وهو مستعمل لغيره وهو مستعمل لغير آخر^(١). ولهذه المقاصد العظيمة وغيرها، كانت الأموال في القرآن محط اهتمام من حيث: جمعها، ومصدرها، وإنفاقها، ونوعيتها، ومراعاة مصالحها، ومراعاة مصالح أربابها، كما هو مبين في سور وآيات كثيرة من القرآن، ومن مظاهر ذلك الاهتمام:

١. الحفاظ عليها وصونها: ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٠١).

٢. توضيح كيفية توزيعها: كآيات أحكام الموارث في سورة النساء، وآيات النفقة فيها كذلك، وكذا قوله تعالى في مصارف الفيء: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

٣. الاهتمام بجمعها بطرقها الشرعية: ومن ذلك آيات سورة التوبة، ومنها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

٤. التوثيق لها، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وكذا آية الدين في سورة البقرة؛ فهي أصل في حفظ الأموال والتوثيق لها.

٥. دفعها لمالكها وأصحابها، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

٦. عدم الافتنان بها، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

٧. الإنفاق منها، قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧١-٢٧٢].

٨. عدم أكلها أو اكتنازها بالباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

إلى غير ذلك من أوجه بيان القرآن الكريم لكيفية التعامل مع المال والثروة، وهو كثير في كتاب الله.

وستتناول هاهنا - باختصار - اهتمام القرآن الكريم بأمر الموارد؛ موارد المال، وكيفية توزيعه، وتحذيره من هدره فيما لا نفع فيه.

• موارد المال والثروة:

موارد المال والثروة في القرآن الكريم على قسمين: موارد طبيعية، وموارد شرعية، ولكل أنواعها وتفصيلها.

١ - الموارد الطبيعية :

ونعني بالموارد الطبيعية ما أودعه الله ﷻ في الأرض من خيرات وثروات، أو نزل من السماء، من غير أن يكون للإنسان تدخل في إيجادها أو تشكيلها. والموارد الطبيعية هي هباتُ الله تعالى في الطبيعة التي يمكن أن تتحول إلى ثروة، وتتمثل في الموارد النباتية والحيوانية والبحرية والتعدينية المتمثلة في صخور الأرض ومعادنها المختلفة، وهناك موارد أخرى يمكن أن تتحول إلى ثروة مثل: الموارد الشمسية والجاذبية.

وإذا نظرنا في القرآن الكريم وجدناه يدفع إلى استغلال هذه الموارد، وينبّه العقول، ويلفت الأنظار بقوة إلى هذا الكون المحيط بنا: بمائه وهوائه، وبحاره وأنهاره، ونباته وحيوانه وجماده، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، كل ذلك مسخر لمنفعة الإنسان، وعلى الإنسان أن ينتفع بما سخر الله له إن كان من أهل العلم والتفكير والتذكر^(١).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].
وقال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَعَاتِلْكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(١) بتصرف من مقالة منشورة على شبكة الإنترنت، للكاتب محمد فتحي حسان، بعنوان: إشارات قرآنية إلى الانتفاع بالثروات الطبيعية.

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢-١٤].

وقال تعالى وتبارك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

والآيات في لفت النظر لهذه الثروات والخيرات كثيرة جدًا، وهي واحدة من معالم القرآن الكريم في طريقة تنبيهه للإنسان ليقوم بمهامه التي استُخلف من أجلها وهي: عبادة الله وتوحيده، وإعمار الأرض بإثارتها واستخراج خيراتها؛ ليعينه ذلك على المقصد الأول من خلقه.

فمن الموارد الطبيعية التي نبه عليها القرآن الكريم وحثَّ على استغلال تسخير الله تعالى لها:

🌿 الثروة النباتية: قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ

إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩].

إلى غيرها من الآيات، والمقصود أن هذه النباتات مسخرة من الله للإنسان، وهي ثروة كبيرة تدخل في عدة مجالات، فمنها ما يدخل في طعام الإنسان، ومنها ما يدخل في تفكيكه، ومنها ما يدخل في صناعاته، ومنها ما يدخل في بنائه وسكنه.

وقد استخدم الإنسان الثروة النباتية بجميع أشكالها منذ القدم، أما اليوم فلا يكاد يخلو منها مجال، بل إن هناك دولاً تقوم على الثروة النباتية، سواء الزراعة أو الغابات أو غير ذلك.

الثروة البحرية: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الْمُلُوءَ وَالْمَرْجَانَ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢].
وقال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

ومعنى تسخير الله تعالى البحار للخلق أن جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها، إما بالركوب، أو بالغوص واستخراج ما فيها من خيرات وثروات. ومن منافع الثروة البحرية الأكل منها كما نصت الآيات السابقة. ومن منافعها استخراج الزينة والحلية التي يلبسها الإنسان كذلك، وقد نصت عليها الآيات السابقة.

ومن منافعها أن: ﴿تَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]: قال أهل اللغة: مَخَرُ السفينة شقها الماء بصدرها، وقيل: صوت جري الفلك بالرياح^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤]: يعني ركوب السفن على البحار للتجارة وطلب فضل الله ورزقه.

واليوم تستخرج من البحار ثروات هائلة أنعشت دولاً وأمماً، والمتفكر في كمية الثروة السمكية وجدواها الاقتصادية فقط يدرك حجم ما يمكن أن تُستغل به هذه الثروة التي أودعها الله تعالى للإنسان.

الثروة الحيوانية: قال تعالى: ﴿وَمِنْ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِنْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]. وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ١٤٢]. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ١٤٢]. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٤٢]. ﴿وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٠/١٨٩).

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿النحل: ٦٨ - ٦٩﴾.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١ - ٢٢].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨٠].

فنبهت الآيات الكريمات إلى مجموعة من المنافع للثروة الحيوانية الهائلة، منها: منفعة الغذاء بالأكل من لحومها والشرب من ألبانها، ومنفعة العمل بها وعليها، ومنفعة الزينة والبهجة بها وبجمالها، ومنفعة الدفء والتدفئة بجلودها بعد استئصالها، ومنفعة الستر بها، ومنفعة التداوي بها كالعسل من النحل، وكذا الاستذواق والحلوى، إلى غير ذلك من ضروب المنافع العظيمة. ومن الناحية الاقتصادية فالثروة الحيوانية من أكبر الموارد التي تبني الأنظمة الاقتصادية للدول، وجُذواها كبيرة جدًا.

﴿الثروة المائية﴾: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ



وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴿[الحج: ٥].﴾

وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَدِشَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٤-٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ [الزُّخْرُف: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

إلى غيرها من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم، فقضية الماء وتسخيرها والتفكر فيه واستغلاله وأهميته وتدخلاته في المخلوقات قضية مهمة في القرآن، وقد طُرقت عشرات المرات بل مئات!

فمن منافع الثروة المائية أن منها تَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ؛ فلا حياة لحيوان أو نبات إلا به، ولا نماء ولا ازدهار وتجارة إلا بسببه.

ومنها: أن به الإنبات للزروع والثمار، وكم من أراضٍ شاسعة في دول كثيرة تعجز عن زراعتها بسبب عدم وجود الماء.

ومنها: ما سخر الله به الأنهار والبحار للتنقل وحمل البضائع وغيرها. والماء في عصرنا الحاضر هو محل اهتمام الدول والحضارات، بل يُصرَّح أن الحروب في هذا العصر هي حروبٌ مائية في الأساس، فمن أجله تدخل الدول في صراعاتها.

واستغلال هذه الثروة العظيمة ميسور في حال وُجدت الإرادة، سواء باستغلاله في الزراعة ثم التجارة، أو في استثمار طرقه، أو لتوليد الطاقة، أو غيرها من المنافع العظيمة التي تُدر على الدول ثروة هائلة تبني بها اقتصاداتها.

الثروة المعدنية: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿عَاثُوْنِي زَبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُهُ نَارًا قَالَ عَاثُوْنِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]

وقال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥].

هذه هي المعادن المذكورة في القرآن، وهي إشارة فقط لنفاستها ولأهمية البحث عنها واستخراجها واستغلالها، فالحديد مراد به حديد السلاح من

سيوف ودروع وخوذ، تنويهاً به؛ إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين^(١).

والحديد معدن من معادن الأرض يكون قطعاً كالحصى -ودون ذلك- فيها صلابة. وهو يُصنَّف ابتداءً إلى صنفين: لَيِّن، ويقال له الحديد الأثني. وصلب، ويقال له الذَّكَر. ثم يُصنَّف إلى ثمانية عشر صنفًا، وألوانه متقاربة وهي السنجابي؛ منها ما هو إلى الحمرة، ومنها ما هو إلى البياض، وهو إذا صُهر بنار قوية في أتون مغلق التأمّت أجزاؤه وتجمعت في وسط النار كالإسفنجة واشتدت صلابته؛ لأنه بالصهر يدفع ما فيه من الأجزاء الترابية وهي المسماة بالصدأ والخَبَث، فتعلو تلك الأجزاء على سطحه وهي الزبد وخَبَث الحديد، ولذلك فبمقدار ما يطفو من تلك الأجزاء الغريبة الخبيثة يخلّص الجزء الحديدي ويصفو^(٢).

ولا يخفى ما يدخل فيه الحديد من الصناعات اليوم، وما يُدره على الدول من الأموال الهائلة، فلا يكاد يوجد مصنوع إلا والحديد من أهم العناصر فيه، فضلاً عن السلاح والقوة والبناء الدفاعي والحربي. ومن المعادن الياقوت والمرجان: وهي أحجار كريمة باهظة الثمن، تُستخرج من باطن الأرض ومن البحار^(٣).

ومنها النحاس: وهو المعدن المعروف، وهو القطر المذكور أيضاً في قوله تعالى: ﴿عَاثُونِي رُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ عَاثُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]^(٤).

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٥٣/٢٧).

(٢) المرجع السابق (٣٦/١٦).

(٣) ينظر: لسان العرب (٤٠٦/١٣).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (١٩٦/٥)، ولسان العرب (١٠٥/٥).

وأما الذهب والفضة فما زالا منذ عرفهما البشر غاليي الثمن، وعليهما مدار تجارتهم واقتصادهم، وبهما تعلقت كثير من الأحكام الشرعية المالية. وكل هذه الثروات والمعادن وغيرها إنما هي من منافع الأرض التي أودعها الله فيها؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فمن منافعها الطبيعية التي تُنتج الأموال والثروات وغيرها:

١. الأشياء المتولدة فيها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلوية والسفلية والتي لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى.

٢. اختلاف بقاع الأرض: فمنها أرض رخوة، وصلبة، ورملة، وسبخة، وحرّة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِثًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

٣. انصداعها بالنبات: قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢].

٤. كونها خازنة للماء المنزل من السماء: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [المُلْك: ٣٠].

٥. العيون والأنهار العظام التي فيها: وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد: ٣].

٦. ما فيها من المعادن والفلزات: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]،

ثم بيّن بعد ذلك تمام البيان، فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

٧. الخبء الذي تخرجه الأرض من الحب والنوى: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالْتَوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

٨. ما عليها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق: وإليه الإشارة بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

٩. ما فيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه: وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]: باختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَ كُمْ﴾ [طه: ٥٤]، أما مطعوم البشر: فمنها الطعام، ومنها الإدام، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٠]، وأيضاً فمنها كسوة البشر؛ لأن الكسوة إما نباتية، وهي القطن والكتان، وإما حيوانية وهي الشعر والصوف والجلود، وهي من الحيوانات التي بثّها الله تعالى في الأرض، فالمطعوم من الأرض والملبوس من الأرض، ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]: وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى.

١٠. ما فيها من الأحجار المختلفة: ففي صغارها ما يصلح للزينة فتجعل فصوصها للخواتم وفي كبارها ما يتخذ للأبنية.

١١. ما أودع الله تعالى فيها من المعادن الشريفة كالذهب والفضة وغيرها.
 ١٢. كثرة ما يوجد على الجبال والأراضي من الأشجار التي تصلح للبناء،
 والسقف، ثم الحطب، وما أشد الحاجة إليه في الخبز والطبخ.
 وقد نبّه الله تعالى على دلائل الأرض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها البلغاء ويعجز
 عنها الفصحاء فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ أُتْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وأما الأنهار فمنها العظيمة، ومنها
 الصغار، وهي كثيرة وكلها تحمل مياهاً عذبة للسقي والزراعة وسائر الفوائد.
 ثم إن الأرض لها طبع الكرم لأنك تدفع إليها حبة واحدة، وهي تردها
 عليك سبعمئة ﴿كَمْثِلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾
 [البقرة: ٢٦١]^(١).

وما زال البشر يستخرجون الثروات من بواطن الأرض وظاهرها، وكلما
 تقدموا في العلم زادت إثارتهم للأرض، فألقت لهم مما حباها الله به.
 وعلى أمة الإسلام في طريق نهضتها أن تثير الأرض؛ استجابة لداعي
 القرآن، وتستخرج من ثرواتها ما يُعين على إبلاغ الرسالة، وإعمار الأرض،
 وتحقيق الاستخلاف.

٢- الموارد الشرعية:

أما الموارد الشرعية، وهي ما يُؤخذ بحكم الشرع فكثيرة جداً، وسنقتصر
 هنا على ما ورد ذكره في القرآن الكريم، وهي:

﴿الزكاة﴾:

وهي لغة: النماء والرَّيْع والزيادة^(٢).

(١) هذه المنافع الطبيعية للأرض وما فيها، مستفادة بتصرف من تفسير الرازي (٢/ ٣٣٧).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٤/ ٣٥٨).

واصطلاحًا: أداء حق يجب في أموال مخصوصة، على وجه مخصوص ويُعتَبَر في وجوبه الحول والنصاب^(١).

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والآيات في وجوب الزكاة وأخذها كثيرة في القرآن الكريم من حيث العموم، وهي قسيمة الأمر بالصلاة.

ويدخل فيها زكاة الأموال الظاهرة والباطنة، من السوائم والزروع والنقود والعروض، ويدخل تحتها الصدقات بأنواعها والهبات والأوقاف وغيرها مما يرد على الدولة أو للمصالح العامة.

🕌 خُمُسُ الْغَنَائِمِ:

والغنيمة هي: كل مال أخذ من الكفار بالقتال، فيُورَدُ خُمُسُهَا لبيت المال، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. وسيأتي بيان مصارفها.

🕌 الْفِيء:

وهو كل مال منقول أخذ من الكفار بغير قتال، وبلا إيجاف خيل ولا ركاب^(٢). قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٦ ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٣/٢٢٦).

(٢) ينظر: المرجع السابق (٨/٢٤٦).

وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿[الحشر: ٦-٧].

والفيء أنواع متعددة، وسيأتي بيان بعض مصارفه.

🌸 الجزية:

وهي: ما يُضرب على رقاب الكفار لإقامتهم في بلاد المسلمين، فيفرض
على كل رأس من الرجال البالغين القادرين مبلغ من المال، أو يُضرب على
البلد كلها أن تؤدي مبلغًا معلومًا^(١).

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

هذا مُجْمَلُ الموارد القرآنية الشرعية، وقد جاءت السُّنة ببيان هذه الموارد،
ثم فصلها الفقهاء بناء على ذلك، وقد جاء في الموسوعة الفقهية في بيان موارد
بيت مال المسلمين^(٢) الأصناف التالية:

١. الزكاة بأنواعها، وهي التي يأخذها الإمام، سواء أكانت زكاة أموال
ظاهرة أم باطنة، من السوائم والزرور والنقود والعروض.

(١) المرجع السابق.

(٢) استعمل مصطلح: «بيت مال المسلمين» في صدر الإسلام للدلالة على المبنى والمكان الذي
تُحفظ فيه الأموال العامة للدولة الإسلامية من المنقولات، كالفيء وخُمس الغنائم ونحوها، إلى أن
تُصرف في وجوهها. ثم اكتفي بمصطلح: «بيت المال» للدلالة على ذلك، حتى أصبح عند الإطلاق
ينصرف إليه. وتطور مصطلح: «بيت المال» في العصور الإسلامية اللاحقة إلى أن أصبح يُطلق على
الجهة التي تملك المال العام للمسلمين، من النقود والعروض والأراضي الإسلامية وغيرها. ينظر:
الموسوعة الفقهية الكويتية (٨/ ٢٤٢).

٢. خُمس الغنائم المنقولة، والغنيمة هي كل مال أخذ من الكفار بالقتال، ما عدا الأراضي والعقارات، فيُورَد خُمسها لبيت المال، ليُصَرَف في مصارفه، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

٣. خُمس الخارج من الأرض من المعادن من الذهب والفضة والحديد وغيرها، وقيل: مثلها المستخرج من البحر من لؤلؤ وعنبر وسواهما.

٤. خُمس الركاز (الكنوز)، وهو كل مال دُفِن في الأرض بفعل الإنسان، والمراد هنا كنوز أهل الجاهلية والكفر إذا وجدها مسلم فخُمسها لبيت المال، وباقيتها بعد الخُمس لواجدها.

٥. الفبيء: وهو كل مال منقول أخذ من الكفار بغير قتال، وبلا إيجاف خيل ولا ركاب، والفبيء أنواع:

أ. ما جلا عنه الكفار -خوفاً من المسلمين- من الأراضي والعقارات، وهي تُوقَف كالأراضي المغنومة بالقتال، وتُقسم غلاتها كل سنة، على خلاف في ذلك.

ب. ما تركوه وجلّوا عنه من المنقولات. وهو يُقسم في الحال ولا يُوقف.

ج. ما أخذ من الكفار من خراج أو أجرة عن الأراضي التي ملكها المسلمون، ودُفعت بالإجارة لمسلم أو ذمي، أو عن الأراضي التي أقرت بأيدي أصحابها من أهل الذمة صلحاً أو عنوة على أنها لهم، ولنا عليها الخراج.

د. الجزية: وهي ما يُضَرَب على رقاب الكفار لإقامتهم في بلاد المسلمين، فيفرض على كل رأس من الرجال البالغين القادرين مبلغ من

المال، أو يُضرب على البلد كلها أن تؤدي مبلغاً معلوماً.

هـ. عشور أهل الذمة: وهي ضريبة تُؤخذ منهم عن أموالهم التي يترددون بها مُتَاجِرِينَ إلى دار الحرب، أو يدخلون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام، أو ينتقلون بها من بلد في دار الإسلام إلى بلد آخر، فتؤخذ منهم في السنة مرة، ما لم يخرجوا من دار الإسلام ثم يعودوا إليها.

و. ومثلها عشور أهل الحرب من التجار كذلك، إذا دخلوا بتجارتهم إلينا مستأمنين.

ز. ما صُولح عليه الحربيون من مال يؤدونه إلى المسلمين.

ح. مال المرتد إن قُتل أو مات، ومال الزنديق إن قُتل أو مات، فلا يُورث مالهما بل هو فيء، على تفصيل في ذلك.

ط. مال الذمي إن مات ولا وارث له، وما فضل من ماله عن وارثه، فهو فيء كذلك.

ي. الأراضي المغنومة بالقتال، وهي الأراضي الزراعية عند من يرى من الفقهاء عدم تقسيمها بين الغانمين.

٦. غلات أراضي بيت المال وأملاكه ونتاج المتاجرة والمعاملة.

٧. الهبات والتبرعات والوصايا التي تُقدَّم لبيت المال للجهاد أو غيره من المصالح العامة.

٨. الهدايا التي تُقدَّم إلى القضاة ممن لم يكن يُهدى لهم قبل الولاية، أو كان يُهدى لهم لكن له عند القاضي خصومة، فإنها إن لم تُرد إلى مُهديها تُرد إلى بيت المال. وكذلك الهدايا التي تُقدَّم إلى الإمام من أهل الحرب، والهدايا



التي تُقدم إلى عمال الدولة، وهذا إن لم يُعطِ الآخذ مقابلها من ماله الخاص.
٩. الضرائب الموظفة على الرعية لمصلحتهم، سواء أكان ذلك للجهاد أم لغيره، ولا تُضرب عليهم إلا إذا لم يكن في بيت المال ما يكفي لذلك، وكان لضرورة، وإلا كانت مورداً غير شرعي.

١٠. الأموال الضائعة، وهي مال وجد ولم يمكن معرفة صاحبه، من لُقطة أو وديعة أو رهن، ومنه ما يوجد مع اللصوص ونحوهم مما لا طالب له، فيؤرّد إلى بيت المال.

١١. مواريث من مات من المسلمين بلا وارث، أو له وارث لا يرث كل المال، على خلاف، ومن قُتل وكان بلا وارث فإن دِيته تُورّد إلى بيت المال، ويُصرف هذا في مصارف الفيء.

١٢. الغرامات والمُصادرات: وقد ورد في السنة تغريم مانع الزكاة بأخذ شطر ماله، على خلافٍ في ذلك. والظاهر أن مثل هذه الغرامات إذا أخذت تُنفق في المصالح العامة، فتكون بذلك من حقوق بيت المال^(١).

وهذه الموارد كلها محل نقاش وخلاف وتفصيل بين فقهاء المسلمين من حيث إيجاب بعض تفاصيلها ومصارفها لا من حيث الجملة، وأصلها كما ترى في كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، ومحل بيان تفاصيلها وتفريعاتها ومناقشة ذلك كله في كتب الفقه الإسلامي.

• توزيع المال والثروة:

يمكن تقسيم الأموال السابقة، سواء الطبيعية أو الشرعية، إلى أربعة أقسام رئيسة، وكل قسم له مصارفه:

١ - الأموال الزكوية: ومصرف هذا القسم هو المصارف الثمانية التي نص

(١) بتصرف من الموسوعة الفقهية الكويتية (٨ / ٢٤٥).

عليها القرآن العظيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفي ذلك تفصيل وخلاف يُرجع إليه في كتب الفقه الإسلامي.

٢- أموال الأخماس: والمراد بالأخماس كما مرَّ آنفاً:

١- خمس الغنائم المنقولة، وقيل: وخمس العقارات التي غنمت أيضاً.

٢- خمس ما يوجد من كنوز الجاهلية، وقيل: يدخل ضمن مصارف الزكاة.

٣- خمس أموال الفياء: وذلك على قول الشافعي وإحدى الروایتين عن

أحمد. وأما على الرواية الأخرى عن أحمد ومذهب الحنفية والمالكية فإنه لا يُخمس الفياء.

ومصرف هذا النوع خمسة أسهم: سهم لله ورسوله، وسهم لذوي القربى،

وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل؛ على ما قال الله تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِيتِمَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وكان السهم الأول يأخذه النبي ﷺ في حياته، وبعده يُصرف في مصالح

المسلمين، فيُنقل لقسم مصرف مال الفياء الآتي ذكره.

وسائر الأسهم الأربعة تُحرز لأصحابها في بيت المال حتى تُقسَم عليهم،

وليس للإمام أن يصرفها في المصالح^(١).

٣- أموال الضوائع: وهي الأموال الضائعة ونحوها من: لُقطة لا يُعرف

صاحبها، أو مسروق لا يُعلم صاحبه، ونحوهما على ما تقدم، فتحفظ

لأصحابها، فإن حصل اليأس من معرفتهم صُرف في وجهه.

(١) ينظر: رد المحتار (٤/١٤٦)، والمُعني (٦/٤٥٣)، والموسوعة الفقهية الكويتية (٨/٢٤٩).

ومصرف أموال هذا القسم هو اللقيط الفقير، والفقراء الذين لا أولياء لهم، فيعطون منه نفقتهم وأدويتهم وتكاليف أكفانهم ودية جنائياتهم^(١). وقيل: تُصرف في المصالح العامة بشكل عام^(٢).

٤ - أموال الفيء: وهي غير ما تقدم ذكره من الأموال في الأقسام السابقة، وقد ذكرنا بعض أنواعها في الموارد آنفاً، ويدخل في الفيء بعض الأموال في الأقسام السابقة بناءً على خلاف الفقهاء.

ومصرف أموال هذا القسم المصالح العامة للمسلمين، فيكون تحت يد الإمام، ويصرف منه بحسب نظره واجتهاده في المصلحة العامة. والفقهاء إذا أطلقوا القول بأن نفقة كذا هي في بيت المال، يقصدون هذا القسم الرابع؛ لأنه وحده المخصص للمصالح العامة، بخلاف ما عداه، فالحق فيه لجهات محددة يُصرف لها لا لغيرها.

ومن أهم المصالح التي تُصرف فيها أموال هذا القسم مما ورد في كلام الفقهاء - لا على سبيل الحصر والاستقصاء؛ فإن أبواب المصالح لا تنحصر - وهي تختلف من عصر إلى عصر، ومن بلد إلى بلد:

١. العطاء: وهو نصيب من بيت مال المسلمين يُعطى لكل مسلم، سواء أكان من أهل القتال أم لم يكن، قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ثم بيّن مصرفه فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

(١) هذا ما ذهب إليه الحنفية. ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٨/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ [الحشر: ٨].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فاستوعب كل المسلمين، وهذا ما فهمه وطبقه الخليفة العظيم في العهد الراشد، عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن قرأ هذه الآيات، ثم قال: «استوعبت المسلمين عامة، ولئن عشت لياتين الراعي بسرو حمير نصيبه منها، لم يعرق فيه جبينه»^(١).

ولم يكن هذا معهودًا ولا معروفًا عند البشرية جمعاء، حتى حصل واقعًا في ذلك العهد المبارك، وإذا كانت بعض دول أوروبا تعمل بهذا المبدأ الآن في توزيع المال والثروة فهي لاحقة لا مبتدئة، على أنها تُتهك شعوبها بالضرائب الثقيلة من جهة أخرى.

٢. الأسلحة والمعدات والتحصينات وتكاليف الجهاد والدفاع عن أوطان المسلمين: قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٣١٣٥)، وصححه الألباني. ينظر: إرواء الغليل (١٢٤٥).

٣. رواتب الموظفين الذين يحتاج إليهم المسلمون في أمورهم العامة، من القضاة والمحاسبين، ومن ينفذون الحدود، والمفتين والأئمة والمؤذنين والمدرسين، ونحوهم من كل من فرَّغ نفسه لمصلحة المسلمين، فيستحق الكفاية من بيت المال له ولمن يعوله. ويختلف ذلك باختلاف الأعصار والبلدان باختلاف الأحوال والأسعار.

٤. القيام بشؤون فقراء المسلمين من العجزة واللقطاء والمساجين الفقراء، الذين ليس لهم ما يُنفق عليهم منه، ولا أقارب تلزمهم نفقتهم، فيتحمل بيت المال نفقاتهم وكسوتهم وما يصلحهم من دواء وأجرة علاج وتجهيز ميت، وكذا دية جناية من لم يكن له عاقلة من المسلمين، أو كان له عاقلة فعجزوا عن الكل أو البعض، فإن بيت المال يتحمل باقي الدية.

٥. الإنفاق على أهل الذمة: إن احتاج لضعفه يُعطى ما يسد جوعته^(١).

٦. فكاك أسرى المسلمين من أيدي الكفار.

٧. المصالح العامة لبلدان المسلمين: من إنشاء المساجد والطرق والجسور والقناطر والأنهار والمدارس ونحو ذلك، وإصلاح ما تلف منها^(٢).

ويمكن أن تُجمع كل تلك المصارف بعبارة جامعة، وهي: كل مصرف فيه نفع للإسلام والمسلمين، أو من يجب على المسلمين رعايتهم، أو إعمار الأرض وإصلاحها.

• الحفاظ على الثروة والمال:

من مقاصد القرآن الكريم المحافظة على المال الخاص والعام، كما مرّ، وهذا واضحٌ بينٌ من كتاب الله الكريم.

(١) الخراج (١٥٧).

(٢) يُنظر في أقسام الأموال ومصارفها بتفصيل أكثر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٤٩/٨) وما بعدها.

ومن الآيات الجامعة في ذلك قول الله تعالى في وصف عباد الرحمن المصلحين في الأرض: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

والإسراف: تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفق وحال المنفق عليه.

والإقتار عكسه، وهو: الإجحاف والنقص مما تسعه الثروة ويقتضيه حال المنفق عليه.

والقوام: العدل والقصد بين الطرفين.

والمعنى: أنهم يضعون النفقات مواضعها الصالحة كما أمرهم الله، فيدوم إنفاقهم، وقد رغب الإسلام في العمل الذي يدوم عليه صاحبه، وليسير نظام الجماعة على كفاية دون تعريضه للتعطيل؛ فإن الإسراف من شأنه استنفاد المال فلا يدوم الإنفاق، وأما الإقتار فمن شأنه إمساك المال فيُحرم من يستأمله^(١).

وقال تعالى مصداقاً لذلك: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

والتبذير في الحقيقة أقبح من الإسراف؛ لأن بجانبه حقاً مضيعاً، ولأنه يؤدي بصاحبه إلى أن يظلم غيره، ولهذا قيل: إن المبذر أقبح؛ لأنه جاهل

(١) التحرير والتنوير (١٩/٧٢).

بمقدار المال الذي هو سبب استبقاء الناس^(١).

وقد مرَّ معنا بيان هذه الآيات الكريمات.

وهذه الآيات وغيرها عامة، شاملة لكل إنفاق، ويدخل في نطاقها كلُّ مُنْفِقٍ ومُنْفَقٍ، فلا يجوز الإسراف وتجاوز الحد في الإنفاق مطلقاً، سواء كان المنفق شخصاً عادياً أو سلطاناً أو جهة اعتبارية.

بل لا يجوز تمكين السفیه من المال، حتى وإن كان ماله؛ لأنه مَظَنَّةُ الإِضَاعَةِ والهدر، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

والعرب تطلق السفاهة على ضعف الرأي، وتطلقها على سوء التدبير للمال^(٢). والمراد بالآية مطلق من ثبت له السفه، سواء كان عن صغر أم عن اختلال تصرف، فتكون الآية قد تعرضت للحجر على السفیه الكبير استطراداً للمناسبة، وهذا هو الأظهر؛ لأنه أوفر معنى وأوسع تشريعاً.

وفي إضافة الأموال إلى ضمير المخاطبين: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ إشارة بديعة إلى أن المال الرائج بين الناس هو حق لمالكيه المختصين به في ظاهر الأمر، ولكنه عند التأمل تلوح فيه حقوق الأمة جمعاء؛ لأن في حصوله منفعة للأمة كلها؛ لأن ما في أيدي بعض أفرادها من الثروة يعود إلى الجميع بالصالحه؛ فمن تلك الأموال ينفق أربابها ويستأجرون ويشترون ويتصدقون ثم تُورث عنهم إذا ماتوا، فينتقل المال بذلك من يدٍ إلى غيرها، فينتفع العاجز والعامل والتاجر والفقير وذو الكفاف، ومتى قلَّت الأموال من أيدي الناس تقاربوا في الحاجة والخصاصة، فأصبحوا في ضنك وبؤس، واحتاجوا إلى قبيلة أو أمة أخرى،

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص ٢١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٧).

وذلك من أسباب ابتزاز عزهم، وامتلاك بلادهم، وتصيير منافعهم لخدمة غيرهم، فلأجل هاته الحكمة أضاف الله تعالى الأموال إلى جميع المخاطبين ليكون لهم الحق في إقامة الأحكام التي تحفظ الأموال والثروة العامة. وهذه إشارة لا أحسب أن حكيماً من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها^(١).

إن القصد والقوام في الإنفاق العام والخاص أمرٌ قرآني عظيم، وبه يستمر العطاء والخير ويمتد زمناً ومكاناً، وبالسرف تهدر الأموال والثروات، وتضيع مصالح الأمة كلها كما تضيع مصالح الصغير أو السفينة إن أعطي ماله ومُكِّن منه.

هذا كله إن كان السرف في حلال أو مباح، أما إن كان في محرم فهو إضاعة للمال في غير إصلاح الأرض والإنسان، وهذا من أكبر المنكرات، وهو من الصد عن سبيل الله ﷻ، وهو من سلوك الكافرين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ومن التبذير أن يُنفق المال فيما لا يُجدي نفعا في دنياه، ولا يُكسبه أجراً في أخراه، بل يكسب في الدنيا ذمّاً ويحمل إلى الآخرة إثماً، كالإنفاق في المحرّمات وشرب الخمر وإتيان الفواحش، وإعطاء السفهاء من المغنين والملهين والمساخر والمضحكين.

ومن التبذير أن يشغل المال بفضول الدور التي لا يحتاج إليها وعساه لا يسكنها، أو يبنّيها لأعدائه، ولخراب الدهر الذي هو قاتله وسالبه، ومن التبذير أن يجعل المال في الفرش الوثيرة والأواني الكثيرة الفضية والذهبية التي تقل

(١) المرجع السابق (٤/٢٤٣).

أيامُه ولا تتسع للارتفاق بها^(١).

إن الإسراف والتبذير ظاهرة واضحة للعيان في المجتمعات المسلمة في هذا العصر، رغم حاجة وفقر الغالبية العظمى من أبنائها، وهذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الدول والحكومات فحدث بما يُحزن ويوجع!

لذلك فإن من السمات الرئيسة لبعض الدول الإسلامية وجود العديد من بنود الإنفاق الحكومي التي تتسم بالضخامة والتبذير والضياع، ولا تتحقق التنمية إلا بضغط بنود الاستهلاك الحكومي التي تتسم بالإسراف والتبذير^(٢).

إن الإسراف نوع من التهور والتسرع وعدم التبصر بعواقب الأمور، وقد يكون دليلاً على الاستهتار وعدم الحكمة في تحمل المسؤولية، وكل ذلك يؤدي إلى وخيم العواقب وسيئ النتائج، فهو يقتل حيوية الأمة ويؤدي بها إلى البوار والفساد، ويملأ القلوب حقداً وضعينة، ويقضي على حياة الأمن والاستقرار، كما أن فيه كسراً لنفوس الفقراء وبطراً لأهل الغنى^(٣).

كما يُعد الإسراف سبباً رئيساً من أسباب تدهور البيئة واستنزاف مواردها، وهو وإن كان متعدد الصور والأساليب، إلا أنه يؤدي بشكل عام إلى نتيجة واحدة هي إهلاك الحرث والنسل، وتدمير التوازن البيئي^(٤).

كما يؤدي السرف إلى الترف والنعموة والليونة، التي تدفع الناس إلى الرذائل، وتقعد بهم عن الجهاد والتضحية، وفي ذلك أعظم الخطر على الأمة^(٥).

(١) نصيحة الملوك (ص ٣٦).

(٢) ينظر: الإسراف والتبذير، د. زيد بن محمد الرماني (ص ١٩).

(٣) ينظر: نظرية التملك في الإسلام، د. حمد الجندل (ص ٨١).

(٤) ينظر: الإسراف وتأثيره على البيئة، محمد عبد القادر الفقي (ص ٥١).

(٥) ينظر: الإسراف والتبذير، د. زيد بن محمد الرماني (ص ٢٣).

والخلاصة: أن الواجب على الفرد المسلم والمجتمع المسلم والحكومة المسلمة والإدارة المسلمة والأمة المسلمة في طريق نهضتها أن تستجيب لداعي القرآن وإرشاده بخصوص الثروة والمال، فتستغل الموارد التي دعا لاستغلالها، وتصرفها وتوزعها في مصارفها ومصالح الإنسان والإعمار، وهي في ذلك مقتصدة وقَوَّامة بالعدل، فلا إسراف وتبذير، ولا إمساك وتقتير.

د- العوامل العلمية للنهضة في القرآن الكريم:

• تفعيل التعليم الموجه:

قضية التعليم قضية قرآنية بالغة الأهمية، وهي من مرتكزات البناء النهضوي للأمم وإعمار الأرض، وهي القضية التي نشأت مع الإنسان منذ أول لحظة لاستخلافه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

وأيًا ما كانت كيفية التعليم لآدم ﷺ فقد كان سببًا لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما في الضمير، وكان ذلك أيضًا سببًا لتفاضل أفراد الإنسان بعضهم على بعض بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم وهو مبدأ العلوم، فالإنسان لما خُلق ناطقًا معبرًا عما في ضميره فقد خُلق مدرِّكًا أي عالمًا، وقد خُلق معلمًا، وهذا أصل نشأة العلوم والقوانين وتفاريحها، لأنك إذا نظرت إلى المعارف كلها وجدتها وضع أسماء لمسميات وتعريف معاني تلك الأسماء وتحديداتها لتسهيل إيصال ما يحصل في الذهن إلى ذهن الغير، وكلا الأمرين قد حُرِمَ بقية أنواع الحيوان، فلذلك لم تتفاضل أفرادها إلا تفاضلًا ضعيفًا بحسن الصورة أو قوة المنفعة أو قلة العجمة بله^(١) بقية الأجناس كالنبات والمعدن^(٢).

(١) بله: كلمة بمعنى: سوى، أو: دَع، أو: كيف، أو: أجل، بحسب السياق. ينظر: لسان العرب (٤٧٨/١٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤١٠).

وقد ظهر ما يُسمَّى بالتعليم الجماهيري في القرن الثامن عشر في المستعمرات الأمريكية الشمالية، وفي بعض المقاطعات السويسرية، ومعظم الأقاليم النمساوية، وعدد من الولايات الألمانية، وذلك قبل نشأة فكرة الإلزام في النظم التعليمية، وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ظهر التعليم الإلزامي في أوروبا الغربية، وأمريكا اللاتينية فيما بعد^(١).

ويُقصد بالتعليم الموجه أو الإلزامي: أن تأخذ الدولة على عاتقها نشر التعليم، وتيسيره لكل الأطفال الذين هم في سن التعليم، وتوفير مستلزماته من أبنية وتجهيزات ولوازم ومعلمين وكتب، وما إليها، وأن تُسن الدولة التشريعات التي تُلزم الآباء بإرسال أولادهم إلى المدارس متى بلغوا سن التعليم، وأن تضمن هذه التشريعات الغرامات والعقوبات الرادعة التي تحول دون امتناع الأهل عن إرسال أولادهم إلى المدارس^(٢).

والقرآن الكريم أول ما نزل، نزل بالتعليم الموجه، فقال الحق ﷻ في أول كلمة قرآنية وهي أول أمر وتوجيه قرآني: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ۝٢ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٣ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٤ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٥ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وافتح السورة بكلمة: ﴿أَقْرَأْ﴾ إيدان بأن رسول الله ﷺ سيكون قارئاً، أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً، وأن أمته كذلك.

وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن.

وقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ﴾ أمر بالقراءة، والقراءة نطق بكلام معين مكتوب أو

محفوظ عن ظهر قلب.

(١) ينظر: تطوير التعليم الإلزامي في مصر، محمد علي مرزا (ص ٦٣).

(٢) مشكلات التعليم الإلزامي في القطر العربي السوري، محمد زهير مشاركة (ص ٢٤).



وفعل: ﴿أَقْرَأُ﴾ الثاني تأكيد لـ ﴿أَقْرَأُ﴾ الأول؛ للاهتمام بهذا الأمر. وقد حصلت من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارة إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم، سواء كان بالدرس أم بمطالعة الكتب، وأن تحصيل العلوم يعتمد أمورًا ثلاثة: أحدها: الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب؛ فإنَّ بالكتابة أمكن للأمم تدوين آراء علماء البشر ونقلها إلى الأقطار النائية وفي الأجيال الجائية.

والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء. والثالث: ما تنقذ به العقول من المستنبطات والمخترعات. وهذان داخلان تحت قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. وأشعر قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أن العلم مسبوق بالجهل، فكل علم يحصل فهو علم ما لم يكن يُعلم من قبل. وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة وبأن الله يريد أن يكتب للنبي ﷺ ما ينزل عليه من القرآن، فمن أجل ذلك اتخذ النبي ﷺ كُتَّابًا للوحي من مبدأ بعثته^(١)، كما مر معنا سابقًا.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]: فهذه الآية أصل في وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ بعد ما علموا أن النفر لا يسع جميعهم ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ؛ ليتحملوا عنه الدين ويتفقوها، فإذا رجع النافرون

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٥)، وما بعدها.

إليهم أخبروهم بما سمعوه وعلموه، وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة^(١).

وهذه الآية جاءت في نهاية سورة كاملة تحث على الجهاد والغزو، وهي سورة التوبة، وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، فمن أجل ذلك عَقَّبَ التحريض على الجهاد بما يبين أنه ليس من المصلحة تمخُّض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جنداً، وأن حظ القائم بواجب التعليم ليس دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتشيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانهما إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان.

وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرّضت فريقاً من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله ﷺ في الغزو لمصلحة نشر الإسلام، فقد ناسب ذلك أن يذكر عقبها نفرَ فريق من المؤمنين إلى رسول الله ﷺ للتفقه في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام.

ومن محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم؛ إذ افْتُتِحَتْ صيغة تحريض الغزو بلام الجحود في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية، وافتُتِحَتْ صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٢٩٤).

الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً؛

وذلك أنه كما كان النَّفَر للغزو واجباً؛ لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة، كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجباً؛ لأن في تمخُّض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمة أيضاً، فأفاد مجموع الكلامين أن النَّفَر للغزو واجب على الكفاية أي على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشرعي منه، وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو.

ولذلك كانت هذه الآية أصلاً في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوباً على الكفاية، أي على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الإيجاب.

وأشعر نفي وجوب النَّفَر على جميع المسلمين وإثبات إيجابه على طائفة من كل فرقة منهم بأن الذين يجب عليهم النَّفَر ليسوا بأوفر عدداً من الذين يبقون للتفقه والإنذار، وأن إحدى الحالتين ليست بأولى من الأخرى على الإطلاق، فيُعلم أن ذلك منوط بمقدار الحاجة الداعية للنَّفَر، وأن البقية باقية على الأصل، فُعلم منه أن النفير إلى الجهاد يكون بمقدار ما يقتضيه حال العدو المغزو، وأن الذين يبقون للتفقه يبقون بأكثر ما يستطيع، وأن ذلك سواء^(١).

والآيات التي تأمر بالعلم كثيرة متفرقة، وقضية العلم قضية قرآنية كبرى، فهو كتاب العلم الأول، امتدح العلم والعلماء في جملة كبيرة منه، فامتدح المتفكرين والعاملين والمتذكرين والمتدبرين، وكل ذلك لا يمكن أن يتأتى إلا بالعلم.

وقد امثل النبي ﷺ أمر القرآن بالعلم، وأوضح مقصد القرآن منه، وحثَّ

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٥١).

عليه، فقال ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

وقال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبْلَتْ الْمَاءَ، فَانْتَبَتِ الْكَلَاءُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمٌ وَعَلَمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(٢).

وقال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(٣).

فهذا تحضيض كبير على سلوك سبل العلم، والسعي في تحصيله، وتحفيز الأمة على تفعيل دور العلم والعلماء.

وإذا كان الأمر بالعلم متقررًا في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ، فإن الوسائل التعليمية ليست قضيته، فهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان، وكل وسيلة تعين على الإتيان بالواجب فهي واجبة، إذ المتقرر أصولًا أنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والطبراني في المعجم الصغير (٢٢) من طرق عن أنس، وحسنه السيوطي في: الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة (ص ١٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٠٨ و ٣٨٠٩).

(٢) أخرجه: البخاري، باب فضل من عِلِمَ وَعَلَّمَ (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٠٧٩ / ٢).

وقد نبّه القرآن الكريم على مجموعة صالحة من وسائل التعلّم، منها على سبيل المثال:

١- التعلّم بالتدرّيج: وهذا مأخوذ من نزول القرآن الكريم منجّماً مفرّقاً في حدود ثلاثة وعشرين عاماً، ومرّ معنا ذلك.

٢- التعلّم بال تكرار: ولذلك سُمي القرآن مثاني؛ لأن فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثانٍ لما تقدمه. وقيل: لتكرار القصص والمواعظ فيه وقيل: لأنه نزل مرة بالمعنى ومرة باللفظ والمعنى^(١).

٣- التعلّم بالمحاكاة والتقليد: دل على ذلك تعليم الغراب لابن آدم، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوِيلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

٤- التعلّم بالقدوة: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

٥- التعلّم بالصحبة والمصاحبة: وهو مأخوذ من قصة نبي الله موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ٦٥ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥-٦٦].

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٤).

٦- التعلُّمُ بالمعينة والتجربة، وهو ما فعله نبي الله إبراهيم ﷺ، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومثله كذلك تعليم صاحب القرية، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٧- التعلُّمُ بالإلزام، ومنه حوار إبراهيم ﷺ مع الملك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ

تَر إِلَىٰ الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكذا محاوراة إبراهيم ﷺ لأبيه وقومه، وإلزامه لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّيْنٍ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٨].

ولذلك قال الله تعالى بعد هذه المحاوراة الطويلة مع أبيه وقومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

٨- التعلُّم بالجدل والمحاورة: قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٩- التعلُّم بالموعظة واللفظ: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إلى آخر ما حكاه الله تعالى عنه من فنون العلم والنصح لابنه.

١٠- التعلُّم بضرب الأمثال: وهذا كثير في القرآن الكريم، منه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وعلى كلٍّ، فكل وسيلة تساعد على العلم والتعلُّم مما ذكر في القرآن أو غيره فهي واجبة على من وجب عليه التعلُّم، وعلى الأمة أن تذلل الصعاب في طريق سلوك العلم، وعلى إدارة المسلمين وسلطتهم أن يسخروا الإمكانيات من أجل هذا الغرض، وباب الوسائل مفتوح ومتروك بحسب الاحتياج.

فإلزامية التعليم، وسنواته، ومبانيه، وتفرغ طائفة من الناس لتعليمه والانشغال به، واتخاذ الأجهزة واللوازم المُعينة عليه يدخل تحت دائرة الواجب.

وهذا متروك بحسب الإمكان، زماناً ومكاناً، وقدرةً وعجزاً، لكن يجب

السعي في تحقيق غرض القرآن من العلم.
إن الأمة لا يمكن أن تسير في طريق النهضة والبناء والإعمار والرخاء المجتمعي قيد أنملة بدون العلم، والعلم المقصود هنا هو كل علم صالح نافع، شرعياً بالأولية أو بالثانوية؛ إذ كل علم ينفع الناس فهو مأمور به إما على التعيين أو الكفاية.

• التعليم المجتمعي؛

والمقصود به إشاعة ثقافة العلم والتعلم في المجتمع والأمة؛ ليكون رديفاً للتعليم الموجه والإلزامي، وحثاً عليه.
والقرآن الكريم قد اتخذ أساليب كثيرة في التنويه على أهمية العلم وإشاعته في المجتمع، منها:

أولاً: السؤال، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]: فنبه على الرجوع لأهل العلم من أجل العلم، فإن رجع الناس إلى غيرهم هلكوا، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).

ثانياً: التنويه بفضل حملة العلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]: فيرفعهم في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم، وفيها مدح الله العلماء. والمعنى أن الله يرفع الذين آمنوا وأوتوا العلم على

(١) أخرجه: البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ.

الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به، فبيّن في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس^(١).

ولذلك ورد في حديث النبي ﷺ: «فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ»^(٢).
ثالثاً: التنبيه على أفضلية العلماء عمن سواهم، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ
ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقد سبق أن العلم هو أحد المعيارين اللذين جعلهما القرآن للتفاضل بين البشر: العلم والعمل، وقد يُعبر عن العمل بالتقوى، وقد يُعبر عنه بالعمل الصالح.

وهذا التفضيل بالعلم، وهذه الميزة والتنويه، يخلق في المجتمع حالة من التنافس في سبيل سلوك طريق العلم، فيشيع ويكثر سالكوه.

رابعاً: جعل العلم ناتجاً عن التقوى، وهذا تحميس لسلوك طريقه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨١].

خامساً: الحث على طلب الزيادة من العلم؛ تنويهاً بشرفه وفضله وأهميته؛ للمسارعة في اكتسابه، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

سادساً: التنويه باستفادة العلماء وعقلهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٩٨/١٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٩٣/١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٩٦٠)، والبخاري (٢٩٦٩) من حديث مطرف بن الشخير عن حذيفة. وقال البخاري: وإنما يعرف هذا الكلام من كلام مطرف، وذكره الدارقطني في: علل الدارقطني ٣٨٥ (١٠١/٥) وقال: والصحيح أنه من قول مُطَرِّف بن الشَّخِير.

والعقل هنا بمعنى الفهم، أي لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام، وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول^(١).

وجاءت سيرة النبي ﷺ وتوجيهاته تنويجا لهذه المعاني القرآنية المهمة في إشاعة العلم، وجعله ثقافة اجتماعية يسعى الجميع لتحصيله، كل بما قدر له، فمن ذلك: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِحَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعٍ غَيْرِهِ»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٤).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رِضَاءً لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٢٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٣٨٤٣)، وحسنه الألباني كما في الصحيحة (١٥١١)، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره. ينظر: سنن ابن ماجة بتحقيق شعيب (٥/١٥)، وهو في صحيح ابن حبان (٨٢)، وتمام شواهد في مسند أحمد (٦٥٥٧).

(٣) أخرجه ابن ماجة (٢٢٧)، وذكره البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٣١) وقال: هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٣/٢٧٨) رقم (٦٠٦٠)، وقال: صحيح.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٢٦٣، ٣٠٥)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وقال: حديث حسن.



لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ^(١).
وقال ﷺ: «سَيَاتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَبًا
مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاقْنُوهُمْ^(٢). واقْنُوهُمْ: أي علّموهم، واجعلوا
لهم قُنِيَّةً من العلم، يستغنون به إذا احتاجوا إليه، ويروى: «وَأَفْتُوهُمْ»، من الفتيا
والتعليم^(٣).

وقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ
جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٤).

فهذه جملة من أحاديث النبي ﷺ التي نوّهت بالعلم والعلماء، وحثت
وحضت على سلوك طريق العلم، وهي كما قلنا ترجمة لأمر القرآن وتوجيهه
في هذه القضية الكبرى، قضية التعلّم.

والخلاصة: أن التعلّم والتعليم الموجه والمجمعي من أهم عوامل
النهضة، بل لا يمكن أن تقوم نهضة بلا علم، والقرآن مليء ببيان هذا والإشارة
إليه، وحرّئي بأمة ﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١] أن تستجيب لهذا الأمر، وتسعى لتحقيقه
واقعا في طريق نهضتها وقيادتها للعالم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢٤٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٠).

(٣) ينظر: مشارق الأنوار الوهاجة (٤/ ٤٥٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٣١).

هـ- العوامل العسكرية للنهضة في القرآن الكريم:

• بناء القوة العسكرية:

العسكر لغةً: مصدر للفعل عسكر، وهو الشدة، والجمع والكثير من كل شيء، وعسكر بالمكان: تجمّع. والعسكر: مجتمع الجيش، والموضع: مُعسكر، بفتح الكاف^(١).

لقد ارتبط مفهوم القوة تاريخياً بالمجال العسكري؛ حيث اقترن مضمونه باستخدام القوة العسكرية للسيطرة المباشرة وغير المباشرة، إلا أن هذا المضمون سيتوسع ليشمل مجالات أخرى إلى جانب المجال العسكري، كالاقتصاد والثقافة والتقنية.

فقد تبلورت معه أنواع أخرى للقوى: الناعمة، والافتراضية، والذكية، التي تمكّن من الحصول على الرخاء والرفاه الاقتصادي والاجتماعي، دون أعباء اقتصادية ولا نزيف بشري ومادي كما هو الشأن مع الاستخدام التقليدي للقوة العسكرية.

ومهما تكون التحولات التي طرأت على طبيعة القوة، في ظل تنامي ظاهرة الاعتماد المتبادل، تظل القوة العسكرية المظهر المحوري للقوة، وإن لم تعد هي المعيار الحاسم^(٢).

وقد اهتم القرآن الكريم بالقوة العسكرية، وعبر عنها بالقتال والجهاد والقوة بجميع صورها بشكل عام، وقد وردت عشرات الآيات في القرآن الكريم تتناول هذا الجانب، بل هناك سور يكاد يكون موضوعها الرئيس هو مناقشة قضايا القتال والجاهزية القتالية والجهادية، كسورة الأنفال والتوبة وكثير من

(١) ينظر: لسان العرب (٤/٥٦٨).

(٢) ينظر: جدوى القوة العسكرية، أبو بكر الجوهري (ص ٥٧).



آيات سورة آل عمران وسورة محمد ﷺ.

وسنأخذ لمحة عن بناء القرآن الكريم لمفهوم القوة العسكرية من خلال الصور التالية:

الصورة الأولى: بناء الأفراد عسكرياً

إن العنصر البشري هو العنصر المحوري في القوة العسكرية مهما تقدمت التقنية وتطورت، وقد اهتم القرآن ببناؤه جسداً وعقلاً وروحاً، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]: وتدخل القوة البدنية والعقلية في ذلك دخولاً أولياً، إضافةً إلى القوة الإيمانية.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، نصٌّ في أهمية اللياقة البدنية والعقلية لتحمل أعباء الجندية.

أما بناء القوة الإيمانية في الجنود فيمكن أن يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]: فإنه لم يجاوز الامتحان إلا الذين آمنوا معه، وهو ما يدل على استعدادهم الإيماني وتدريبهم عليه، وتمكُّنه من قلوبهم ونفوسهم، ولذلك يفرعون إلى هذه الميزة حين تواجههم الأخطار، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

الصورة الثانية: بناء القادة

والقادة هم الركيزة الأهم في الجندية العسكرية، وثبات قائد واحد أهم من مائة جندي، والآيات السابقة تتناول كذلك بناء القادة، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَأَتَى بِكَ آيَاتٍ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فالآية أوضحت أهم مقومات القائد، وهو الجسم السليم والعقل السليم.

الصورة الثالثة: بناء محددات القادة

ومنها الرحمة واللين والشورى، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كما يجب اختيار الأكفء الأقوياء للجندية؛ قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢-٣٣].
وقال تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

فهذه من أهم مقومات الجنود، وسبيل ذلك ما يضعه القائد من شروط ومحددات حال الاختيار. ومن مهام القائد:

- مصاحبة الجنود في تحركاتهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

- وتعزيز أماكنهم وتجهيز الأنسب لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

والبؤء: الرجوع، وهو هنا المقر؛ لأنه يبوء إليه صاحبه، والمقاعد جمع مقعد. وهو مكان القعود أي الجلوس على الأرض، والقعود ضد الوقوف والقيام، وإضافة مقاعد لاسم ﴿لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] قرينة على أنه أطلق على المواضع اللاتقة بالقتال التي يثبت فيها الجيش ولا ينتقل عنها لأنها لاتقة بحركاته^(١).

- وتفقد أحوالهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

وكانت جنود نبي الله سليمان ﷺ واسعة، وكان الطير من جملة الجند؛ لأن كثيراً من الطير صالح للانتفاع به في أمور الجند.

وتفقد الجند من شعار القادة والأمراء وهو من مقاصد حشر الجنود وتسييرها. والمعنى: تفقد الطير في جملة ما تفقده، ومن واجبات ولاية الأمور تفقد أحوال الرعية وتفقد العمال ونحوهم بنفسه، أو بمن يكل إليه ذلك^(٢).

- ومن مهامه جمع الجنود واستعراضهم وأمرهم ونهيهم، قال تعالى: ﴿وَحَشِرْ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

ففي الآية حشر الجنود، وهو الجمع. والمعنى: أن جنوده كانت محضرة في حضرته مسخرة لأمره حيث هو. والجنود: جمع جند، وهو الطائفة التي لها عمل متحد تسخر له، وغلب إطلاق الجند على طائفة من الناس يعدها الملك لقتال العدو ولحراسة البلاد. والوزع: الكف عما لا يُراد، فشمّل الأمر والنهي،

(١) التحرير والتنوير (٧١ / ٤).

(٢) ينظر: المرجع السابق (٢٤٥ / ١٩).

أي فهم يؤمرون فيأتمرون وينهون فينتهون.

وفي الآية إشارة إلى أن جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك والقادة ليكون الجنود متعهدين لأحوالهم وحاجاتهم ليشعروا بما ينقصهم ويتذكروا ما قد ينسونه عند تشوش الأذهان عند القتال وعند النفير^(١).

الصورة الرابعة: بناء المعدات العسكرية بأنواعها، ومصانع السلاح

لكل زمان بحسبه، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].
والإعداد التهيئة والإحضار، ودخل في ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ كل ما يدخل تحت قدرة الناس اتخاذه من العدة.

والخطاب لجماعة المسلمين وولاية الأمر منهم، لأن ما يراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه ولاية الأمور الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها.
والقوة كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وتطلق القوة مجازاً على شدة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضاً على سبب شدة التأثير، فقوة الجيش شدة وقعه على العدو، وقوته أيضاً سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا.

فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا. وبهذا الاعتبار يُفسَّر الحديث النبوي: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ»^(٢): أي أكمل أفراد القوة آلة الرمي، أي في ذلك العصر، وليس

(١) ينظر: المرجع السابق (١٩/٢٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٧).

المراد حصر القوة في آلة الرمي.

والإرهاب المقصود بالآية جعل الغير راهباً، أي خائفاً، فإن العدو إذا علم استعداد عدوه لقتاله خافه، ولم يجرؤ عليه، فكان ذلك هناءً للمسلمين وأمناً من أن يغزوهم أعداؤهم، فيكون الغزو بأيديهم، يغزون الأعداء متى أرادوا، وكان الحال أوفق لهم، وأيضاً إذا رهبهم تجنبوا إعانة الأعداء عليهم^(١).

إن القرآن يتخذ للنصر عُدته الواقعية التي تدخل في طوق العُصبة المسلمة؛ فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أَمَّن لها الأرض الصلبة التي تطمئن عليها أقدامها، وهياً لها الأسباب العملية التي تعرفها فطرتها وتؤيدها تجاربها، وإلا إذا أعدها هي للحركة الواقعية التي تحقق هذه الغايات العلوية. فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد، والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها، ويخص ﴿رَبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم هذا القرآن أول مرة... ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والمهم هو عموم التوجيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة؛ فالنص يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، فهي حدود الطاقة إلى أقصاها، بحيث لا تقعد العُصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها^(٢).

وإذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقاً، وكانت النفوس شحيحة بالمال، تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، كما في تذييل الآية^(٣).

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠ / ٥٤).

(٢) ينظر: ظلال القرآن (٣ / ١٥٤٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٠ / ٥٤).

وهكذا يجرد القرآن الجهاد والنفقة في سبيله من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي، ومن كل شعور قومي أو طبقي؛ ليمحض خالصاً لله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله ^(١).

الصورة الخامسة: بناء الدفاعات العسكرية

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

واللبوس هو اللباس، وأول من صنع الدرع داود عليه السلام، وإنما كانت صفائح قبله، فهو أول من سردها واتخذها حلقة. والباس في قوله: ﴿بَأْسِكُمْ﴾ هو الحرب، وإن وقع على السوء كله، والمعنى: ليمنعكم ويحرسكم ﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾: أي من الجرح والقتل والسيوف والسهم والرمح.

وفيه دلالة على أن أول من عمل الدرع هو داود عليه السلام ثم تعلم الناس منه، فتوارث الناس عنه ذلك، فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر ^(٢).

وقد تقرر أن القرآن الكريم إنما يذكر ما يقدر عليه الناس حين نزوله، ويمتن به عليهم ويرشدهم إليه، لا ليجمدوا عليه، بل ليكون فيه إشارة إلى غيره، وتنبيه على ما سواه مما هو أولى منه، بحسب كل زمان ومكان.

ويدخل بناء الدفاعات العسكرية أيضاً تحت الأمر في قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِّنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

(١) ينظر: ظلال القرآن (٣/ ١٥٤٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢٢/ ١٦٨).

شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]: وهو دخول أولي؛ فأهم مقصودات بناء القوة هو إرهاب العدو حتى لا يتجرأ على بلاد المسلمين وثرواتهم وأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].
 فيدخل تحت قوله: ﴿بِمِثْلِ﴾ في الآيتين كل ما يردع العدو، إما مساوياً أو يفوقه، وإلا فلم يتحقق رد الاعتداء والعقاب.

فكل سلاح مهما كان فاتكاً -يمتلكه العدو- يجب على المسلمين أن يصنعوا ما يردعه أو يفوقه، فإن امتنع المسلمون عن ذلك أو تقاعسوا عنه كان هلكة يذهبون إليها بأقدامهم، والقرآن قد حرّم ذلك: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

الصورة السادسة: بناء المراسد والعيون

قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥].
 والقعود مجاز في الثبات في المكان، والملازمة له؛ لأن القعود ثبوت شديد وطويل. فمعنى القعود في الآية: المراقبة في مظان تطرّق العدو إلى بلاد الإسلام، وفي مظان وجود جيش العدو وعُدته.

والمرصد مكان الرصد، والرصد: المراقبة وتتبع النظر.

و﴿كُلِّ﴾ مستعملة في تعميم المراسد المظنون مرورهم بها؛ تحذيراً للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراسد فيأتيهم العدو منها، أو من التفريط في بعض ممار العدو فينطلق الأعداء آمنين فيستخفوا بالمسلمين ويتسامع

جماعات المشركين أن المسلمين ليسوا بذوي بأس ولا يقظة، فيؤول معنى ﴿كُلَّ﴾ هنا إلى معنى الكثرة للتنبيه على الاجتهاد في استقصاء المراسد^(١).

وقد امتثل النبي الكريم ﷺ هذا الندب القرآني، فكان يقول في غزواته: «مَنْ يَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟»^(٢)، والمقصود من يستطلع أمرهم من دون أن يشعروا به، وقد بَوَّبَ له البخاري بـ(باب فضل الطليعة)، أي: مَنْ يُبْعَثُ إِلَى الْعَدُوِّ لِيُطْلَعَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ^(٣).

الصورة السابعة: بناء الحواجز والسدود المخفية

ويؤخذ ذلك من قول الله ﷻ: ﴿قَالُوا يَدَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٤-٩٦].

فهذه وسيلة عسكرية دفاعية قديمة، والمقصود الإشارة إلى أن القرآن يهدي لاتخاذ الوسائل في هذا الصدد، والبحث عمّا يفيد.

على أن هذه السدود والحواجز المشار إليها في القرآن الكريم قد ألهمت الناس لاتخاذها فمن ذلك ما ورد عن النبي ﷺ، أنه عمل خندقاً على المدينة في غزوة الأحزاب؛ ليصد تقدم جيش قريش ودخوله المدينة النبوية^(٤).

وفي حروب هذا العصر تُستخدم هذه الحواجز لمنع تقدم دبابات العدو وأسلحته على الأرض.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٦).

(٣) ينظر: فتح الباري (٦/ ٥٢).

(٤) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٧).

الصورة الثامنة: بناء الحواجز والحصون الظاهرة

قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

والآية وإن كانت في تحصن الأعداء، إلا أن فيها لفتًا للمسلمين لاتخاذ الأسباب التي تقيهم من هجوم العدو، فهم أولى بكل وسيلة تحفظ نفوسهم وأوطانهم وثرواتهم.

الصورة التاسعة: اتخاذ الملاجئ وما في معناها

قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧]. والملجأ: مكان اللجأ، وهو الإيواء والاعتصام. والمغارات: جمع مغارة، وهي الغار المتسع الذي يستطيع الإنسان الولوج فيه، من غار الشيء إذا دخل في الأرض^(١).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فهذه الأشياء التي يكون بها ذلك التوقي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليتمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال. والأكنان: جمع كن، وهو فعلٌ بمعنى مفعول، أي مكنون فيه، وهي الغيران والكهوف.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠ / ٢٣١).

والسراييل: جمع سربال، وهو القميص يقي الجسد حر الشمس، كما يقيه البرد.

والسراييل التي تقي البأس هي دروع الحديد، ولها من أسماء القميص: الدرع، والسربال، والبدن. والبأس: الشدة في الحرب^(١).

الصورة العاشرة: التنبيه على ما يمكن استخدامه في التسليح

كالتنبيه على الحديد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وإنزال الحديد مستعار لخلق معدنه، أي خلق لأجلكم، وذلك بإلهام البشر استعماله في السلاح من سيوف ودروع ورماح ونبال. والبأس: الضر، والمراد بأس القتل والجرح بآلات الحديد من سيوف ورماح ونبال، وبأس جرأة الناس على إيصال الضر بالغير بواسطة الواقيات المتخذة من الحديد.

والمنافع: منافع الغالب بالحديد من غنائم وأسرى وفتح بلاد. والمقصود من هذا لفت بصائر السامعين إلى الاعتبار بحكمة الله تعالى من خلق الحديد وإلهام صنعه، والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس إنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق ويوضع نفعه حيث يليق به - لا لتجعل منافعه لمن لا يستحقها مثل قطاع الطريق والثوار على أهل العدل - ولتجهيز الجيوش لحماية الأوطان من أهل العدوان، وللدخار في البيوت لدفع الضاريات والعاديات على الحرّم والأموال.

وهذا من باب سد الذريعة، لا ليُجعل بأسه لإخضاع شوكة العدل وإرغام

(١) يُنظر المرجع السابق (١٤/ ٢٤٠).

الأميرين بالمعروف على السكوت، فإن ذلك تحريف لما أراد الله من وضع الأشياء النافعة والقارة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال على لسان أحد رسله ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقد أوماً إلى هذا المعنى بالإجمال قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي ليظهر للناس أثر علم الله بمن ينصره^(١).

والتنبيه على أهمية السفن، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ [هود: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ولا شك أن السفن قد استخدمت في المجال العسكري من قديم، وهي اليوم أحد أهم أنواع الأسلحة المستخدمة في الحروب وحفظ الأمن البحري والبري بل والجوي. والتنبيه كذلك على لفت النظر إلى المجال الجوي، واستخدام ما يمكن استخدامه كسلاح في هذا الصدد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

وقد استفاد الغرب من حركة الطير ومراقبته صنع الطائرات^(٢)، وهي وإن كانت مقصودة في البدء للركوب، إلا أنها أصبحت من أعظم الأسلحة الفتاكة في هذا العصر، ووجودها في المعارك حاسم في الغالب.

شأنها في ذلك شأن الخيل وغيرها مما كان يُعد للركوب، ثم استخدم في الحرب كعنصر أساسي، ولعلها وغيرها مما ظهر في هذا العصر هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

(١) يُنظر المرجع السابق (٢٧/٤١٧).

(٢) ينظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني (ص ٨٥).

الصورة الحادية عشرة: التنبيه على أهمية التعبئة العسكرية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]

أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم^(١).

والمقصود من هذا التحريض بث الروح القتالية بين جنود الحق، وهو مما يضعف الروح القتالية عند الأعداء، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

ومن التحريض بيان عدالة ما يقومون به، وأنه في سبيل حفظ بلاد الإسلام وحفظ أمن الضعفاء والعاجزين من أن يُنكَل بهم الأعداء، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وفي معنى هذا التحريض قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص ٣٢٥).

الصورة الثانية عشرة: التنبيه على أهمية وضع الخطط للمعارك أو

العمليات القتالية، وأماكنها، وما يختص بها

قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَمَرَ أَنَّ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]: وهذه الآية نزلت في شأن معركة بدر، والمراد بالعدوة الدنيا ما يلي جانب المدينة، وبالقصوى ما يلي جانب مكة، وكان الماء في العدو التي نزل بها المشركون، وكان استظهاهم من هذا الوجه أشد.

ولا شك أن عسكر الرسول ﷺ في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب القلة وعدم الأهبة، ونزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية تغوص فيها أرجلهم، وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد، وبسبب حصول الآلات والأدوات؛ لأنهم كانوا قريبين من الماء، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي، ولأن العير كانت خلف ظهورهم، وكانوا يتوقعون مجيء المدد من العير إليهم ساعة فساعة^(١).

والوصف بـ ﴿الدُّنْيَا﴾ و﴿الْقُصْوَى﴾ يَشْعُرُ المخاطَبون بفائدته، وهي أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدو القصوى؛ لأنها أصلب أرضاً، فليس للوصف بالدُّنو والقُصو أثر في تفضيل إحدى العدوتين على الأخرى، ولكنه صادف أن كانت القصوى أسعد بنزول الجيش، فلما

(١) ينظر: تفسير الرازي (٤٦/١٥).

سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون، فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر، وكان الوادي دهساً فلبّد المطر الأرض ولم يُعقّمهم عن المسير، وأصاب الأرض التي بها قريش فعطلهم عن الرحيل، فلم يبلغوا بدرًا إلا بعد أن وصل المسلمون، وتخيروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء، فاتخذوا حوضًا يكفيهم وغوّروا الماء، فلما وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون، فكان المسلمون يشربون ولا يجد المشركون ماء^(١).

والمقصود التنبيه على أهمية التخطيط للعمليات العسكرية، ولذلك فإن النبي ﷺ قد طبق هذا في واقعه، فحين نزل في موضع بعيدٍ عن الماء في معركة بدر جاء أحد أصحابه^(٢) فقال: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمتزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قَالَ: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغَوِّر^(٣) ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فوافقه النبي ﷺ، وانهض ومن معه من الناس، فساروا للمكان المقصود^(٤).

الصورة الثالثة عشرة: التآهب وعدم الغفلة

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٠).

(٢) هو الحباب بن المنذر بن الجموح ﷺ. ينظر: سيرة ابن هشام (٢/٢١٧).

(٣) التغوير: الدفن والطمس. يُنظر المرجع السابق.

(٤) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/٢١٧).

عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ^ط وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿النساء: ١٠٢﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ^ط﴾، وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ^ط﴾: هذا وصاة بالحذر وأخذ السلاح لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته... وفي هذه الآية أدل دليل على تعاطي الأسباب، واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة، وفيها دليل على تأكيد التأهب والحذر من العدو في كل الأحوال وترك الاستسلام، فإن الجيش ما جاءه مصاب قط إلا من تفريط في حذر^(١).

والآية بشكل عام مليئة بالتنبيهات على أهمية أخذ الحيطة، واعتبارها في التجهيزات القتالية، ومثلها في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

الصورة الرابعة عشرة: التنبيه على اتخاذ وسائل لتضليل العدو

وهذا يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا^ط وَلَوْ أَرَبَكُهُمْ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^{١٣}﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا^ط وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿[الأنفال: ٤٣ - ٤٤]: وهذا التخيّل قد يحصل من انعكاس الأشعة واختلاف الظلال، باعتبار مواقع الرائيين من ارتفاع المواقع وانخفاضها، واختلاف أوقات الرؤية على حسب ارتفاع الشمس وموقع الرائيين من مواجهتها أو استدبارها، وبعض ذلك يحصل عند حدوث السراب، أو عند حدوث ضباب أو نحو ذلك، وإلقاء الله الخيال في

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٧١).

نفوس الفريقين أعظم من تلك الأسباب^(١).

ففي الآيات إشارة إلى أهمية اتخاذ الوسائل التي قد تعيق أو تضلل العدو، أو تُظهر قوة المسلمين بشكل مبالغ فيه.

الصورة الخامسة عشرة: التنبيه على أهمية التخفي عند التحرك، أو

عند بدء العمليات العسكرية

وهذا يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾

[الدخان: ٢٣]. وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف، والخوف يكون من وجهين: إما من العدو فيتخذ الليل ستراً مسدلاً، فهو من أستار الله تعالى، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّاً أو جذب، فيتخذ السرى مصلحة من ذلك^(٢).

والآية بخصوص خروج موسى ﷺ وقومه، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ففيها إشارة إلى أهمية التخفي خوف العدو أو من أجل مباغتته.

الصورة السادسة عشرة: التنبيه على أهمية عنصر المفاجأة والمباغطة

في العمليات العسكرية

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[المائدة: ٢٣] أي: فاجئوهم وضاعطوهم في المضيق ولا تمهلوهم ليحصرُوا ويجدوا للحرب مجالاً^(٣).

(١) ينظر: الكشف (٢/ ٢٢٥)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٢٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ١٣٦).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٣/ ٢٧٨).

وقد يُستدل لهذا أيضاً بقول الله ﷻ: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١].

وهي وإن كانت في المؤمنين، إلا أن المقصود أن العدو فجأهم، حتى زاغت أبصار المؤمنين وبلغت قلوبهم الحناجر.

الصورة السابعة عشرة: التنبيه على أهمية الاصطفاف

سواء كان حسياً أو معنوياً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]: والظاهر أن المراد تشبيههم في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص من حيث إنهم لا فرجة بينهم ولا خلل، وقيل: المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص، وللوسائل حكم المقاصد فما يتوصل به إلى تحصيل الاتصاف بذلك مما لا ينبغي أن يتكاسل في تحصيله^(١).

والصف: عدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن، فيُطلق على: صف المصلين، وصف الملائكة.

وصف الجيش في ميدان القتال بالجيش إذا حضر القتال كان صفًا من رَجَالَةٍ أو فرسان، ثم يقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات. فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبر، وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق وكر وفر^(٢).

الصورة الثامنة عشرة: التنبيه على بعض الحركات القتالية المؤثرة

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) ينظر: المرجع السابق (٢٧٩/١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧٦/٢٨).

سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ [الأنفال: ١٢].

والأعناق: أعناق المشركين وهو يبين من السياق، والبنان: اسم جمع بَنَانَة، وهي الإصبع وقيل: طرف الإصبع، وإضافة ﴿كُلَّ﴾ إليه لاستغراق أصحابها. وإنما خُصَّت الأعناق والبنان لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يُبطل صلاحية المضروب للقتال؛ لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع.

وضرب الملائكة يجوز أن يكون مباشرة بتكوين قطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ورد في بعض الآثار عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى، فإسناد الضرب حقيقة، ويجوز أن يكون بتسديد ضربات المسلمين وتوجيه المشركين إلى جهاتها، فإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي لأنهم سببه، وقد قيل: الأمر بالضرب للمسلمين، وهو بعيد، لأن السورة نزلت بعد انكشاف الملحمة^(١).

وقد لا يكون الخطاب للمسلمين مباشرة بعيداً إذا ما اعتبرناها أمراً كونياً، أي: فقدّرنا للمسلمين أن يضربوا الأعناق والبنان.

وعلى كلٍّ فالمقصود أنه أمر بضرب الأعضاء المؤثرة في القتال، وعليه ينبغي أن تُضرب المواقع والأدوات المؤثرة في قوة العدو أيّاً كانت؛ لأنه أخصر للجهد والوقت والدماء.

الصورة التاسعة عشرة: تحطيم ما يتحصن به العدو

حتى لو كان فيه منفعة ومصلحة لاحقة؛ لأن دماء المسلمين أعظم وأكبر عند الله. قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ

(١) يُنظر المرجع السابق (٩/٢٨٣).

وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿[الحشر: ٥].

ففي الصحيح: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]»^(١).

وذلك، أن رسول الله ﷺ لما نزل ببني النضير^(٢) وتحصَّنوا في حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا: زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل؟! وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟! فشق ذلك على النبي ﷺ فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم، وخشوا أن يكون ذلك فسادًا، واختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا، وقال بعضهم: بل اقطعوا، فأَنْزَلَ اللَّهُ تبارك وتعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾: تصديقًا لمن نهى عن قطعه وتحليلًا لمن قطعه، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى^(٣).

فالمقصود أنهم لما كانوا يتحصنون بها أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهابًا وإرهابًا لقلوبهم^(٤).

الصورة العشرون: حفظ الاتفاقات والمعاهدات وحُرمة الأوقات

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ

(١) أخرجه: البخاري (٤٨٨٤)، ومسلم (١٧٤٦) من حديث عبد الله بن عمر ؓ.

(٢) هم يهود بني النضير، وكانوا من سكن المدينة، وكان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة قد هادنهم وأعطاهم عهدًا ودمة على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه. ينظر: تفسير ابن كثير (٥٧/٨).

(٣) أسباب النزول، الواحدي (ص ٤١٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٦١/٨).

يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾
[التوبة: ٤]: فهذه في حفظ المعاهدة والاتفاق، وعدم جواز نقضه، بل يجب الوفاء به إلى حينه المحدد.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فبين أن القتال في الأشهر الحرم كبير لا يحل^(١)، والجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم يُنسخ؛ لأن المطلق محمول على المقيّد، وهذه الآية مقيّدة لعموم الأمر بالقتال مطلقاً؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها، تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام^(٢).
وهذا من حفظ حرمة الأوقات، وقد يلحق بذلك بعض الأوقات التي يتفق عليها المتحاربون ويصطلحون أن لا قتال فيها، كأوقات انتشار الجثث أو سحب الجرحى، والله أعلم.

الصورة الحادية والعشرون: التنبيه على البدء بالعدو الأقرب

وهذا من أولويات العقل التي أمر بها القرآن؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

لما أمر الله تعالى بقتال المشركين كافة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا

(١) ينظر: المرجع السابق (١/ ٥٧٤).

(٢) تفسير السعدي (ص ٩٧).

يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً [التوبة: ٣٦] أرشدكم في ذلك الباب إلى الطريق الأصوب الأصلح، وهو أن يتبدئوا من الأقرب فالأقرب، منتقلًا إلى الأبعد فالأبعد.

فالابتداء بالغزو من المواضع القريبة أولى لوجوه:

الأول: أن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة، ولما تساوى الكل في وجوب القتال لما فيهم من الكفر والمحاربة وامتنع الجمع، وجب الترجيح، والقرب مُرَجِّح ظاهر كما في الدعوة، وكما في سائر المهمات، ألا ترى أن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة لهذا المهم، فوجب الابتداء بالأقرب.

والثاني: أن الابتداء بالأقرب أولى لأن النفقات فيه أقل، والحاجة إلى الدواب والآلات والأدوات أقل.

الثالث: أن الفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فقد عرّضوا الذراري للفتنة.

الرابع: أن المجاورين لدار الإسلام إما أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء، فإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد وأكثر من تعرّض الكفار المتباعدين، والشر الأقوى الأكثر أولى بالدفع، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل، وحصول عز الإسلام لسبب انكسارهم أقرب وأيسر، فكان الابتداء بهم أولى.

الخامس: أن وقوف الإنسان على حال من يقرب منه أسهل من وقوفه على حال من يبعد منه، وإذا كان كذلك كان اقتدار المسلمين على مقاتلة الأقربين أسهل؛ لعلمهم بكيفية أحوالهم وبمقادير أسلحتهم وعدد عساكرهم.

السادس: أن دار الإسلام واسعة، فإذا اشتغل أهل كل بلد بقتال من يقرب منهم من الكفار كانت المؤنة أسهل، وحصول المقصود أيسر.

السابع: أنه إذا اجتمع واجبان وكان أحدهما أيسر حصولاً وجب تقديمه، والقرب سبب للسهولة، فوجب الابتداء بالأقرب.

الثامن: أن رسول الله ﷺ ابتدأ في الدعوة بالأقرب فالأقرب، وفي الغزو بالأقرب فالأقرب، وفي جميع المهمات كذلك.

فدلت هذه الوجوه على أن الابتداء بالأقرب فالأقرب واجب، ومصالح الدنيا مبنية على ترجيح ما هو أكثر مصلحة على ما هو الأقل، هذا إذا تعذر الجمع بين مقاتلة الأقرب والأبعد، أما إذا أمكن الجمع بين الكل، فلا كلام في أن الأولي هو الجمع^(١).

والأمر خاضع للتقدير والموازنة، والمقصود هو الإرشاد إلى الحالة الغالبة.

الصورة الثانية والعشرون: الجنوح للسلام متى ما اقتضت الحاجة أو

المصلحة لذلك

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]: تبين الآية أحكام السلم إن طلب العدو السلم والمهادنة، وكفُّوا عن حالة الحرب، فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سألهم منهم.

والجنوح: الميل، وهو مشتق من جناح الطائر: لأن الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه. والسلام: ضد الحرب.

فمعنى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾: إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه، كما يميل الطائر الجناح. وإنما لم يقل: وإن طلبوا السلم فأجبهم إليهم؛ للتنبيه على أنه لا يُسْعَفُهُم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب؛ لأنهم قد يظهرون

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٧٢).

الميل إلى السلم كيداً، فهذا مقابل قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْهُمُ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] في الآيات التي قبلها. فإنَّ نَبَذَ العهد نَبَذَ لحال السِّلْم^(١).

والجنوح للسِّلْم يُقَدَّرُ بقدره، ولا يُصار إليه بإطلاق؛ لقول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

فإذا كان المسلمون على عزة، وفي قوة ومنعة، وعُدة شديدة:

فَلَا صُلْحَ حَتَّى تُطْعَنَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا^(٢)

وَتُضْرَبَ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ الْجَمَاجِمِ^(٣)

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لانتفاع يُجلب به، أو ضرر يندفع بسببه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إذا دُعوا إليه^(٤).

وبعد، فهذه مجموعة من الصور التي تطرَّق بها القرآن الكريم لموضوع العسكرية والقتال وما يلحق بها، ولو تتبعنا القرآن الكريم في هذا الصدد لاستخرجنا مئات الصور والأشكال في هذه القضية المهمة، وقد نبهتُ إلى أنه أفرد لها مجموعة من السور، فتحدث عن تفاصيل دقيقة في شتى مناحي هذه القضية، حتى عالج موضوع الغنائم، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَانِ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٥٩/١٠).

(٢) القَنَا: الرَّماح. ينظر: لسان العرب (٢٠٤/١٥).

(٣) البيت للشاعر الجاهلي عمرو بن بَرَّاق بن عمرو بن منبه النهمي. ينظر: الأغاني (١٨٢/١٠).

(٤) ينظر: أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي (٤٢٧/٢).

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: ٤١].

وتحدث عن الأسرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].
وعن كيفية التعامل مع الأسرى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠-٧١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وعن كيفية التعامل مع المعاهد الذي يخاف من خيانتة: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وعن الطريقة المثلى في التعامل مع من ينقضون المواثيق والعهود الحربية: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَقْفَنْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦-٥٧].

والمقصود أن القرآن الكريم اهتم بتفاصيل كثيرة في جانب القوة العسكرية كركيزة من أهم ركائز وعوامل النهضة الشاملة للأمم؛ لما فيها من حفظ للدين والعرض والأرض، ولا حق إلا بقوة تحميه، وإذا لم يكن له قوة فهو آيل للاضمحلال والهلاك والضيعة.

وعلى أمة القرآن أن تستجيب لنداء القرآن في هذه القضية، لأن فيها حياتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لِمَا يُحْيِيكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُوَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
[الأنفال: ٢٤].

وما يُحْيِي هو الأخذ بأسباب القوة، ومجاهدة العدو وفق ذلك، فإن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار^(١).

والإحياء في الآية مستعار لما يشبه إحياء الميت، وهو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان، فيعم كل ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة وإصلاح الفرد والمجتمع، وما يُتَقَوَّم به ذلك من خلال الشريفة العظيمة، فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرية حياة، واستقامة أحوال العيش حياة^(٢)، وأعظم من ذلك كله إحياءه بما يحفظ ذلك، ويجعله في مأمن من أن يُنْقَص أو يُهَانَ أو يُصَادَر حَقُّه في الحياة والعقيدة والأرض والعرض، ولا يكون حفظ ذلك كله إلا ببناء أسباب القوة والدفاع.

• مجالات استخدام القوة العسكرية:

بَتَّبِعْ حديث القرآن الكريم عن قضية القوة العسكرية واستخدامها يتضح أنه يَحْمَسُ لاستخدامها في أربعة مجالات:

١ - الهجوم ابتداءً: لإتاحة نشر الدين، وتعبيد الناس لله تعالى، ونشر التوحيد الخالص، فهو لا يفعل ذلك بالقوة، بل يهجم على من يمنع وصول دينه إلى الناس، ويحفظ لهم حق اختياره.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

(١) يُنْظَرُ المرجع السابق (١٥/٤٧٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٩/٣١٣).

حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿التوبة: ٢٩﴾.

وظاهر الآية أن القوم المأمور بقتالهم ثبتت لهم معاني الأفعال الثلاثة
المتعاطفة في صلة الموصول، وأن البيان الواقع بعد الصلة بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ راجع إلى الموصول باعتبار كونه صاحب تلك الصلات،
فيقتضي أن الفريق المأمور بقتاله فريق واحد، انتفى عنهم: الإيمان بالله واليوم
الآخر، وتحريم ما حرم الله، والتدين بدين الحق.

ولم يُعرف أهل الكتاب بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فاليهود
والنصارى مثبتون لوجود الله تعالى ومؤمنون بيوم الجزاء.

وبهذا الاعتبار تحير المفسرون في تفسير هذه الآية فلذلك تأولوها بأن
اليهود والنصارى وإن أثبتوا وجود الله واليوم الآخر، فقد وصفوا الله بصفات
تنافي الإلهية فكأنهم ما آمنوا به، وألصقوا باليوم الآخر تخيلات وأكذوبات
تنافي حقيقة الجزاء، فكأنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر.

والمقصود الأهم من الآية هو قتال أهل الكتاب من النصارى، ولكنها
أدمجت معهم المشركين لئلا يتوهم أحد أن الأمر بقتال أهل الكتاب يقتضي
التفرغ لقتالهم ومشاركة قتال المشركين.

والمقصود من الآية هو الصفة الثالثة ولا يدينون دين الحق، وأما قوله:
﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾
فإدماج. فليس المقصود اقتصار القتال على من اجتمعت فيهم الصفات
الأربع، بل كل الصفة المقصودة هي التي أردفت بالتبيين بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وما عداها إدماج وتأكيد لما مضى، فالمشركون لا يؤمنون
بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمُونَ شيئاً مما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا شريعة

لهم فليس عندهم حلال وحرام، ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام، وأما اليهود والنصارى فيؤمنون بالله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله في دينهم، ولكنهم لا يدينون دين الحق وهو الإسلام، ويلحق بهم المجوس، فقد كانت هذه الأديان هي الغالبة على أumm المعروف من العالم يومئذ^(١).

ويصدق هذا المعنى ويترجمه قول النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(٢).

ومعنى: «وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»: أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يُخْلُون به في الظاهر من الأحكام الواجبة، ومن أظهر الإسلام وأسر الكفر قبل إسلامه في الظاهر وهذا قول أكثر العلماء^(٣).

٢- الدفاع: لحفظ كينونة الدين وأتباعه ومصالح دينهم ودنياهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^(١٩١) فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢]: هذا إرشاد للمسلمين بما فيه صلاح لهم، وإذن في قتال الدفاع لدفع هجوم العدو، وهي وإن نزلت لسبب خاص فهي عامة في كل حال يُبادئ المشركون فيه المسلمين بالقتال، لأن السبب لا يُخَصِّص. والمراد بالمبادأة دلائل القصد للحرب؛ بحيث يتبين المسلمون أن الأعداء خرجوا لحربهم، وليس المراد حتى يضربوا ويهجموا؛ لأن تلك الحالة يفوت

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٣) من حديث عبد الله بن عمر ؓ.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي (١/ ٢٠٦).

على المسلمين تداركها، وهذا الحكم عام في الأشخاص لا محالة، وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأمكنة والأزمنة^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۖ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتَخُونَهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ﴾ [النحل: ١٢٦].
والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٣- الدفاع عن المستضعفين: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ومعنى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾: ما يمنعكم من القتال؟! وأصل التركيب: أي شيء حق لكم في حال كونكم لا تقاتلون، فجملة ﴿لَا تُقَاتِلُونَ﴾ حال من الضمير المجرور للدلالة على ما منه الاستفهام.

والاستفهام إنكاري، أي لا شيء لكم في حال لا تقاتلون، والمراد أن الذي هو لكم هو أن تقاتلوا، فهو بمنزلة أمر، أي: قاتلوا في سبيل الله لا يصدكم شيء عن القتال.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٢٠٠).

ومعنى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لأجل دينه ولمرضاته، فحرف (في) للتعليل، ولأجل ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: أي لنفعهم ودفع المشركين عنهم. والمستضعفون: الذين يُعْدهم الناس ضعفاء^(١).

فهذا حض على القتال، وهو يتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس. وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال، وإما بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس؛ إذ هي أهون منها^(٢).

والمعنى: فكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله، واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟! هؤلاء الذين ترسم صورهم في مشهد مثير لحمة المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق، هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم، والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني، الذي تتبعه كرامة النفس والعرض، وحق المال والأرض.

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا، وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة، وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد، وهو وحده يكفي، لذلك يُستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات... وهو

(١) ينظر: المرجع السابق (١٢٢/٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢٧٩/٥).

أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس^(١).
وتعني الآية بالمستضعفين مَنْ كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفرة
قريش وأذاهم^(٢)، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في
ذلك كل مستضعفٍ في كل زمان ومكان.

ومن أدلة نصر المستضعفين والدفاع عنهم ما قصّه القرآن في قصة ذي
القرنين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ
نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۖ ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ
فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ
بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ ﴿٩٦﴾
فَمَا اسْطُوعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٣ - ٩٧]: فقد قدم
لهم المعونة، وبنى لهم سد الدفاع عنهم. والذي يظهر أن الدفاع عن المستضعفين
لا يختص بقوم دون قوم، وإن تباينت دياناتهم وعقائدهم، فإن العدل والحق
قامت عليه السماوات والأرض، والأمة المؤمنة مأمورة بإقامة العدل والقسط
على جميع الأرض، وإصلاحها من جميع الظلم، وردع جميع الظالمين، حسب
الطاقة والقدرة.

٤- رد البغي: وإن كان البغي من مسلمين موحدين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ
طَافِقَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ
فَقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

(١) ظلال القرآن (٢/ ٧٠٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٩).

والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين، فهو مما حُمِلَ على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس^(١).
والأمر أولاً بالإصلاح، قبل استخدام أي قوة، فإن لم يمكن ذلك، أو لم تقبل إحدى الطائفتين فلا مَنَاصَ من القوة.
فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصعْ إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية.

والبغي: الظلم والاعتداء على حق الغير، وهو هنا مستعمل في معناه اللغوي، وهو غير معناه الفقهي، فالتّي تبغي هي الطائفة الظالمة الخارجة عن الحق وإن لم تقاتل لأن بغيتها يحمل الطائفة المبغي عليها أن تدافع عن حقها. وإنما جُعل حكم قتال الباغية أن تكون طائفة لأن الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوان الشرطة، فتعيّن أن يكون كفُّهم عن البغي بالجيش والسلاح.

وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل، فأما خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشد وليس هو مورد هذه الآية ولكنها أصل له في التشريع.
وقد بغى أهل الردة على جماعة المسلمين بغياً بغير قتال فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، وبغى بغاة أهل مصر على عثمان رضي الله عنه فكانوا بغاة على جماعة المؤمنين، فأبى عثمان قتالهم وكره أن يكون سبباً في إراقة دماء المسلمين اجتهداً منه، فوجب على المسلمين طاعته لأنه ولي الأمر، ولم ينفوا عن الثوار حكم البغي.

ويتحقق وصف البغي بإخبار أهل العلم أن الفئة بغت على الأخرى، أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تُخشَ من عصيانه فتنة؛ لأن ضرر الفتنة

(١) المرجع السابق (١٦/٣١٦).

أشد من شدِّ الجور في غير إضاعة المصالح العامة من مصالح المسلمين؛ وذلك لأن الخروج عن طاعة الخليفة بغي على الجماعة الذين مع الخليفة^(١). والأمر في قوله: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ لُحْيَانَ﴾ [الحجرات: ٩] للوجوب، لأن هذا حكم بين الخصمين، والقضاء بالحق واجب لأنه لحفظ حق المُحق، ولأن ترك قتال الباغية يجر إلى استرسالها في البغي وإضاعة حقوق المبغي عليها في الأنفس والأحوال والأغراض، والله لا يحب الفساد، ولأن ذلك يُجرىء غيرها على أن تأتي مثل صنيعها فمقاتلتها زجر لغيرها.

وهو وجوب كفاية ويتعين بتعيين الإمام جيشاً يوجهه لقتالها؛ إذ لا يجوز أن يلي قتال البغاة إلا الأئمة والخلفاء، فإذا اختل أمر الإمامة فليتولَّ قتال البغاة السوادُّ الأعظم من الأمة، وعلماءها.

فهذا الوجوب مطلق في الأحوال تقيده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا علم أن قتالها يجر إلى فتنة أشد من بغيها.

وقد تلبس الباغية من الطائفتين المتقاتلتين؛ فإن أسباب التقاتل قد تتولد من أمور لا يُؤرَبه بها في أول الأمر، ثم تثور الثائرة ويتجالد الفريقان فلا يُضبط أمرُ الباغي منهما، فالإصلاح بينهما يزيل اللبس، فإن امتنعت إحداهما تعين البغي في جانبها، لأن للإمام والقاضي أن يجبر على الصلح إذا خشي الفتنة ورأى بوارقها، وذلك بعد أن تُبين لكلتا الطائفتين شبهتها إن كانت لها شبهة، وتُزال بالحجة الواضحة والبراهين القاطعة، ومن ياب منهما فهو أعق وأظلم^(٢).

وجُعِلَ الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن

(١) التحرير والتنوير (٢٣٩/٢٦).

(٢) ينظر: المرجع السابق (٢٦/٢٤١).

الظلم، أي حتى تُقْلَع عن بغيتها^(١).

وفي قتال البُغاة أحكام وشرائع من مقتضى هذه الآية وعمومات آيات أخرى، وبمقتضى سنة النبي ﷺ، ومحلها كتب التفسير والفقه، وإنما المقصود هنا بيان حالة من الحالات التي نص القرآن الكريم على استخدام القوة فيها، وكل ذلك من أجل المصلحة، مصلحة الإنسان فردًا وجماعةً.

وختامًا، فإنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة أن تُؤمِّن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يُصدون عنها ولا يُفتنون كذلك بعد اعتناقها.

وأن تُرهِب أعداء هذا الدين فلا يفكرون في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة، بل لأن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها.

وأن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمة له وحده سبحانه.

إن الإسلام ليس نظامًا لاهوتيًا يتحقق بمجرد استقراره عقيدةً في القلوب، وتنظيمًا للشعائر، ثم تنتهي مهمته!

إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية، فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى وتقاوم المنهج الرباني.

(١) المرجع السابق (٢٦/٢٤٢).

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمع^(١) وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة، ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني، ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد!

إنه لا ينطلق بمنهج من صنّع البشر، ولا لتقرير سلطان زعيم أو دولة أو طبقة أو جنس، إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلّحوا مزارع الأشراف كالرومان، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية، ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية، إنما ينطلق من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعبيد.

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمعون للاعتذار عن المد الإسلامي، والجهاد الإسلامي^(٢) عبر التاريخ.



(١) الجمجمة: ألا تبين كلامك من غير عي. ينظر: العين (٦/ ٢٨).

(٢) ينظر: ظلال القرآن (٣/ ١٥٤٤).

و- العوامل الاجتماعية للنهضة في القرآن الكريم:

• العدالة الاجتماعية:

تحدثنا قريباً عن مفهوم العدل لغةً واصطلاحاً، عند الكلام عن مبدأ العدل والمساواة في العوامل السياسية للنهضة في القرآن الكريم.

أما العدالة: فمصدر العدل، وهو وصف به، فيقال: رجلٌ عدلٌ بينَ العدالة^(١).

والاجتماعية: نسبةً إلى المجتمع.

وقد اختلفت آراء المتناولين لهذا المفهوم من حيث الاصطلاح؛ لاختلاف تنزيله على القضايا المقصودة.

فُتُعرف العدالة الاجتماعية عند الاقتصاديين على أنها: نظام اقتصادي يعمل على إزالة الفروق الاقتصادية الكبيرة بين طبقات المجتمع.

وعند السياسيين بأنها: قيام الدولة بتوزيع الحقوق والواجبات بين الأفراد حسب كفاياتهم في حدود المصلحة العامة.

وعند القانونيين بأنها: عدم التقيّد بحرفيّة نصوص القانون العامّ، بل على مبادئ الإنصاف وقواعد العدالة الطليقة من القيود^(٢).

والعدالة الاجتماعية تركيب اصطلاحى حادث، لم يكن معروفاً من قبل، ومن خلال التعريفات السابقة، ومناقشات المهتمين بهذا المفهوم يمكن القول أن العدالة الاجتماعية هي: تطبيق العدل بإحسان.

فلا يُغلب جانب الجمود لحرفية النصوص في القضايا القانونية -مثلاً- ويُغفل عن روح مقاصدها، وهكذا في بقية المجالات.

والقرآن الكريم تناول قضية العدالة الاجتماعية من منظوره الكريم بطرق

(١) ينظر: لسان العرب (١١/٤٣٠).

(٢) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/١٤٦٨).

عديدة، منها:

١- الأمر بالعدل: وسبق أن تناولنا ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]: هذه الآية الكريمة أصل في العدالة الاجتماعية؛ فقد نصّت على صورٍ عديدة منها.

والعدل: إعطاء الحق إلى صاحبه، كما تقدم، وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات؛ إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ومأمور بالعدل في المعاملة مع الخلق من أصول المعاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن هذا تفرّعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق وأفضية، وشهادات، ومعاملة مع الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة، فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة فهي بإجمالها مناسبة لأحوال المسلمين، فيُصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية^(١).

٢- الأمر بالإحسان: كما في الآية السابقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٥).

وَالْإِحْسَنُ ﴿[النحل: ٩٠].

والإحسان: فعل النافع الملائم، فإذا فعل فعلاً نافعاً مؤلماً لا يكون محسناً، فلا تقول إذا ضربت رجلاً تأديباً: أحسنت إليه، ولا إذا جاريته في ملذات مضرة أحسنت إليه، وكذا إذا فعل فعلاً مضرّاً ملائماً لا يسمى محسناً^(١).

فالإحسان معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسن: ما كان محبوباً عند المعامل به، ولم يكن لازماً لفاعله.

ومن الإحسان أن يجازي المحسن إليه المحسن على إحسانه؛ إذ ليس الجزاء بواجب.

وإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلها في العائلة والصحبة.

والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]^(٢).

والتغاضي عن استحقاقات العدل، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَتَّيِّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُوَ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرُوكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]:

وكان مقتضى العدل الذي التزموه على أنفسهم أن لا يؤخذ غيره، ولذلك أجابهم بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾

[يوسف: ٧٩] مع أن نهاية تدبيره هذا كله كان من أعظم الإحسان لمن تأمل سير قصة يوسف عليه السلام.

٣- الدعوة للمعاملة بالفضل: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

(١) المرجع السابق (٢/٢١٦).

(٢) المرجع السابق (١٤/٢٥٦).

والفضل: التفضل، أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض ولا تستقصوا^(١).

وليس المراد منه النهي عن النسيان، لأن ذلك ليس في الوُسع، بل المراد منه الترك، والمعنى: ولا تتركوا الفضل والإفضال فيما بينكم^(٢)، فلا يُنسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب. وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينهم معاملة أو مخالطة^(٣).

٤ - شمولية التوزيع: فتلاحظ في آيات توزيع الصدقات شموليتها لأغلب الفئات التي يُتصوّر حاجتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وكذا في توزيع خمس الغنائم، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي توزيع الفيء، قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

(١) ينظر: الكشاف (٢٨٦/١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٤٨١/٦).

(٣) ينظر: تفسير السعدي (ص ١٠٥).

فَأَنْتَهُوْا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفٍ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ٧-١٠].

فشملت الآيات في توزيعه جميع الفئات، ولذلك قال الله ﷻ في مقدمتها:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

فيؤخذ من هذه الآية تفاصيل علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة وتعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل، على أن ذلك تومئ إليه الآية إيماء^(١).

وأشارت الآية إلى أن من مقاصد القرآن ألا تبقى الأموال متنقلة في جهة واحدة أو عائلة أو قبيلة من الأمة بل المقصد دورانها، فضمير ﴿يَكُونُ﴾ عائد إلى ما أفاء الله باعتبار كونه مالاً، أي: كيلا يكون المال دولة. والدولة: ما يتداوله الناس من المال، أي: شرعنا صرفه لمن سميناهم دون أن يكون لأهل الجيش حق فيه، لينال الفقراء منه حظوظهم فيصبحوا أغنياء فلا يكون مَدَالاً بين طائفة الأغنياء فقط، فمصارفه راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم العامة والخاصة، فإن ما هو الله وللرسول ﷺ إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله ﷺ.

وقد بدا من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١/٤٣).

الأمة الإسلامية على نظام مُحَكَّم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد، مثل: الموات، والفبيء، واللقطات، والركاز، أو كان جزءاً معيناً مثل: الزكاة، والكفارات، وتخميمس المغنم، والخراج، والمواريث^(١).
والقرآن مليء زاحر بصور الأمر والدعوة إلى العدالة الاجتماعية من منظوره الكريم، وفي الصور السابقة المتنوعة ما يفي غرضاً وتنويهاً.

• التكافل الاجتماعي؛

سبق في مرتكز البُعد التكافلي الإنساني تعريف مصطلح التكافل الاجتماعي، ومناقشة محورية التكافل الاجتماعي في القرآن الكريم، وبيان أسلوب القرآن في عرض مرتكز التكافل الاجتماعي.
والتكافل الاجتماعي كما هو مرتكز من مرتكزات القرآن الكريم في عرض عوامل النهضة، فهو كذلك من أهم عوامل النهضة الشاملة.

لذلك جعله القرآن قسيم الإيمان والعقائد، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقرن بين منع التكافل ونقصان الصلاة أو السهو عنها، مع أن الصلاة عبادة روحية، والتكافل عملية خارجية، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرْءَوْنَ﴾ [الماعون: ١-٦].

(١) المرجع السابق (٣/٤٥)، (٢٨/٨٥).

والماعون، أي الصدقة أو الزكاة، أو ما يتعاطاه الناس بينهم، من الفأس والقدر والدلو، وأشباه ذلك، فلا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه^(١). وحث على جعل التكافل الاجتماعي حالة مستمرة لا تنقطع، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧-١٨].

فهو أكثر من مجرد صدقة عابرة، بل إكرامٌ مستمرٌّ متكامل، معنوي ومادي. والآية تفيد الاستمرارية في الإكرام من وجهين: الأول: من دلالة اشتقاقات لفظة ﴿تُكْرِمُونَ﴾ الدالة على الكرم، والكرم لا يكون ألا من كريم، والكريم هو الكثيرُ الخير الجوادُ المُعْطِي الذي لا ينفد عطاؤه^(٢).

الثاني: من دلالة فعلية ﴿تُكْرِمُونَ﴾، فإنه أتى بها فعلاً هنا، والفعل يدل على الحدث والزمن والاستمرارية، بخلاف الاسم كما هو متقرر. والفعل المضارع بالذات أشد الأفعال دلالة على الاستمرارية.

فالإكرام حالةٌ زائدة عن مجرد الصدقة أو الإطعام مرةً أو مرات، ألا ترى أنه لما أراد أن يبين ذلك عبّر عنها بالاسم، وذكر لفظ الطعام لمناسبة هناك اقتضت ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٦] ولأنه نكّر اليوم هناك، واليتيم والمسكين، فالسياق يريد أن أي عملٍ مهما قلَّ وخفي فهو من مُعينات اقتحام عقبة يوم القيامة، وضرب لذلك أمثلةً بفك رقبةٍ أو إطعام يتيماً أو مسكين. والحقيقة أن آيات التكافل الاجتماعي في القرآن الكريم كثيرة جداً،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٩٥).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٢/ ٥١٠).

والحث والحض على التكافل أتى في القرآن الكريم بأساليب عديدة ومتنوعة، مما يجعل القرآن الكريم كتاب تكافل اجتماعي من الدرجة الأولى، فقد ورد الحث على الإنفاق والارتفاق باليتامى والمساكين وأبناء السبيل والفقراء والمساكين والغارمين والأسرى والأقارب وغيرها، وورد ذلك في عشرات الآيات في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

و﴿الْعَفْوَ﴾: هو ما فضل عن الأهل، وقيل: الوسط من غير تبذير ولا إسراف، وقيل: ما سمحت به النفس، وقيل غير ذلك^(١).

ويعالج حالة الإنفاق والتكافل الاجتماعي بسردية عظيمة تتخللها أحكام وإشارات بديعة في سورة البقرة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فهنا يضرب مثل التكافل الاجتماعي العائد على الشخص والمجتمع. ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وهنا يذكر بعض ثمار التكافل على الفرد والمجتمع كذلك. ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

[البقرة: ٢٦٣].

(١) ينظر: أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي (٢١٤/١).

وهنا يتلو بعض الآداب المهمة عند عمليات التكافل المؤقتة أو الدائمة،
فالحفاظ على كرامة الشخص وشعوره قيمة أعظم من الحفاظ على شِيعِهِ
وريّه، ف﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾، ثم ختم بقوله:
﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، وقد تعاقب هذان الاسمان الجليلان في
آية واحدة وموضع فردٍ في القرآن الكريم، ليختما نصًّا عظيمًا وقاعدةً إنسانية
بديعة!

إن المخلوق يتمعر وجهه، وتنفرط كلماته، ويغضبه سؤال شيء من ماله،
ولربما رد بجفاء، ولربما قال كلمة نابية، ولربما استحققر سائله، واستعرض
بماله أو حركته وإشارته أو بنبرة كلماته أو طريقة جوابه أو طريقة إعطائه... هذا
إن أعطى، وقد يجمع كل ذلك ولا يُعطي!

والحليم من الأغنياء يغفر للمحتاجين ما يصدر منهم حال سؤالهم
أو قبله أو بعده، فللمحتاج لوعةٌ ربما تخرجه عن اللباقة واللياقة، ولذلك
أوصاهم الله بالمغفرة هنا، وعدم آثارها في سورة الضحى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ
فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

وغالبًا فإن في كل غنيٍّ حمقًا، ويظهر لافتًا حين يُسأل، إلا الغني الحليم
سبحانه... يعطي ويعطي ويعطي ولا يزال غنيًّا ولا يزال حليمًا!

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا
كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦٥﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَاتَتْ أَكْطُلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصْبَحْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ

أَنْ تَكُونَ لَهُوً جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُوً فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿البقرة: ٢٦٤-٢٦٦﴾: وهي مواصلة للتنبيه على أهمية مراعاة آداب التكافل الاجتماعي، وضرب للأمثال في ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: فهذا ينص على شروط التكافل الاجتماعي؛ حتى تكون العملية حضارية، لا مجرد تخلص من الرديء الساقط.

وعندما يتحدث القرآن عن العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي -في النفقات خاصة- فهو لا يعني الفتات، أو ما عافته النفس وعابته، أو الذي بقي بلا مماثل لابتاع، أو كاد يفسد أو تنتهي صلاحيته، فيقال تخلصوا منه أو أعطوه لمحتاجيه!

بل إن عدالة القرآن سامية في كل شيء، فيدعو لها مما هو ﴿الْبَرِّ﴾ [آل عمران: ٩٢] بكل ما تحمله الكلمة من معاني الجودة، ولن تنالوه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وهنا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾: إنكم لن تأخذوه لو كنتم في الجهة المقابلة ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾: بسبب احتياجكم تغضون الطرف عن رداءته، بل إنه يدعو للإنفاق مما يحب صراحة: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]: أي حال كونهم يحبونه، وفي الأخرى يقول: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] هذا من حيث الكيف أما من حيث الكم

فما أدهشه وهو يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]:
أي ما زاد عن احتياجكم، وقد سبق الكلام عنها.

فكما يحب لك القرآن أن تكون مصاناً أنيقاً، فإنه كذلك يحثك أن تعامل الآخرين بالصيانة، وأن تحفظ لهم أنفتهم أو ما تبقى منها!

﴿انْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: فالإخراج من الطيبات دليل سخاوة نفسك، وحرصك لصيانة وجه من تعطيه فلا يشعر أنك أعطيته الفضل التالف لديك والساقط من نفسك!

إن القرآن يحرص على ذلك ويشدد عليه فيضرب له مثلاً غاية في الدلالة والتصوير، كما مرّ، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: تصوّر نفسك وأنت الآخذ لشيء رديء وأنت مضطر له! ستأخذه ونفسك مكسورة، وعينك مغمضة، وبدلاً من أن تشكر من أعطى قد تلعنه بقلبك!

ولقد يصل ببعضهم الأمر أنه حتى حين يهدي أو يهب يعطي الرديء والساقط، وكأنه يتخلص من شيء قذر لديه فيخرجه للآخرين!
القرآن لا يرى هؤلاء من الأسخياء العلية، ولم تتحقق فيهم البرية، لذا كان قانونه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

القرآن لا يهتم بإشباع البطون والحاجات فقط، بل يهتم قبلها بصون الوجوه وحفظ المكانات، وخلو جيب الرجل مع حاجته لا يعني خلوه من الكرامة والعفة.

ثم انتقل إلى ذكر أدب آخر من آداب التكافل الاجتماعي: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الْأَصْدَاقَ فَنِعِمَّا هِيَ ۚ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتَوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وتظهر قيمة هذا الأدب في تماسك المجتمع، فلا تنكسر عيون المكفولين

المحتاجين فتلزمهم الذلة، ولا يأنف ويتجبر الكافلون المنفقون، أو يرون لأنفسهم حقوقاً بسبب كفالاتهم.

ثم بين بعض مجالات التكافل الاجتماعي بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وبين أهمية ديمومة الإنفاق، وتعميم أحواله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وسرد جميع آيات التكافل الاجتماعي والكلام حول إشاراتها البديعة في قضية العدالة الاجتماعية يطول، وما ذكر ينبه على ذلك، ويدل عليه والحمد لله رب العالمين، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم إلا وهي تنبه على هذا المعنى العظيم أو تشير إليه أو تؤكد عليه، ذلك لأنه بممارسة التكافل الاجتماعي والتواصي به يظهر دليل حياة المجتمع وصلاحه وتماسكه.

• التعايش المجتمعي:

التعايش لغة: من العيش، والعين والياء والشين أصل صحيح يدل على حياة وبقاء. وعاش فلان عيشوشةً صالحة، وإنهم لمتعيشون، إذا كانت لهم بلغة من عيش. ورجل عائش: إذا كانت حاله حسنة^(١).

والتعايش من تفاعل، الذي يدل على الاشتراك، تقول: تعايش يتعايش، تعايشاً، فهو مُتعايش، وتعايش الجيران: عاشوا على المودة والعطاء وحسن الجوار، والتعايش السلمي بين الدول: الاتفاق بينها على عدم الاعتداء،

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ١٩٤).

وتعايش الناس: وُجِدوا في نفس الزمان والمكان^(١).

ومعناه الاصطلاحي لا يبعد عن معناه اللغوي؛ فهو اتفاق مجموعة من الناس الذين وُجِدوا في نفس الزمان والمكان على السلم والعطاء وحسن الجوار. ولا يُطلق التعايش إلا على مجموعة مختلفة في تصوراتها، دينيًا أو مذهبيًا أو غير ذلك.

والقرآن الكريم دعا للتعايش، بل وجعله مقصدًا من مقاصد جعل خلق الإنسان متنوع الأعراق، قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجُرَات: ١٣]: فجعلَ علةَ جعلِ الله الناسَ شعوبًا وقبائل وحكمته من هذا الجعل أن يتعارف الناس، أي يعرف بعضهم بعضًا.

والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجًا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها^(٢).

والتعارف هو أول أبجديات التعايش والطريق إليه، فإذا تعارف الناس ترتب على ذلك مجموعة من الحقوق والواجبات، إلا أن اختلاف أديانهم أو أفكارهم أو مذاهبهم قد يحول دون السلم الاجتماعي، فكان لا بد أن يتواصوا بالتعايش، وهذا ما فعله النبي ﷺ في العهد المدني، حين كان يوجد في المدينة عدة مجتمعات، ونتج عن ذلك وثيقة المدينة التي سبق الكلام عنها.

أما التعايش بين المسلمين فهذا فرض مأمور به، لا مناص عنه، فيجب

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/١٥٨٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/٢٥٩).

على المسلمين أن يهيئوا أسبابه، ويزيلوا كل عائق، بل وصفهم بوصف الإخوة ليرتب على ذلك استحقاقات الأخوة بينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]: فحال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة، وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة؛ مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين.

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين لأن شأن ﴿إِنَّمَا﴾ أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل منزلة ذلك، فلذلك كان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مفيداً أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر، وقد تقرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وهي سابقة في النزول على سورة الحجرات؛ فإنها معدودة الثانية والمائة وسورة الحجرات معدودة الثامنة والمائة من السور، وآخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار حين وروده المدينة وذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين، وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١): أي يحب للمسلم ما يحب لنفسه.

والآيات الكريمة والأحاديث النبوية المبيّنة في الحث على التعايش بين المسلمين كثيرة جداً، سواء مع الأهل أو الجيران أو الأصدقاء أو الأقارب أو المجتمع المسلم بعمومه.

وأما التعايش مع غير المسلمين، وهو المقصود هنا بالدرجة الأساس، فقد حث عليه القرآن الكريم، وجعله من دواعي البر والمعروف وحسن الخلق. من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ

(١) أخرجه: البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾
[الممتحنة: ٨].

فهذه الآية أصل في التعايش بين المسلمين وغيرهم بالبر والقسط، فتجري بذلك مجموعة من الحقوق لهم.

وذمة دين الإسلام تعين على المسلمين أن يبروهم بكل أمر لا يؤدي إلى أحد الأمرين:

أحدهما: ما يدل ظاهره على مودات القلوب.

وثانيهما: ما يدل ظاهره على تعظيم شعائر الكفر.

وذلك كالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفًا من المسلمين بهم لا خوفًا وتعظيمًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يُعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع عدوه؛ فإن ذلك من مكارم الأخلاق.

إلا أنه ينبغي أن يكون لا على وجه التعظيم لهم وتحقير المسلمين أنفسهم بذلك الصنيع لغيرهم بل امتثالاً لأمر الله ﷻ وأمر نبيه ﷺ^(١).

فالآية تحث على موجبات التعايش من البر والقسط، والعيش بسلام مع من كان من غير المسلمين بجوارهم أو معهم بعقد أو ذمة، أما المحاربين أو

(١) أنوار البروق (٣/ ٢٧).

المعادين فلا غير الحرب.

ومن موجبات التعايش الذي دعا له القرآن الكريم الجدل والحوار بين المسلمين وغيرهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَا وَاللَّهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فنهى تعالى عن مُجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن؛ بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق^(١).

وأمر بالعدل والإحسان إلى الجميع، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

والأمر عام بالعدل والإحسان إلى الجميع، وعدم الفحشاء والمنكر مع الجميع، فيدخل في ذلك المسلم وغير المسلم، وهذا من حسن الخلق والعشرة والتعايش.

وأمر بتأدية الأمانات إلى أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]: وشملت الآية الحكم بينهم بالحق، حتى ولو كان المقابل لهم من المسلمين، وقد قال الله تعالى أيضاً: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ

(١) تفسير السعدي (ص ٦٣٢).

يُضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: ﴿ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه.

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: من باب استعمال أفعال التفضيل ﴿أَقْرَبُ﴾ في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] (١): فلا يوجد في مقابلة الجنة ما هو خير مستقراً وأحسن مقيلاً ولو بدرجة أقل، وكذلك لا يوجد في جانب غير العدل ما هو أقرب للتقوى ولو بدرجة أقل.

والخلاصة: أن أبناء المجتمع هم بُنَاةُ النهضة، واليد العاملة، فهم من جهةِ العوامل، ومن جهةٍ أخرى هم الهدف، فهم من يصنعون النهضة، وهم مقصدها، ليعيشوا حياةً كريمة على هذه الأرض مقيمين لعهد الاستخلاف الذي حُمِّلوه. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاهتمام بالمجتمع، عدالةً، وتكافلاً، وتعايشاً، من أهم عوامل النهضة والإعمار والتحضُّر.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٦٢).

ز- العوامل الروحية للنهضة في القرآن الكريم:

• البناء الروحي والإيماني:

القرآن الكريم كتاب هداية شامل، يهدي للتي هي أقوم في شتى المجالات:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وهو كتاب الإنسان، كل الإنسان، يفصل شؤونه ويهديه للأقوم فيها، لذلك فقد أمحض التبيان للإنسان في كل احتياجاته.

وكما أن الإنسان مخلوق من روح وجسد، فالقرآن في بيانه يتناول هذه الحقيقة، ويبني في الإنسان مقوماته بشقيّه: الروحي والجسدي.

والبناء الروحي نسبة إلى الروح، والروح لغة: من الريح، وفي المقاييس: الرء والواو والحاء أصلٌ كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطِّراد، وأصل ذلك كله الريح. وأصل الياء في الريح الواو، وإنما قُلبت ياءً لكسرة ما قبلها. فالروح روح الإنسان، وإنما هو مشتق من الريح. والروح: نسيم الريح، ويقال أراح الإنسان إذا تنفس^(١).

والروح: يُطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلّت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنيئاً بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يوماً. وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢]: وهذا يسمى أيضاً بالنفس كقوله: ﴿يَأْتِيْتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]^(٢).

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٤٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٩٦).

ويُقصد بالبناء الروحي كل ما تناوله القرآن ومن شأنه زكاء الروح وتطهيرها، سواء من العقائد أو الأقوال والأعمال. وبهذا الإطلاق يكون القرآن كله كتاب بناءٍ روحي؛ لأن سلطان تأثيره على الروح الإنسانية ظاهر، لكن الذي نعني أدق من ذلك، وسيتضح ذلك قريباً.

والإيماني نسبة إلى الإيمان، وهو لغةً: من أَمَنَ وهو التصديق، فالهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق^(١) والإقرار^(٢).

واصطلاحاً: هو التصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئناناً ترى آثاره في سلوك الإنسان والتزامه بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه. وأن محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله وخاتم النبيين، وقبول جميع ما أخبر به ﷺ عن ربه ﷻ وعن دين الإسلام من الأمور الغيبية والأحكام الشرعية، وقبول جميع مفردات الدين، والانقياد له ﷺ بالطاعة المطلقة فيما أمر به، والكف عما نهى عنه ﷺ وزجر ظاهراً وباطناً، وإظهار الخضوع والطمأنينة لكل ذلك^(٣).

وقد سُئل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(٤).

فالإيمان وإن كان يشمل الأعمال والأقوال بحسب تعريفه الاصطلاحي إلا أنه أقرب إلى المعاني أكثر منه إلى الأعمال، بحسب تعريفه اللغوي.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ١٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩١).

(٣) الإيمان، عبد الله بن عبد الحميد الأثري (ص ٢٥).

(٤) أخرجه: البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

وهذا لا يعني القول بخلو الإيمان من الأعمال، بل المقصد بيان أن الإيمان معنًى روحي أكثر منه عملي، وهذا ما يجعله أعلى من مسمى الإسلام، لكن ثمرته العمل، وهو شرطه كذلك، ولذلك كان يُعَبَّرُ عنه بأنه: تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^(١). وقضية البناء الروحي والإيماني في القرآن الكريم قضية كبيرة ومتشعبة جدًّا، إذا ما استصحبنا عناصر الإيمان التي وردت في الحديث النبوي السابق، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقد جمع القرآن خمسةً منها في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فالإيمان بالله هو التصديق الجازم بوجوده وربوبيته وألوهيته وكمال أسمائه وصفاته، قال تعالى في بيان ربوبيته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى في بيان ألوهيته: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(١) ينظر: الإيمان، عبد الله بن عبد الحميد الأثري (ص ٢٦).

وقال تعالى في بيان كمال أسمائه وصفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

والإيمان بالملائكة: هو الإيمان بوجودهم إيماناً جازماً، وأنهم عباد مخلوقون، خلقهم الله تعالى من نور، وهم ذوات حقيقية، وليسوا قوى خفية، وهم خلق من خلق الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [ص: ٧١].

والملائكة خلقتهم عظمة، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك^(١)، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

والإيمان بالكتب: هو الإيمان الجازم بأن الله أنزل على رسله كتباً فيها أمره، ونهيه، ووعدته ووعيده، وما أَرَادَهُ اللهُ من خلقه، وفيها هدى ونور، قال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأُنْزِلَ

(١) ينظر: المرجع السابق (ص ١٣٢).

التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ [آل عمران: ٣-٤].

وأفضل هذه الكتب الذي تكفل الله بحفظه وصيانتها من التحريف والتزوير هو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
والإيمان باليوم الآخر: وهو الاعتقاد الجازم والتصديق الكامل بيوم القيامة، والإيمان بكل ما أخبر به الله ورسوله عنه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].
وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

والإيمان بالقدر خيره وشره: وهو الاعتقاد الجازم أن كل خير وشر يكون بقضاء الله وقدره، وأن الله فعّال لما يريد، فكل شيء بإرادته ولا يخرج عن مشيئته وتدبيره، وعلم كل ما كان وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وقدّر المقادير للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته، وعلم أحوال عباده، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وغير ذلك من شؤونهم، فكل مُحَدَّث صادر عن علمه وقدرته وإرادته^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].
وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].
والقرآن الكريم قد طرق عناصر الإيمان هذه في عشرات، بل مئات المواضع منه؛ وذلك لأهمية الإيمان وإشباع الجانب الروحي في الإنسان،

(١) المرجع السابق (١٥٩).

ولأن الإيمان الصحيح المتسق مع شريعة الله تعالى وما أنزله على رسله هو المحرك الأساس للبناء الدنيوي ومصالح المعاش واستصلاح الأرض، ثم الخلود في النعيم في الآخرة.

ويدخل تحت هذه العناصر الرئيسة مصفوفة كبيرة من المفاهيم العلمية والعملية، تشكل بمجموعها ثراءً روحياً يبعث على العمل والجد. والإيمان هو الجانب الآخر المهم للنهضة، فلا يمكن أن تتحقق نهضة متكاملة شاملة إلا بشقيها: المادي أو العملي، والشق الروحي أو الإيماني وهو المستمد من الوحي، وقد ناقشنا هذا المفهوم سابقاً.

والحضارة الغربية والأوروبية على وجه التحديد - إذ هي المقصودة عند المقارنة - فاقدة لجانب الإيمان أو للجانب الروحي، وقطعت صلتها به، لذلك يعيش الفرد كآلة، يعمل وينتج ثم يتوقف، بلا غذاء روحي أو مفهوم إيماني يحفز من جهة ويخفف الضغوط الحياتية من جهة أخرى.

ثم إن الجانب الروحي الإيماني عاملٌ مهم في تحريك بقية عوامل النهضة، فهو المحفز والمحرك في السعي لتحقيقها، كعوامل العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي بل وحتى عوامل القوة العسكرية والتعليم، وغيرها.

• أسلوب القرآن الكريم في بناء العوامل الروحية؛

تحدث القرآن الكريم بإثراء في جانب البناء الروحي الإيماني وتنميته وتركيته، وقد اتخذ في ذلك أساليب متعددة، منها:

الأول: ربط الزكاء الروحي بالعمل الظاهر، وهو عمل الصالحات مطلقاً، فلذلك كثيراً ما يقرن الإيمان والعمل الصالح في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[البقرة: ٨٢].

وهذا الربط كثير في القرآن الكريم، في عشرات المواضع، وهو دليل كبير على أهمية الجانبين، العمل الباطني وهو عمل الروح والإيمان في القلب والنفس، والعمل الظاهري وهو عمل الجوارح.

ثم رتب على هذا الاقتران مجموعة كبيرة من الآثار والنتائج:

منها: الجنة والموعود الآخروي بما فيه من طيبات، كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

ومنها: استحقاق الخلود في تلك الطيبات، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

ومنها: الحفاظ من الخوف والحزن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

ومنها: توفية الأجور كاملة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وهي شاملة لأجور الإيمان والعمل، وشاملة لأجور الدنيا والآخرة، فمن عمل في الدنيا وجد لقاء ذلك سعادة ونهضة وعمران، ثم يكون منقلبه إلى ما هو خير وأبقى.

ومنها: المغفرة عن التقصير، فكل سعي وعمل إذا ما اقترن به التصديق والإيمان، فلا بد أن يعتريه الخلل والنقص، وقد ضمن الله تعالى المغفرة لمن سعى في تحقيق الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

ومنها: التيسير واللفظ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

فجمله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ معترضة، على طريقة الإدماج. وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين، لأنه لما بشرهم بالجنة على فعل الصالحات أطمئن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصالحة بما يخرج عن الطاقة، حتى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنة، بل إنما يُطلبون منها بما في وسعهم، فإن ذلك يُرضي ربهم^(١).

ومنها: الهداية التامة في الدنيا والآخرة؛ هداية إلى خير العمل والبذل والبناء والإصلاح في الأرض، ثم هداية إلى جزاء العمل الصالح في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

والهداية: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه. فمعنى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يرشدهم إلى ما فيه خيرهم.

والمقصود الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها، وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

والباء في: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ للسببية، بحيث إن الإيمان يكون سبباً في مضمون الخبر وهو الهداية، فتكون الباء لتأكيد السببية في تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى؛ بأن يجعل الله للإيمان نوراً يوضع في عقل المؤمن ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سبباً

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٣٠).

مغناطيسيًّا لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمال لا يزال يزداد يومًا فيومًا، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح.

والإتيان بالمضارع: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ للدلالة على أن هذه الهداية لا تزال متكررة متجددة^(١).

ومنها: الحياة السعيدة الطيبة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

و﴿طُوبَىٰ﴾: أي فرحًا وخيرًا وقُرة عين لهم^(٢).

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]: أي لنجعلن له حياة طيبة. والطيب: ما يطيب ويحسن. وضد الطيب: الخبيث والسيئ. وهذا وعد بخيرات الدنيا، وأعظمها الرضا بما قسم لهم، وحسن أملهم بالعاقبة والصحة والعافية وعزة الإسلام في نفوسهم، وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عباده المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم^(٣).

ومنها: عدم إضاعة أعمالهم، ووصفها بالحسن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ومنها: الود والمحبة التي تمتلئ بها القلوب لهم، وهذا مُعين لهم على إصلاحهم وسعيهم في النهضة والبناء قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

(١) المرجع السابق (١١/١٠٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٥٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/٢٧٣).

فأخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية، يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه^(١).

ومنها: عدم وقوعهم في الظلم والبغي غالباً، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]: لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم^(٢).

ومنها: عدم تسويتهم بالمفسدين من كل وجه، لا في البدايات ولا في النتائج والنهايات، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ وَمَمَّا تَهُمُّ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ومنها: جعلهم في مقابلة الأعمى، وغيرهم في مقابلة البصير، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

فالذين آمن وعمل الصالحات كالْبصير، والمسيء كالْأعمى، ولا سواء. إلى غير ذلك من آثار هذا الربط والاقتران بين الإيمان والعمل الصالح. الثاني: ربط الإيمان والعمل الصالح بقضية الحق والصبر، والتواصي بهما، والعمل لتحقيقهما على الأرض، وبيان أن الخسران في الدنيا والآخرة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٥).

(٢) تفسير السعدي (ص ٧١١).

ناتج عن التخلف في تحقيقها، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

ففي هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدنا الإسلام، وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة.

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها: أنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناجح، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه - وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار - إنه الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. والإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود، ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه، والانطلاق حينئذٍ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير، ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الأبد التي لا يعلمها إلا الله.

وفضلاً عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعاً بالوجود وما فيه من جمال، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه، فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مُقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان... وهي سعادة رفيعة، وفرح نفيس، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب، وهو كسب لا يعدله كسب، وفقدانه خسران لا يعدله خسران.

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة، وهي:

١- التعبد لإله واحد، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد، فلا يذل لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار... ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان، والانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود، إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد، فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً، لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد.

٢- الربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصورات وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، وكل ما يربطه بالله، أو بالوجود، أو بالناس، فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلها الشريعة والعدالة، وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمّده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة، ولو كان فرداً واحداً؛ لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام.

٣- وضوح الصلة بين الخالق والمخلوق، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتها الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا وساطة في الطريق، ويودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة، وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء!

٤- الاستقامة على المنهج الذي يريده الله، فلا يكون الخير فلتة عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة، إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف

الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة، كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين.

٥- الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله، مما يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويشير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها، وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه... أنه كريم عند الله، وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملاء الأعلى هو تصور أو مذهب يدعو إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة!

ومن هنا كانت إحياءات الدارونية^(١) والفرويدية^(٢) والماركسية^(٣) هي أبشع ما تُبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني، فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع، ليس فيه ما يستغرب، ومن ثم ليس فيه ما يُخجل، وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء!

(١) حركة فكرية تنتسب إلى الباحث الإنجليزي شارلز داروين، الذي نشر كتابه (أصل الأنواع) سنة ١٨٥٩م، وطرح فيه نظريته في النشوء والارتقاء، معتبراً أن أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين، وقد تطورت هذه الخلية ومرت بمراحل منها مرحلة القرد، انتهاء بالإنسان، وهو بذلك ينسف الفكرة الدينية التي تجعل الإنسان منتسباً إلى آدم وحواء ابتداء، مما زعزع القيم الدينية، وترك آثاراً سلبية على الفكر العالمي. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (٢/ ٩٢٥).

(٢) مدرسة في التحليل النفسي أسسها اليهودي سيجموند فرويد، وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيراً جنسياً، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء، كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي مما يورث الإنسان عقداً وأمراضاً نفسية. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (٢/ ٨٨٢).

(٣) مذهب فكري يقوم على الإلحاد، وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي، ظهر في ألمانيا، على يد كارل ماركس اليهودي الألماني ١٨١٨ - ١٨٨٣م، ويُسمَّى الشيوعي، تجسد في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود، وتوسع بالحديد والنار، وقد تضرر المسلمون من هذا الفكر الشيوعي الماركسي كثيراً. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (٢/ ٩١٩).

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله تعالى، ثم برقابة الله على الضمائر وإطلاعه على السرائر، وإن الإنسان السوي ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره. والمؤمن يحس وقع نظر الله سبحانه في أطواء حسّه إحساسًا يرتعش له ويهتز، فأولى أن يطهر حسّه هذا وينظفه.

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بآله عادل رحيم عفو كريم ودود حلیم، يكره الشر ويحب الخير. ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

٦- التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة، وما تثيره في حسّ المؤمن من يقظة وحساسية، ومن رزانة وتدبر، وهي ليست تبعة فردية فحسب، إنما هي كذلك تبعة جماعية، وتبعة تجاه الخير في ذاته، وإزاء البشرية جميعًا... أمام الله، وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله، فيكبر في عين نفسه، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله، إنه كائن له قيمة في الوجود، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود.

٧- الارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا، وهو بعض إحياءات الإيمان واختيار ما عند الله، وهو خير وأبقى، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف، يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن بين: الدنيا والآخرة، والأرض والملا الأعلى، مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة، فهو يفعل الخير لأنه الخير، ولأن الله يريد، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيرًا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود، فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت سبحانه، ولا ينسى، ولا يغفل شيئًا من عمله، والأرض ليست دار جزاء، والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، ومن ثم يستمد القدرة على

مواصلة الخير من هذا ينبوع الذي لا ينضب، وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجاً موصولاً، لا دفعة طارئة، ولا فلتة مقطوعة، وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر، سواء تمثل في طغيان طاغية، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته، هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير، وشهود انتصار الحق على الباطل، والإيمان يعالج هذا الشعور علاجاً أساسياً كاملاً.

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف، وإلا فهي ثمرة شيطانية، وليس لها امتداد أو دوام!

وهو -الإيمان- المحور الذي تُشدُّ إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة، وإلا فهي مفلّتة لا تمسك بشيء، ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات.

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم.

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج، والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة، جاء في سورة إبراهيم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وجاء في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود، وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة تزرد الأمور كلها إلى الله، فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه.

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله، فهو يعيش في هذا الكون، وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب، ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان؛ بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق، فإذا فُقد هذا التجاوب أو تعطل، كان هذا بذاته دليلاً على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى، وهو هذا الكيان الإنساني، وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران، ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح.

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شقية خاسرة أي خسران!

والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب.

فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح، هذا هو الإيمان الإسلامي، لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن، فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها، فهو ينبعث منها انبعاثاً طبعياً، وإلا فهو غير موجود!

ومن هنا تأتي قيمة الإيمان، إنه حركة عمل وبناء وتعمير، يتجه إلى الله، إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة.

وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني، وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود، صادرة عن تدبير، متجهة إلى غاية، وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود، الحركة الخيرة، النظيفة، البانية، المعمرة، اللاتقة بمنهج يصدر عن الله.

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلاله صورة الأمة المسلمة التي تعرف حقيقة ما هي مُقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح، فتواصي فيما بينها بما يُعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.

فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة المتضامّة المتضامنة، الأمة الخيرة، الواعية، القيّمة في الأرض على الحق والعدل والخير، وهي أعلى وأنصح صورة للأمة المختارة، وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام، هكذا يريد أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتأخٍ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن.

والتواصي بالحق ضرورة؛ فالنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين...

والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة

في العبء والأمانة، فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتضاعف، تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة؛ فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر، لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل وتنفج^(١) الشر، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعد النهاية!

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة؛ بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وترؤدهم بالحب والعزم والإصرار^(٢).
والخُسران: خُسران الفرد، والمجتمع، والأمة، خُسران الأرض وخسران الآخرة، هو التنكب عن طريق الإيمان والعمل الصالح، عن طريق الحق والصبر عليه والتواصي بهما.

الثالث: من أساليب القرآن الكريم في بناء الجانب الروحي والإيماني ربط الإيمان بالنظر والاستدلال والتفكير، وإعمال العقل والبصر والبصيرة للنظر في آيات الله تعالى وما بثه في الأرض، ولذلك ختم بيان كثير من الآيات بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ أَنْظَرُوا إِلَىٰ

(١) كل ما ارتفع: فقد نفج، وانتفج، وتنفج. ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (٧/ ٤٥٥).

(٢) التعليق على هذه السورة المباركة، سورة العصر، مأخوذ بتصرف من ظلال القرآن (٦/ ٣٩٦٤).

ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩].
 وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].
 وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَّ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].
 وقول الحق تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

فالذي يستفيد من هذه الآيات ومدلولاتها في الحياة والنفس، ويسخرها ليقيم معاشه ويقوم بمهمته في إصلاح الأرض، إنما هو الإنسان الذي حقق الإيمان.

الرابع: التذكير بمبدأ الأمر، وسبب أصل الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فهذه هي الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العباداة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم^(١).

وإدراك هذه الغاية يبعث في القلب مكامن الحب والخوف والرجاء، وهي من أهم العوامل الروحية والإيمانية التي بها يتجه المؤمن إلى ربه، وتهون عليه متاعب الدنيا، فيستقبل أمر ربه وشرعه برحابة صدر، وحب واطمئنان.

الخامس: تشريع العبادات، وهي التي تهذب النفس وترتقي بالروح

(١) تفسير السعدي (ص ٨١٣).

وتزكيتها، وترفع المنسوب الإيماني، قال تعالى عن الصلاة والقرآن: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وعن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وجمع العبادات كلها في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وينعكس أثر العبادات على القلب والنفس والحياة، فقد قال الله عن عبادة الصلاة وتلاوة القرآن: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

السادس: الربط بين الدنيا والآخرة ومقارنتهما، وهو ما يترك في النفس أثراً بالغاً، قال تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَآ مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

السابع: تذكير النفس برجوعها إلى الآخرة، فتهدب من سلوكها، وترتقي في درجات التزكية، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

الثامن: تحفيز النفس على الزكاء الروحي بذكر فلاحها، وتخويفها من عكسه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۙ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]: أي أفلح من زكّى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي.

والتزكية: الزيادة من الخير. ومعنى: ﴿دَسَّاهَا﴾ حال بينها وبين فعل الخير. والفلاح: النجاح بحصول المطلوب، والخيبة ضده، أي أن يحرم مما طلبه. فالإنسان يرغب في الملائم النافع، فمن الناس من يطلب ما به النفع والكمال الدائم، ومن الناس من يطلب ما فيه عاجل النفع والكمال الزائف، فالأول قد نجح فيما طلبه فهو مفلح، والثاني يُحَصِّل نفعًا عارضًا زائلًا وكما لا مؤقتًا ينقلب انحطاطًا، فذلك لم ينجح فيما طلبه فهو خائب، وقد عبر عن ذلك هنا بالفلاح والخيبة كما عبر عنه في مواضع آخر بالربح والخسارة^(١).

التاسع: بيان أهمية محاسبة النفس، والدعوة إليه؛ حتى تصلح من شأنها، وترتفع بمستواها في الأداء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَإِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

ووصف ﴿اللَّوَّامَةَ﴾ بمبالغة؛ لأنها تكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة، وهذا اللوم هو المعبر عنه في الاصطلاح بالمحاسبة، ولومها

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧١).

يكون بتفكيرها وحديثها النفسي، والمراد اللوامة في الدنيا لوماً تنشأ عنه التوبة والتقوى^(١).

العاشر: التنبيه على شمولية البناء الروحي الإيماني، ولذلك وصف الله المؤمنين المجاهدين بأوصاف عظيمة جليلة، تشير إلى أهمية شمولية أعمال التزكية وتنوعها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم وصفهم فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]: فهذه أوصاف للمؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فكان أصلها الجر، ولكنها قطعت عن الوصفية وجعلت أخباراً لمبتدأ محذوف تقديره (هم)؛ اهتماماً بهذه النعوت، اهتماماً أخرجها عن الوصفية إلى الخبرية، ويسمى هذا الاستعمال نعماً مقطوعاً. فـ﴿التَّائِبُونَ﴾: مراد منه أنهم مفارقون للذنوب سواء كان ذلك من غير اقتراف ذنب يقتضي التوبة، أم كان بعد اقترافه.

و﴿الْعَبِدُونَ﴾: المؤدنون لما أوجب الله عليهم.

و﴿الْحَمِيدُونَ﴾: المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم، الشاكرون له.

و﴿السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ﴾: مشتق من السياحة، وهي السير في الأرض،

والمراد به سير خاص محمود شرعاً. وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتنال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر أو السفر للحج أو السفر للجهاد.

(١) المرجع السابق (٢٩/٣٣٩).

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾: هم الجامعون بينهما، أي: المصلون؛ إذ الصلاة المفروضة لا تخلو من الركوع والسجود.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: الذين يدعون الناس إلى الهدى والرشاد وينهونهم عما ينكره الشرع ويأباه.

وأما ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾: فهي صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية عند توجهها، والحفظ: ملازمة العمل بما يؤمر به على نحو ما أمر به، أي والحافظون لما عيّن الله لهم، أي غير المضيعين لشيء من حدود الله^(١).

هذه أوصاف شاملة، إما على وجه الجمع لأنهم متصفون بهذه الأوصاف على كل حال، أو على وجه الحالة؛ ففي حالة الذنب تائبون، وفي حالة السفر سائحون، وفي حالة التمكين حافظون لحدود الله، وفي حالة العبادة راكعون ساجدون، وفي حال معاشهم حامدون، وفي كل شؤونهم عابدون، وفي سعيهم في الأرض وطريق إصلاحهم أمرون بالمعروف ناهون عن المنكر. والأمر ليس مجرد ذكرٍ للنعوت والأوصاف، بل هو دعوة للاتصاف بها، والسعي في تحصيلها.

فهذه عشرة أساليب من أساليب القرآن في بناء العوامل الروحية الإيمانية، وفي القرآن كثير غيرها، لكن هذا ما اقتضته الإشارة.

والخلاصة: أن الإنسان مخلوق من روح وجسد، ولكل قسم منها غذاؤه، وإذا لم تتغذَّ الروح فإنها تموت في متاهات الضلال والضيايق قبل موتها الحقيقي، وإن كانت الروح ضالة ضائعة فكيف تهدي للخير وتسعى في تحصيله، وكيف تعمر وتبني الأرض وفق مراد الله الذي استخلفها، بل كيف تتلقى أوامر القرآن الكريم وتوجيهاته؟!

(١) ينظر: المرجع السابق (١١/٤٠).



إن الروح المؤمنة الزكية الطيبة هي التي استجابت لدعوة الله ﷻ في كتابه لإصلاح الحياة وتعبيدها لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]: وهذا يعني تعمير الأرض بشرعه ومنهجه ودينه وتوحيده.

ح- العوامل الأخلاقية للنهضة في القرآن الكريم:

• البناء الأخلاقي في القرآن الكريم:

الأخلاق لغةً: جمع خُلُق، والخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملاسة الشيء^(١). والخُلُق، بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة -وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها- بمنزلة الخُلُق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها^(٢).

والأخلاق في الاصطلاح لها تعريفات كثيرة، منها: أنها عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سُميت الهيئة: خُلُقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة: خُلُقاً سيئاً... وليس الخُلُق عبارة عن الفعل؛ فرب شخص خُلِقه السخاء ولا يبذل؛ إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خُلِقه البخل وهو يبذل؛ لباعث أو رياء^(٣). ويتضح من هذا التعريف أن النية والقصد عامل مؤثر في حقيقة الأخلاق، ولعله إنما يكون مؤثراً لنيل ثواب الأخلاق، أما من حيث الوصف بها فيتصف بها الفاعل حتى ولو لم يقصد.

وقيل: كل خصلة أمر بها أو نُهي عنها مطلقاً من غير تحديد ولا تقدير؛ فليس الأمر أو النهي فيها على وزانٍ واحد في كل فرد من أفرادها، كالعدل، والإحسان، والوفاء بالعهد، وأخذ العفو^(٤)، فهي من الأخلاق.

وليس الخُلُق النبيل في القرآن عبارة عن السلوك الذي ينسجم مع ما

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/٢١٣).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٠/٨٦).

(٣) التعريفات (١٠١).

(٤) الموافقات (٣/٣٩٣).

تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية والخُلُقِيَّة المستحسنة، كما هي النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم في مقوّمات الفضيلة والأخلاق.

وإنما الأخلاق والفضيلة في القرآن: مجموعة الاعتبارات والمناهج السلوكية التي تتلاءم مع الفطرة الإنسانية الصافية من جانب وتساعد في إرساء قواعد السعادة الإنسانية للفرد والجماعة من جانب آخر.

ومن ثم فانت لا تجد في هذه المناهج السلوكية قابلية للاختلاف والتغير ما بين بيئة وأخرى، لأنها لم تنشأ من أعراف بيئة، ولكنها انبثقت عن الفطرة الإنسانية الشاملة^(١).

والقرآن الكريم قد وضع مبادئ عظيمة في الأخلاق، تُمثّل أصول التعامل الإنساني، منها:

أولاً: اعتبار الناس كلهم، مهما اختلفت أعراقهم وأنسابهم وبيئاتهم، في مستوى واحد من الكرامة والحرية الإنسانية، ولا يتفاضلون بعد ذلك إلا بما يحزره كلٌّ منهم من السبق بسعيه الخاص في ميدان الجهد الإنساني المفيد المشرف، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجُرَات: ١٣]^(٢).

ولو تأملت لوجدت هذا النص العظيم في تقرير هذا التساوي ومعايير التفاضل قد جاء بعد مجموعة من الأخلاق التفصيلية في سورة الحجرات، وقد تحدثنا سابقاً عنها.

(١) من روائع القرآن، محمد البوطي (ص ٢٢٠).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

ثانيًا: تحديد أهمية الأخلاق باختلاف مسافة القرب والبعد من الشخص، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقد تحدثنا سابقًا في تعريفات هذه المسميات، لكن المقصد أن القرآن الكريم يربتها حسب الأولوية؛ لاعتبارات اجتماعية وحقوقية.

ثالثًا: يهتم القرآن الكريم جدًّا لقضية الأخلاق مع الوالدين، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، وغيرها من النصوص في بيان ذلك.

وذلك باعتبارهم سبب الوجود، وللعاطفة الكبيرة التي عطفوا بها على أولادهم، فكان الخلق معهم أهمَّ خلق وأوجه.

رابعًا: ينبه القرآن على أهمية الخلق مع المجتمع المماثل الموافق لتطوير القدرات، وانسجام المجتمع وتفاهمه، والمقابلة بالمثل، وتخلية المجتمع من أمراض النفوس، قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن بلغ في الأخلاق مقام خفض الجناح والرحمة والسكون والذلة، وهو لين الجانب والتواضع، وتوطئة الكنف، وشدة الرحمة والسعي للنفع، مَنْ بلغ ذلك كله فهو لما سواها من الأخلاق الحميدة أبلغ، بل لن يصل لهذه الأخلاق الكبيرة حتى يكون قد التزم ما دونها.

خامساً: القرآن ينبه على أن الأخلاق مبدأ إنساني عام، لا يختص بقوم دون قوم، ولذلك ينبه على أهمية الأخلاق حتى مع المخالفين في الدين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
ولذلك كانت حوارات الأنبياء مع أقوامهم في منتهى الأخلاق الرفيعة، حتى إنهم لم يردُّوا على بعض تجاوزاتهم، فحين قال قوم عاد لنبيهم: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، اكتفى بقوله في الرد عليهم: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].

وهكذا في تجاوزات أقوام الأنبياء الآخرين، فكانوا يردون بالحسنى، والأخلاق العظيمة.

سادساً: القرآن ينص على قواعد أخلاقية كلية، تدرج تحتها مجموعة كبيرة من الأخلاق، فمن تلك القواعد:

القاعدة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].
القاعدة الثانية: قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

القاعدة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

القاعدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

القاعدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

القاعدة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

القاعدة السابعة: قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴿[الأعراف: ١٩٩].

القاعدة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾
[القصص: ٥٥].

القاعدة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾
[الفرقان: ٦٣].

القاعدة العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].
القاعدة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].
القاعدة الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

القاعدة الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنِ بَعْضٍ﴾
[التحریم: ٣].

القاعدة الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

القاعدة الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الباقية: ١٤].

القاعدة السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

القاعدة السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

القاعدة الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾
[الإسراء: ٣٦].

القاعدة التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فهذه تسع عشرة قاعدة أخلاقية قرآنية، ولو تتبعنا القواعد الكلية الأخلاقية في القرآن لطالت، أما تتبع الأخلاق الجزئية التي دعا لها القرآن الكريم فهو أشق؛ إذ يكاد القرآن كله أن يكون نصوص أخلاق في كل حَدِّ ومَعَ كلِّ أحدٍ، مخالف أو موافق، ويكفي أن أشرنا لهذه القواعد الكلية بدون تعليق عليها أو شرح؛ لأن ذلك ليس مقصودًا، فالقواعد من حيث دلالاتها واضحة، وأيضًا يطول بشرحها الكتاب، ولكن من المهم التنبيه على أن كل قاعدة منها يندرج تحتها المئات من القضايا الأخلاقية الجزئية الحياتية.

أسلوب القرآن الكريم في بناء الأخلاق:

القرآن الكريم يتخذ أساليب كثيرة في طرق قضايا الأخلاق العامة، ومن تلك الأساليب:

أولاً: ذكر القواعد الكلية للأخلاق العامة، كما مرَّ معنا فيما سبق.

ثانيًا: الأمر الصريح بالأخلاق الحسنة، كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ثالثًا: النهي الصريح عن الأخلاق السيئة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١].

رابعًا: الترغيب على الأخلاق الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

خامسًا: التنبيه على الأخلاق في أوقات مظان احتياجها، كالتنبيه على الصبر إثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

سادسًا: مراعاة الفروق الفردية، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

سابعًا: مراعاة الفروق الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَأُمِّرَ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ثامنًا: التنبيه على أهمية الوصف الحسن لفاعل الأخلاق الحسنة، والوصف السيئ لمن يفعل الأخلاق السيئة، قال تعالى: ﴿يَبْئَسُ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]: وهذا الجزء من الآيات جاء بعد النهي عن مجموعة من الأخلاق السيئة في سورة الحجرات.

تاسعًا: الدلالة على أهمية الأخلاق بتشريع طلبها من الله بالدعاء، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

عاشرًا: ربط الأخلاق الحسنة بقضية الإيمان والجزاء، كقوله تعالى في نهاية آية النهي عن خُلُقِ السخرية والتنازع بالألقاب: ﴿يَبْئَسُ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وكقوله في ختم آية النهي عن خُلُقِ سوء الظن والتجسس: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وبعد، فإن القرآن الكريم وهو بيني الأخلاق ويرسي قواعدها ويفصل في جزئياتها لئيبه ويشير إلى أهميتها في البناء النهضوي العمراني، وفي صلاح الأرض واستقامة أهلها.

فبالأخلاق بمفهومها الواسع يستقر المجتمع ويتضامن ويتواد ويتآلف، وبعكسها يكون التدابر والفجور والتباغض، وكيف يستقيم البناء المجتمعي والبناء في تدابرٍ، ساءت أخلاقهم وتقطعت أواصرهم؟!!



وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

والنهضة التي لا تحكمها الأخلاق آيلة للسقوط لا محالة؛ فالفرد بدون أخلاق مسخّ، والأسرة بدون أخلاق ضياع، والمجتمع بدون أخلاق شتات، وهذه لبنات النهضة، فكيف تُشأّد بدونها؟!

ولا تتردد في هذا بسبب ما تراه من نهضة غربية أوروبية؛ فإنها ليست نهضة شاملة، بل في بعض تفاصيل الحياة فقط، أما من حيث القيم الإنسانية فلا. كيف وهي بُنيت على أنقاض مجتمعات كاملة، كما هو الحال في إبادة الأمريكيين للهنود الحمر، سكان القارة الأمريكية الأصليين^(١)، كما هو معلوم. أو بنت نهضتها على نهب ثروات دول أخرى، كما تفعل أكثر دول أوروبا والغرب في نهب ثروات دول مستعمراتها السابقة الأفريقية وغيرها. كيف تكون نهضة شاملة، والأسرة مفككة، والجريمة الأخلاقية مقنّنة ومحمية؟!

هذه ليست نهضة وفق معايير النهضة وتعريفاتها التي كتبها حتى مفكرو أوروبا والغرب كما مرّ.

إن النهضة روح ومادة، قيمٌ وواقع، مضمونٌ وشكل، وإلا فهي عملية نفوذ سلطوي، وسلطة ثقافة غالبة، وزخرفة من القول والفعل، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

(١) يُنظر كتاب: أمريكا والإبادات الجماعية، منير العكش، رياض الريس للكتب والنشر، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

خَتَامًا

بعد العرض السابق لَكُنْهِ النُّهْضَةِ ومرتكَزَاتِهَا وأهم عواملها من خلال القرآن الكريم، يبقى القول أن القرآن الكريم مليء ببيان ذلك، فهو كتاب نهضة شاملة يهدي للتي هي أقوم في كل شيء.

ولا تكاد تمر على سورة فيه إلا وهي تنبه أو تشير إلى مرتكَز أو عامل من عوامل النُّهْضَةِ، بل إن ثمة سورًا نبهت على عوامل كثيرة، بالصريح أو الإيماء والإشارة، كسورة البلد مثلاً.

فإن هذه السورة قد ضُمَّتْ أهمَّ القوانين العريضة والعوامل المؤثرة لصلاح وعمران ونهضة كل بلد... أي بلد، فمن ذلك أنها نبهت على العوامل التي ناقشنا أهمها في هذا الكتاب، ومنها:

❦ الاهتمام بالنسل وتحفيز المجتمع على الانتاج البشري، فالعامل البشري من أهم ما يبني البلدان ويساعد في عمرانها: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد: ٣].

❦ تحمُّلُ العناء في بداية نقلة المجتمع وبناء نظامه وبنائه وبنيتِه التحتية، ثم مشاق الاستمرار في هذا النظام العام والملزم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

❦ عدم التمييز أمام النظام والقانون، فالجميع سواسية، والقانون فوق الجميع، وقادرٌ بسلطته التنفيذية على إمضاء أحكامه: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥].

❦ عدم هدر الثروة والمال، سلطةً أو أفرادًا: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: ٦].

❦ تفعيل الرقابة القانونية والمجتمعية كذلك: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧].

☞ تفعيل الرقابة الاستخباراتية والأمنية: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨].

☞ تفعيل الرقابة الإعلامية والحقوقية ومنظمات المجتمع الرديفة للنظام:

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٩].

☞ تفعيل التعليم الرسمي والتثقيف المجتمعي، وإيجاد بيئة علمية متزنة

وواضحة الأهداف: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

☞ العدالة الاجتماعية، وتبدأ بتحرير العبيد، فالحرية أكبر قيمة من كل

شيء، وليكون الجميع سواسية: ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾ [البلد: ١٣].

☞ التكافل الاجتماعي، ويبدأ من المحيط الأقرب: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي

مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥]، ثم تتوسع دائرة التكافل لتشمل

كل فرد: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

وهذه الأسس السابقة تبني أي مجتمع، مسلم أو كافر، وتسير البلدان، مؤمنة

أو جاحدة.

ثم تحدثت السورة عن الأساس الذي يميز البلدان المسلمة المؤمنة

عن غيرها: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾

[البلد: ١٧].

وألفاظ النص التي أتت بصيغة الجمع تُشعر بأهمية الجماعة والاجتماع

وتكاتف المجتمع كله، سواء في الاعتقاد والإيمان والمحافظة عليه وحراسة

القيم والأخلاق ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أو في تحمل المشاق والمتاعب العامة

والخاصة والتكاتف لذلك ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أو في التعاطف والتكافل

المجتمعي العام، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، والتراحم قيمة أسمى من قيمة العدل

إذا كانت من المجتمع فيما بينه.

ثم أشارت الآية في آخرها إلى أن عمران البلدان وصلاح المجتمعات

إنما هو توطئة للحياة الحقيقية والعمران الكامل: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٨]، ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: ١٩]، وهذا يؤخذ منه أيضاً القيم الروحية في البناء والنهضة، وضرورة تحلي المجتمع بها.

وهكذا لو تأملنا سور القرآن الطويلة ومتوسطة الطول لوجدناها تشير إلى هذه المعاني، ومتى فُتح على القلوب استشرفت من تدبره ما فيه صلاحها وصلاح الأرض كلها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

لذا ينبغي تدبُّر هذا القرآن العظيم وتثويره واستخلاص المعاني والعوامل الهادية لكل خير وصلاح دنيوي وأخروي، فهو كتاب هداية شاملة، ثم نشر هذه العوامل، وتعريف المسلمين بها تمهيداً للعمل بها وفق ما تقتضيه الظروف، ومخاطبة المؤثرين في هذه الأمة ولفت نظرهم إلى هذه العوامل، كلٌّ وفق تخصصه وميدانه، واستلهام التجارب التاريخية في استنهاض الأمة وفق منهج القرآن الكريم.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً،
وصلّى الله وسلم على نبيه الكريم دائماً سرمدًا.

ثبت المصادر والمراجع

- ١- الأبحاث المسددة، لصالح بن المهدي المقبل، الجيل الجديد - صنعاء، ط١، ١٤٢٨هـ/ ١٩٢٧م.
- ٢- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- ٣- الإجهاض في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، للدكتور محمد وفا ريشي، دار الكتاب العربي الجديدة - بيروت، ٢٠٠٣م.
- ٤- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- ٥- أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي المعروف بابن العربي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ٦- الإدارة العامة... الأسس والوظائف، مجموعة من المؤلفين، مكتبة الشقري - الرياض، ٢٠٠٦م.
- ٧- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي دمشق، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- ٨- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لأبي عبد الرحمن محمد ابن نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٩- أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٠- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام - القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.

١١- أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٢- استراتيجية الإدراك للحراك... من الصحوة إلى اليقظة، للدكتور جاسم سلطان، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، ط٤، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٣- الإسراف والتبذير، للدكتور زيد بن محمد الرماني، دار الوطن للنشر.

١٤- الإسراف وتأثيره على البيئة، لمحمد عبد القادر الفقي.

١٥- الإسلام والمذاهب الاشتراكية، لأبي شبيب محمد تقي الدين بن عبد القادر الهاللي، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، ط٣، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

١٦- الإسلام وأوضاعنا السياسية، لعبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة للطباعة، والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٧- الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار عطاءات العلم - الرياض، ط٥، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

- ١٩- الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي
الدمشقي، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م.
- ٢٠- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر -
بيروت، الطبعة الثانية.
- ٢١- أمريكا والإبادات الجماعية، منير العكش، رياض الريس للكتب
والنشر، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٢٠ م.
- ٢٢- الانتحار، لإميل دوركايم، ترجمة: حسن عودة، الهيئة العامة السورية
للكتاب، ٢٠١١ م.
- ٢٣- أنوار البروق في أنواء الفروق، لأبي العباس أحمد بن إدريس بن
عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، عالم الكتب.
- ٢٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد
الشافعي الرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء
التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- ٢٥- أيسر التفاسير، لأبي بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر،
مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط ٥، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- ٢٦- الإيمان: حقيقته/ خوارمه/ نواقضه عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله بن
عبد الحميد الأثري، مدار الوطن للنشر - الرياض، ط ١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- ٢٧- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لأحمد محمد شاكر،
مكتبة دار التراث - مصر، ط ٣، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- ٢٨- البحر الزخار (مسند البزار)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله/
عادل بن سعد - صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة
المنورة، ط ١، بدأت ١٩٨٨ م، وانتهت ٢٠٠٩ م.

٢٩- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٣٠- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني، دار المعرفة - بيروت.

٣١- بهجة المجالس وأنس المجالس، لأبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي.

٣٢- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.

٣٣- التاريخ الإسلامي - الخلفاء الراشدون، لمحمود شاكر، المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ.

٣٤- تاريخ الخلفاء، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٣٥- تاريخ الدولة العلية العثمانية، لمحمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا المحامي، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس - لبنان، ط ١، ١٤٠١هـ.

٣٦- تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، دار التراث - بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

٣٧- التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (استراتيجية الرسول السياسية والعسكرية)، للدكتور علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- ٣٨- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك
- ٣٩- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني،
رابطة هيئة الإعجاز العلمي - مكة، ١٤٢١هـ.
- ٤٠- التحالف السياسي في الإسلام، لمنير محمد الغضبان، دار السلام،
ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨ م.
- ٤١- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن
إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، تحقيق: د. فؤاد عبد
المنعم أحمد، دار الثقافة - قطر، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ م.
- ٤٢- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب
المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية
للنشر، تونس: ١٩٨٤ م.
- ٤٣- التحفيز والشخصية أو الدافع والبشرية، لإبراهيم ماسلو، ١٩٥٣ م.
- ٤٤- تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من
الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، لأبي الحسن علي بن محمد بن مسعود
الخزاعي المعروف بابن ذي الوزارتين، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب
الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ.
- ٤٥- التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية
التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية،
لمحمد عبد الحي بن عبد الكبير، المعروف بعبد الحي الكتاني، تحقيق:
عبد الله الخالدي، دار الأرقم - بيروت، ط٢.
- ٤٦- تطوير التعليم الإلزامي في جمهورية مصر العربية في ضوء خبرة
المملكة المتحدة، لمحمد علي مرزا، أطروحة دكتوراه/ جامعة القاهرة معهد
الدراسات والبحوث التربوية.

- ٤٧- التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية - لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٤٨- تفسير ابن عرفة؛ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة التونسي، تحقيق: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية- تونس، ط١، ١٩٨٦م.
- ٤٩- تفسير ابن كثير؛ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ٥٠- تفسير الألوسي= روح المعاني
- ٥١- تفسير البغوي؛ محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٥٢- تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل
- ٥٣- تفسير الخازن= لباب التأويل في معاني التنزيل
- ٥٤- تفسير الرازي= التفسير الكبير
- ٥٥- تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
- ٥٦- تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن
- ٥٧- تفسير العز بن عبد السلام، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٥٨- تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن
- ٥٩- التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

- ٦٠- تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- ٦١- التفسير الوسيط، للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- ٦٢- التنمية في عالم متغير.. دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراتها، للدكتور إبراهيم العيسوي، دار الشروق - القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- ٦٣- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- ٦٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر ابن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- ٦٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- ٦٦- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- ٦٧- جدوى القوة العسكرية، بو بكر الجوهري، مؤسسة خالد الحسن - مركز الدراسات والأبحاث، العدد ١٢: ٢٠١٨م.
- ٦٨- جرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال، للدكتور رؤوف عبيد، ط ٥، ١٩٦٥م.
- ٦٩- الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي

التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك، لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال البغدادي الحنبلي، تصنيف: أبو عبد الله محمود بن محمد الحداد، دار العاصمة - الرياض - السعودية، ط ١، ١٤٠٧هـ.

٧٠- الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، دار القلم - دمشق، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

٧١- الحضارة الإسلامية، لأحمد عبد الرحيم السايح، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - السنة العاشرة - العدد الثالث: ذو الحجة ١٣٩٧هـ / نوفمبر تشرين ثاني ١٩٧٧م.

٧٢- الحضارة والتمدن الإسلامي، للدكتور عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، مصر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

٧٣- الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، للدكتور حسين مؤنس، عالم المعرفة، الكويت، ط ٢، ١٩٩٢م.

٧٤- حقوق الإنسان في السنة النبوية، لحسين بن محمد المهدي، ط ١، ١٤٢٥هـ.

٧٥- حقوق الإنسان وحياته الأساسية، للدكتور هاني سليمان الطعيمات، دار الشروق - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

٧٦- الخلافة والإمامة ديانة وسياسة، للدكتور عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٧٧- الخلافة، لمحمد رشيد بن علي رضا، الزهراء للإعلام العربي، مصر - القاهرة.

٧٨- دلائل النبوة، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - دار الريان للتراث، ط ١، ١٩٨٨م.

٧٩- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لإبراهيم بن علي ابن محمد بن فرحون اليعمري، تحقيق: الدكتور محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث للطبع والنشر - القاهرة.

٨٠- الدين في الاصطلاح الإسلامي، كتاب على الموسوعة الشاملة، ونسبته لموقع وزارة الأوقاف السعودية بدون ذكر بياناته.

٨١- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٨٢- الذبائح والطرق الشرعية في إنجاز الزكاة، مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي - جدة، ١٩٦٣م.

٨٣- الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام - القاهرة، ١٤٢٨هـ.

٨٤- الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ١٣٩٣هـ.

٨٥- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار العصماء - دمشق، ط ١، ١٤٢٧هـ.

٨٦- رد المحتار على الدر المختار، لمحمد علاء الدين بن محمد أمين ابن عمر بن عبد العزيز عابدين الحسيني، الدمشقي الحنفي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط ٢، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

٨٧- الرهينة والثقافة والمجتمع، لساندرا بيل (المُحاضرة في علم الانثروبولوجي في جامعة درهام)،

٨٨- روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، دار الفكر، بيروت.

٨٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ.

٩٠- زاد المعاد في هدي خير العباد، لأبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، - الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م.

٩١- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبو زهرة، دار الفكر العربي.

٩٢- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق الأميرية - القاهرة، ١٢٨٥ م.

٩٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد بن نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، مكتبة المعارف، للنشر والتوزيع - الرياض، ط ١.

٩٤- سنن ابن ماجه؛ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد - محمد كامل قره بللي - عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.

٩٥- سنن أبي داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.

٩٦- سنن الترمذي (الجامع الكبير)، لأبي عيسى محمد بن عيسى ابن سَوْرَةَ بن موسى بن الضحاك، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

٩٧- سنن الدارقطني؛ أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - حسن عبد المنعم شلبي - عبد اللطيف حرز الله - أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة - لبنان، ط ١، ١٤٢٤هـ.

٩٨- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - لبنان، ط ٣، ١٤٢٤هـ.

٩٩- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، إشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

١٠٠- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

١٠١- سيرة ابن هشام؛ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

١٠٢- السيرة النبوية الصحيحة... محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، للدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط ٦، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

١٠٣- السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي

البصري ثم الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م.

١٠٤- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث القاهرة، دار مصر للطباعة، ط ٢٠، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٠٥- شروط النهضة، لمالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل مسقاري - عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٠٦- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري اليميني، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٠٧- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٠٨- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، ١٤٢٢هـ.

١٠٩- صحيح الترغيب والترهيب، لأبي عبد الرحمن محمد بن نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١١٠- صحيح الجامع الصغير وزياداته، لأبي عبد الرحمن محمد بن نوح ابن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، لمكتب الإسلامي.

١١١- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١١٢- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين أبي الخير محمد ابن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، دار مكتبة الحياة - بيروت.

١١٣- الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، دار صادر - بيروت.

١١٤- عصر الخلفاء الراشدين، لمحمد أسعد طلس، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٠م.

١١٥- العلل، علي بن عبد الله بن جعفر السعدي المدني، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٨٠م.

١١٦- على عتبات الحضارة (بحث في السنن وعوامل التخلق والانقياد)، لبتول أحمد جندية، دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع - سورية، ط ١، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

١١٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي عبد الرحمن محمد أشرف ابن أمير بن علي بن حيدر الصديقي، (ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ.

١١٨- غزوة أحد دراسة دعوية، لمحمد عيطة بن سعيد، دار إشبيلية، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

١١٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٢٠- فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان

ابن لطف الله الحسيني البخاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٢١- فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير - دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.

١٢٢- فتنة السلاية في الإسلام، للدكتور أحمد بن علي البتيت، مركز نشوان الحميري، ط ١، ٢٠٢١م.

١٢٣- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٢٤- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط ٢، ١٩٧٧م.

١٢٥- فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب، لعلي محمد الصلابي، مكتبة الصحابة - الشارقة.

١٢٦- فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة - بيروت ط ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٢٧- فقه السيرة، لمحمد الغزالي، دار القلم - دمشق، ط ١، ١٤٢٧هـ.

١٢٨- فلسفة الفكر الإداري والتنظيمي، ثامر المطيري، دار اللواء - الرياض، ١٩٩٠م.

١٢٩- في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم، دار الشروق - القاهرة، ط ٢٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٣٠- في فلسفة الحضارة، للدكتور أحمد محمود صبحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع - مصر، ط ١، ١٩٩٩م.

١٣١- قانون التأويل، للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي المعروف بابن العربي، تحقيق: محمد السليمان، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٣٢- قصص الأنبياء، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف - القاهرة، ط ١، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٣٣- الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ.

١٣٤- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد بن علي بن محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

١٣٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم جار الله محمود ابن عمرو بن أحمد، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

١٣٦- كشف الأستار عن زوائد البزار، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٣٧- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، لأبي الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداي، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٣٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم

الثعلبي، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.

١٣٩ - الكُنَى والأَسْمَاء، لأبي بَشْرٍ مُحَمَّد بن أَحْمَد بن حَمَاد بن سَعِيد بن مُسْلِم الأنصاري الدولابي الرازي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم - لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ.

١٤٠ - لباب التأويل في معاني التنزيل، لأبي الحسن علاء الدين علي الدين بن إبراهيم بن عمر الشيعي، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

١٤١ - لسان العرب، لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المعروف بابن منظور، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.

١٤٢ - ما هي النهضة؟ لسلامة موسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.

١٤٣ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت - الكويت، ط ٢، ١٩٨٥م.

١٤٤ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي - القاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٤٥ - مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

١٤٦ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق

ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

١٤٧- المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي، لمحمد محمد حسن شراب، دار القلم- بيروت، الدراسات الشامية- بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٤٨- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله ابن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١٤٩- مسند أبي يعلى؛ أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٥٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - وآخرين، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٥١- مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، لمحمد بن علي بن آدم بن موسى، دار المغني - الرياض، ط ١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٥٢- مشكلات التعليم الإلزامي في القطر العربي السوري (أطروحة دكتوراه)، لمحمد زهير مشارقة، دار المقتبس.

١٥٣- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العريية - بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

١٥٤- المُصَنَّف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي - الهند، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

١٥٥- المطلع على ألفاظ المقنع، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، تحقيق: محمود الأرئوط - ياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي للتوزيع، ط ١، ١٤٢٣هـ.

١٥٦- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد - عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة.

١٥٧- معجم البلدان، لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر - بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م.

١٥٨- المعجم الصغير (الروض الداني)، لأبي القاسم سليمان بن أحمد ابن أيوب الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٥٩- معجم اللغة العربية المعاصرة، للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

١٦٠- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.

١٦١- معين السيرة، لصالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

١٦٢- المغني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، مكتبة القاهرة، ط ١، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

١٦٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لأبي عبد الله

محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم، الرياض، ط ٣، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.

١٦٤ - مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٦٥ - المقدمات الأساسية في علوم القرآن، لعبد الله بن يوسف بن عيسى ابن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، مركز البحوث الإسلامية ليدز - بريطانيا، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

١٦٦ - مقدمة ابن خلدون، دار نهضة مصر.

١٦٧ - مقدمة في الإدارة الإسلامية، لأحمد داود المزجاجي، دار خوارزم - جدة، ٢٠٠٠م.

١٦٨ - المقدمة في فقه العصر، للدكتور فضل بن عبد الله مراد، الجيل الجديد، صنعاء، ط ٢، ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م.

١٦٩ - من روائع القرآن، لمحمد سعيد رمضان البوطي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

١٧٠ - مناهج الشريعة الإسلامية، أحمد محيي الدين العجوز، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٧١ - المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر - مؤسسة الأهرام، ط ١٨، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

١٧٢ - المنح الإلهية في جمع القراءات السبع من طريق الشاطبية، للدكتور خالد بن محمد العلمي، مكتبة دار الزمان، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.

١٧٣ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

١٧٤- الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٧٥- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي، المغربي المالكي المعروف بالحطاب الرُّعِينِي، دار الفكر، ط٣، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٧٦- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٧٧- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤٢٠هـ.

١٧٨- الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد المرادي النحوي، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٧٩- نصب الراية لأحاديث الهداية، لأبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي، تحقيق: محمد يوسف البنوري، دار الحديث - مصر، ١٣٥٧هـ.

١٨٠- نصيحة الملوك، لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي الشهير بالماوردي، تحقيق: خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح الكويت، ١٤٠٣هـ.

١٨١- النظام السياسي في الإسلام، للدكتور محمد سليم العوا، دار الشروق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

١٨٢- النظام السياسي في الإسلام، للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان - عمان - الأردن، ١٩٨٦م.

١٨٣ - نظرية التملك في الإسلام، للدكتور حمد الجنيدل، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٨٤ - نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ.

١٨٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٨٦ - هداية القرآن للتي هي أقوم، لعلي بن نايف الشحود، دار المعمور - بهانج ماليزيا، ط ٢، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.

١٨٧ - هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ماجد عرسان الكيلاني، دار القلم للنشر والتوزيع - دولة الإمارات العربية المتحدة، ط ٣، ١٤٢٣هـ / ٢٠٢٠م.

المجلات والمقالات والمواقع الإلكترونية

١ - أثر المساواة في الفكر الإسلامي المعاصر، للدكتور علاء الدين الأمين الزاكي، مجلة البيان عدد (٢٤٠) شعبان ١٤٢٨هـ.

٢ - أحكام الزكاة بين التوقيف والتعليل، لعبد الله العازمي، دراسة تأصيلية، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الشرعية والقانونية - عدد نوفمبر ٢٠٢٠م.

٣ - إشارات قرآنية إلى الانتفاع بالثروات الطبيعية، (مقالة منشورة على شبكة الإنترنت)، لمحمد فتحي حسان.

٤ - بالأرقام والدول... فضائح التحرش بالأطفال تلاحق الرهبان، تقرير موثق حول هذه القضايا، منشور على موقع الجزيرة على الإنترنت.

<https://cutt.us/K7ux4>.

- ٥- تصنيف الحاجات الإنسانية في ضوء سورة قريش، للدكتور محمد محمود بن أحمد محجوب، مقالة قصيرة منشورة على شبكة الإنترنت.
- ٦- تقرير مؤتمر الأمم المتحدة الثالث عشر لمنع الجريمة والعدالة الجنائية، الدوحة، ١٢ - ١٩ إبريل ٢٠١٥م.
- ٧- التكافل الاجتماعي، كتاب على الموسوعة الشاملة، ونسبته لموقع وزارة الأوقاف السعودية بدون ذكر بياناته.
- ٨- وسائل القرآن الكريم للحفاظ على النسل وتكثيره، لسيد أحمد هاشمي، ومحمد جمالي/ مجلة قرآنيكا (مجلة عالمية لبحوث القرآن الكريم، العدد: ١٧)، ٢٠١٥م.



المحتويات

مقدمة.....	٥
الفصل الأول: مفهوم عوامل النهضة.....	٧
أ- مفهوم عوامل النهضة لغةً واصطلاحاً وتاريخاً.....	٩
معنى كلمة (عوامل) لغةً اصطلاحاً.....	٩
معنى كلمة (النهضة) لغةً.....	١٠
مفهوم عوامل النهضة اصطلاحاً.....	١٢
مصطلحات مشابهة لمصطلح النهضة.....	١٣
١ - مصطلح التنمية.....	١٣
٢ - مصطلح الحضارة.....	١٤
الحالة التاريخية لعوامل نهضة المجتمعات من خلال القرآن الكريم.....	١٦
١ - تراكم عوامل النهضة تاريخياً.....	١٦
٢ - النهضة في التاريخ الإسلامي منذ نزول القرآن الكريم.....	٢٠
العهد الإسلامي المكي.....	٢٠
العهد الإسلامي المدني.....	٢١
بناء المسجد.....	٢٢
المؤاخاة بين المسلمين.....	٢٢
الميثاق الاجتماعي والسياسي.....	٢٣
العهد الإسلامي الراشد.....	٣٦
العهد الأموي والعباسي والعثماني.....	٣٩
ب- مفهوم عوامل النهضة في القرآن الكريم.....	٤٣
المصطلحات القرآنية التي بمعنى النهضة أو تدل على مقصدها.....	٤٣

- ١- المصطلحات التي استخدمها القرآن الكريم في معنى النهضة: ٤٣
- ٢- المصطلحات القرآنية التي تدل على مقصد النهضة: ٤٨
- آيات النهضة في القرآن الكريم: ٥٨
- ١- تقسيم مادة القرآن: ٥٨
- ٢- عوامل النهضة مع أول نزول قرآني: ٦١
- ٣- عوامل النهضة في القرآن المكي: ٦٤
- ٤- عوامل النهضة في القرآن المدني: ٦٧
- ٥- عوامل النهضة موضوعياً في القرآن: ٧٢
- عرض القرآن لعوامل النهضة من خلال المجتمعات السابقة: ٧٤
- فهي مع بيان القرآن لها في سياقاته: ٧٦
- ١- مجتمع عاد: ٧٧
- ٢- مجتمع ثمود: ٧٩
- ٣- مجتمع مدين: ٨٢
- الخلاصة: ٨٦
- الفصل الثاني مرتكزات القرآن الكريم في عرضه لعوامل النهضة ... ٨٩
- أ- مرتكز أصل الاستخلاف البشري: ٩٢
- مقصود الاستخلاف في الأرض: ٩٢
- تحليل آية الاستخلاف: ٩٧
- ب- مرتكز التوحيد: ١٠٦
- فما هو التوحيد؟ ١٠٦
- التوحيد هو قضية الاستخلاف: ١٠٧
- قضية التوحيد أساس الإصلاح والنهضة: ١١٤
- نتيجة الانحراف عن قضية التوحيد: ١١٥

- ج- مرتكز التدافع البشري: ١١٨
- مقصود التدافع البشري: ١١٨
- تحليل سياق آيات التدافع: ١٢٣
- د- مرتكز البعد التكافلي الإنساني: ١٣١
- محورية التكافل الاجتماعي في القرآن: ١٣١
- أسلوب القرآن في عرض مرتكز التكافل الاجتماعي: ١٣٧
- هـ- مرتكز شرائع الدين: ١٤٦
- مفهوم الدين والشرعية ومقصد هما: ١٤٦
- أسلوب القرآن في عرض مرتكز الشرائع: ١٥١
- و- مرتكز الحاجة الإنسانية: ١٦٨
- مفهوم الحاجة الإنسانية: ١٦٨
- أسلوب القرآن في عرض مرتكز الحاجات الإنسانية: ١٧٠
- ١- الحاجة إلى الطعام وما يتعلق به: ١٧٢
- ٢- الحاجة إلى الأمن، وما يتعلق به: ١٧٦
- ٣- الحاجة إلى العلاقة الاجتماعية: ١٨٠
- ٤- الحاجة الروحية (العبادة): ١٩٠
- الفصل الثالث عوامل النهضة في القرآن الكريم ١٩٥
- أ- العوامل المدنية للنهضة في القرآن الكريم: ١٩٧
- الاهتمام بالنسل وتحفيز المجتمع على التناج البشري: ١٩٧
- الصورة الأولى: ١٩٧
- الصورة الثانية: ٢٠٢
- الصورة الثالثة: ٢٠٤
- الصورة الرابعة: ٢١٣

٢١٩	الصورة الخامسة:
٢٢٠	الصورة السادسة:
٢٢١	الصورة السابعة:
٢٢٢	الصورة الثامنة:
٢٢٦	الصورة التاسعة:
٢٢٧	الصورة العاشرة:
٢٢٨	الاهتمام بالعمل وتحمل المسؤولية:
٢٤٢	ب- العوامل السياسية للنهضة في القرآن الكريم:
٢٤٢	مبدأ الشورى:
٢٤٣	المحور الأول: دلالة آية الاستخلاف على الشورى
٢٤٤	المحور الثاني: آيات الشورى في القرآن الكريم
٢٤٦	المحور الثالث: حكم الشورى
٢٥٠	المحور الرابع: مجال الشورى
	المحور الخامس: إشكالية أحاديث قريش والبطنين في مواجهة مبدأ
٢٥٢	الشورى القرآني
٢٥٩	المحور السادس: حتمية مبدأ الشورى
٢٦٤	تحقيق الأمن:
٢٦٥	١- أنواع الأمن في القرآن الكريم:
٢٦٥	النوع الأول: الأمن العقدي
٢٦٧	النوع الثاني: الأمن النفسي
٢٧٥	النوع الرابع: الأمن السياسي
٢٧٦	النوع الخامس: الأمن الغذائي والمائي
٢٧٦	النوع السادس: الأمن الوطني، أو أمن الوطن

النوع السابع: الأمن المجتمعي	٢٧٧
٢- أهمية الأمن كعامل من عوامل النهضة:	٢٧٩
٣- مقومات الأمن في القرآن الكريم:	٢٧٩
مبدأ العدل والمساواة:	٢٨٠
المعيار الأول: التقوى	٢٨٩
المعيار الثاني: العلم	٢٩٠
تفعيل مبدأ الرقابة:	٢٩٢
أولاً: الرقابة الذاتية	٢٩٥
ثانياً: الرقابة التشريعية	٢٩٦
ثالثاً: الرقابة المجتمعية	٢٩٨
رابعاً: الرقابة الأمنية	٣٠٠
خامساً: الرقابة الإعلامية	٣٠٢
ج- العوامل الاقتصادية للنهضة في القرآن الكريم:	٣٠٥
مقاصد المال والثروة في القرآن:	٣٠٥
موارد المال والثروة:	٣٠٩
١- الموارد الطبيعية:	٣٠٩
٢- الموارد الشرعية:	٣٢٠
توزيع المال والثروة:	٣٢٥
الحفاظ على الثروة والمال:	٣٢٩
د- العوامل العلمية للنهضة في القرآن الكريم:	٣٣٥
تفعيل التعليم الموجّه:	٣٣٥
التعليم المجتمعي:	٣٤٤
هـ- العوامل العسكرية للنهضة في القرآن الكريم:	٣٤٨

- ٣٤٨ بناء القوة العسكرية:
- ٣٤٩ الصورة الأولى: بناء الأفراد عسكرياً
- ٣٥٠ الصورة الثانية: بناء القادة
- ٣٥٠ الصورة الثالثة: بناء محددات القادة
- ٣٥٢ الصورة الرابعة: بناء المعدات العسكرية بأنواعها، ومصانع السلاح
- ٣٥٤ الصورة الخامسة: بناء الدفاعات العسكرية
- ٣٥٥ الصورة السادسة: بناء المراسد والعيون
- ٣٥٦ الصورة السابعة: بناء الحواجز والسدود المخفية
- ٣٥٧ الصورة الثامنة: بناء الحواجز والحصون الظاهرة
- ٣٥٧ الصورة التاسعة: اتخاذ الملاجئ وما في معناها
- ٣٥٨ الصورة العاشرة: التنبيه على ما يمكن استخدامه في التسليح
- ٣٦٠ الصورة الحادية عشرة: التنبيه على أهمية التعبئة العسكرية
- الصورة الثانية عشرة: التنبيه على أهمية وضع الخطط للمعارك أو العمليات القتالية، وأماكنها، وما يختص بها
- ٣٦١ الصورة الثالثة عشرة: التأهب وعدم الغفلة
- ٣٦٢ الصورة الرابعة عشرة: التنبيه على اتخاذ وسائل لتضليل العدو
- ٣٦٣ الصورة الخامسة عشرة: التنبيه على أهمية التخفي عند التحرك، أو عند بدء العمليات العسكرية
- ٣٦٤ الصورة السادسة عشرة: التنبيه على أهمية عنصر المفاجأة والمباغطة في العمليات العسكرية
- ٣٦٤ الصورة السابعة عشرة: التنبيه على أهمية الاصطفاف
- ٣٦٥ الصورة الثامنة عشرة: التنبيه على بعض الحركات القتالية المؤثرة
- ٣٦٥ الصورة التاسعة عشرة: تحطيم ما يتحصن به العدو
- ٣٦٦

الصورة العشرون: حفظ الاتفاقات والمعاهدات وحُرمة الأوقات	٣٦٧
الصورة الحادية والعشرون: التنبيه على البدء بالعدو الأقرب	٣٦٨
الصورة الثانية والعشرون: الجنوح للسَّلم متى ما اقتضت الحاجة أو المصلحة لذلك	٣٧٠
مجالات استخدام القوة العسكرية:	٣٧٣
و- العوامل الاجتماعية للنهضة في القرآن الكريم:	٣٨٣
العدالة الاجتماعية:	٣٨٣
التكافل الاجتماعي:	٣٨٨
التعايش المجتمعي:	٣٩٤
ز- العوامل الروحية للنهضة في القرآن الكريم:	٤٠٠
البناء الروحي والإيماني:	٤٠٠
أسلوب القرآن الكريم في بناء العوامل الروحية:	٤٠٥
ح- العوامل الأخلاقية للنهضة في القرآن الكريم:	٤٢٤
البناء الأخلاقي في القرآن الكريم:	٤٢٤
أسلوب القرآن الكريم في بناء الأخلاق:	٤٢٩
ختامًا	٤٣٢
ثبت المصادر والمراجع	٤٣٥
المحتويات	٤٥٧